سلسلة قصص روحية قصيرة وهادفة

المجموعة الأولى

أُجَراء وَأبناء

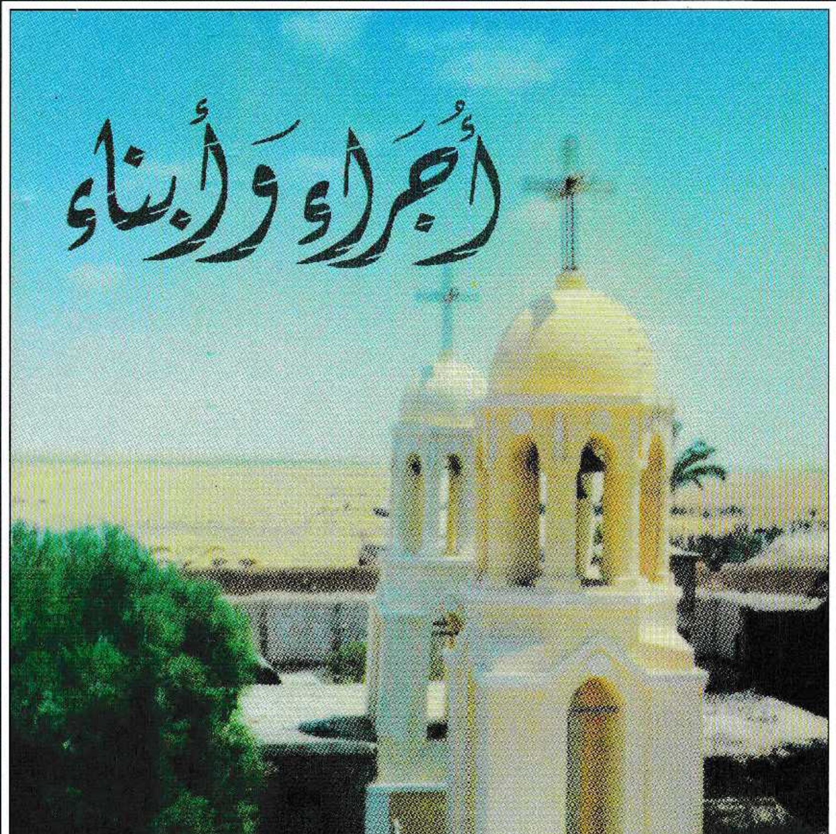

من الأدب الرهبانى

أُجَرَاءُ وأَبْنَاءٌ

سلسلة قصص روحية قصيرة وهادفة

مراجعة

نيافة الأنبا أرسانيوس

إعداد

مكاريوس

الأسقف العام

الكتـــــاب : أجراء وأبناء

قصص روحية قصيرة

إعـــــــداد : مكاريوس (الأسقف العام)

مـراجعـــــة : نيافة الأنبا أرسانيوس

الطبعـــــــة : التاسعة سبتمبر ٢٠١٤

الأولى صدرت فى أجزاء منفصلة فى عدة طبعات من قبل

طبـــاعـــة : مطبعة الدلتا - delta PRESS

www.deltapress.net

٢٤ ش الدلتا سبورتنج - ت: ٥٩٠١٩٢٣ /٠٣ ٢٠+

رقم الإيـــداع : ٤٩٣٧ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى : ٩٧٧-٠٣-٠٨٧٦-٥

قداسة البابا تواضروس الثانى

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٨

نيافة الأنبا أرسانيوس

مطران المنيا وأبو قرقاص

المقـــدمة

هذه القصص كتبت خلال الفترة ما بين سنة ١٩٩٠ حتى ١٩٩٥م وطبعت عدة طبعات وصل بعضها إلى عشرة بالنسبة لبعض الأجزاء ، وقد ضممناها هنا فى كتاب واحد ، وأرجو أن يتسع وقتى لكتابة المزيد منها .

وبعض هذه القصص حقيقية غير أنها كتبت هنا بتصرف .. والبعض الآخر يضم العديد من المواقف والتى حدثت بالفعل ، والبعض الثالث هو نسج الخيال حيث تعرض القصة لقضية ما ، أو تطرحها للمناقشة . وأرجو أن يغفر القارئ لى تقصيرى وهفواتى ،

المؤلف

دير البرموس نوفمبر ٢٠٠٠

انطلاق

كعادته فى كل يوم، خرج أبونا سيرابيون إلى البرية ليصرف بعضاً من وقته عند الغروب..

آناً متمشياً فوق الرمال.. وآونة جالساً يداعب الحصى مستغرقاً فى تأمل غائر.. إلى وقفة فيها ذبيحة التسبيح لا تلبث أن تتحول إلى صلاة عميقة تنتهى إلى ما يسميه المختبرون دهشاً... ثم إلى الإختطاف..

نعم وأبونا سيرابيون من النوع البسيط جداً.. حتى فى علاقته بأخوته فى المجمع.. لا يجادل ولا يخاصم.. لا يحقد وليست له رغبات خاصة فى الدير أو حتى فى قلايته.. فقلايته لا تختلف فى شئ عن قلاية أى أخ جديد فى انتظار تزكية الدير له للرهبنة.

وعلى الرغم من أنه يحب الكل.. فلا دالة له مع أحد فإذا مدحته علت وجهه حمرة الخجل دون تعليق، وإذا أسئ إليه عفواً أو حتى عمداً، شعر وكأن الإساءة موجهة إلى شخص آخر، يشفق هو عليه ويتعاطف معه.

هكذا عاش هانئ البال ومستقر الحال.. الكل مقدس وطاهر فى عينيه.. كان يشعر أنه هو الوحيد الذى يحتاج إلى نقاوة قلب وحب متدفق.

روى راهب عنه فقال إذا دخل الكنيسة.. فضلاً عن الخشوع الذى يقف به فإنه لا يلاحظ غالباً من يصلى؟.. وهل طال الوقت فى الصلاة أم لا.. وعند توزيع السرائر المقدسة كان يدخل فى هدوء إلى الهيكل دون أن تفارقه إشراقة وجهه، والإنحناءة الخفيفة التى ألفها فيه الآباء فى الدير.

وإذا مشى تحس وكأنه يعرج عرجة خفيفة كأن شئ ما ألمّ برجله اليسرى وكلما صادف راهباً فى الطريق إنحنى ويده على صدره قائلاً «سلام لك يا أبونا».

وأما جسده العفيف فلم يتذمر عليه بسبب ملابسه الرثة وشاله الضارب إلى الاخضرار من فرط قدمه..

كان يحب قلايته جداً ويشعر أنها أمه، فى حضنها يرتمى، سره فيها.. أنها المعمل الروحى فى نظره.. نادراً ما يغادرها، وإذا حدث عاد إليها سريعاً.. أنها المكان الذى شهدِ كلِ اختباراته الروحية وسمع كل تأوهاته وملامته الشديدة لنفسه.. ونعِم بالنور الخارج من يديه وتشرف بزيارة العديد من القديسين القدامى الذين زاروه..

وعن الحجر الكبير الذى فى ركن القلاية.. فقد كان يجلس عليه وأمامه طبق صارخ فى القدم بداخله حفنة من نقى الزيتون يتناولها أبونا واحدة واحدة.. يسويها من الجانبين، ثم يثقبها ليدخلها فى الخيط الذى أعده لذلك.

فإذا انتهى من عمل (سبحه) أهداها إلى آخر- وهو فى هذا له طرق غاية فى اللطف.

أمام البئر الأثرى قابل الأخ يوسف.. فسأله فى رقته المعتادة «هل عندك سبحة؟» أجاب فى تردد «لا يا أبى هل قدسك فى احتياج إلى واحدة»، فقال أبونا «لا بل عندى واحدة زيادة عن حاجتى هى إذن لك وأنا واثق أنك ستصلى لأجلى كلما داعبت أصابعك المقدسة حباتها

الخشنة»، أو يتركها معلقة فى مقبض باب ويرفق بها ورقة صغيرة كتب عليها هذه السبحة خاصة بالأب ـ فلان ـ وذلك خشية أن يتركها الشخص المهداة له ظاناً أنها اخطأت الطريق إلى صاحبها.

وإذا فتشته عن أفكاره وجدته عجيباً فى منهجه فهو خبير فى الدفاع عن الآخرين والتماس الأعذار لهم. ويعتبر أن المستوى الطبيعى هو أن نغفر للآخرين اساءتهم ولكن المستوى الروحى يؤهلنا أن نلتمس الأعذار لهم.. وفى دفاعه عن الآخرين لا يكذب ولا يبالغ أو يحمّل الأمور أكثر مما تحتمل.. ولكنه يبحث عن النقاط الجيدة فى شخصية المدان ومن ثم يسلط عليها الأضواء أو يذكر احتمالات كثيرة لتبرير ما وقع فيه.. وفى كل هذا لا يتوانى فى أن يتعلم من أخطاء الآخرين.

وعن تدبيره فى السلام فإنه لم يكن يحب أن يكون طرفاً فى نزاع.. أو سبباً فى آلام الآخرين.

يحكى عنه أن فأراً صغيراً استطاع أن يتسلل إلى داخل قلايته.. ورأه.. ومع ذلك فلم يفكر فى طرده.. وأما الفأر فقد طابت له المعيشة هناك.. يأكل من أكله.. ويشاركه مكانه.. ويجرى مسروراً هنا وهناك.. وكبر الفأر وبدأ فى إيذاء أبونا.. ونصحه الأب بقطر بأن يقتله أو على الأقل يطرده من القلاية.. ولكنه احتج فى بساطة قائلاً.. كيف اسئ إليه بينما حياتى وحياته فى يد الله؟(١)

---

(١) الهدف الأساسى من سرد هذه الواقعة هو إبراز فضيلة المسالمة فى حياة هذا الأب بيد أن التخلص من الحشرات والقوارض لا سيما ما ينقل منها الأمراض ويؤثر على نظافة المكان، لا يتنافى مع لطف الإنسان ولا يعتبر خطيئة يدان عليها.

وبالجملة فقد كان أبونا سيرابيون يسلك وكأنه غريب نزل فى ضيافة آخرين..

وأحبه الآباء جداً واعتبره أكثرهم مثلهم الأعلى يحاولون أن يرجعوا إليه كلما وضعوا فى موقف غير عادى.. لكى يأنسوا برأيه ولكن المغبوط غالباً ما كان يركن إلى الصمت وإلى الاعتذار وحرك الشيطان بعض الأخوة المتهاونين ليشيعوا أن أبونا سيرابيون به لوثة عقلية ! وإلا فكيف بينما يتكلم طبيعياً ينقطع عن الكلام، شاخصاً بعينيه إلى أعلى أو جانباً وفاغراً فاه ويظل هكذا بضع دقائق قد تصل إلى بعض الساعة وأحيانا إلى أكثر.. ثم يعود معتذراً وهو يمسح بعض قطرات الدموع من على لحيته الحمراء. بأنه شرد فى أمر ما أو يختلق سبباً صحياً ليبرر به ماحدث..؟؟

وكان ذلك بتدبير من الله لكى يرد عن أبونا ما يأتى عليه من ضربات يمينية ولكى يكون هناك (موازنة) بين ما يتمتع به من هبات روحية وما يأتيه من محقرات لكى ينقذه من المجد الباطل.

وأما الآباء الحادقون فى الدير فقد عرفوا حقيقة هذا السرحان، وعللوه تعليلاً سليماً، ولكن سراً فيما بينهم لأن مثل هذه الأمور من الحكمة ألا تذاع خوفاً عليه.. وقيل أن الفضيلة إذا اشتهرت فقدت..

واتفقوا أيضاً أن يتركوه وينسحبوا فى هدوء كلما عاوده هذا الإختطاف عدا الأخ ثيئودوروس الذى من النوبة.

نحن الآن فى ١٣ بؤونة سنة ١٤٦٢ ش

فى قلايته روى الأخ ثيئودوروس لأحد الرهبان، أنه بالأمس خرج

من قلايته عندما قارب الليل على الإنتصاف متمشياً وعندما مرّ بقلاية الأب سيرابيون وإذا نور خافت إنبثقت أشعته عبر ألواح الباب الخشبية فوجد أبونا قد همّ بالقيام من مرقده، وبدأ يطوى الحصير البالى التى كان ينام فوقها، وعلى ضوء السراج الزيتى الخافت ظهرت الحصير متهدئة تتدلى منها الخيوط من كل مكان، وقد تناثر القش حولها - وبعد أن طواه ووضعه جانباً.. ومن ثم صار يحدث نفسه بصوت غير مسموع، ما لبث أن صار الصوت طرفاً فى حديث ثنائى.. ولكنه لم يبصر الشخص الآخر.. وأمعن السمع وفرك أذنيه مراراً حاثاً إياهما متوسلاً أن تساعداه وبالكاد استطاع تمييز بعض كلمات متفرقة.. مثل: غروب.. ماء.. المسيح يرحمنى.. لا.. لا.. الكل هنا أفضل منى..

ثم أشرق وجهه.. وارتعب الأخ ثيئودوروس من المنظر وهرع إلى قلايته يبكى قارعاً صدره..

وعندما تقابل مع أبونا فى الصباح.. عند البئر وجده على سابق عادته مبتسما منحنياً، ويده على صدره، وبعذوبة يقول (سلام لك يا أخ ثيئودوروس). وتعجب الراهب الجالس معه من الحديث وانصرف..

واعتاد الأخ ثيئودوروس على مراقبة أبونا.. وفى كل مرة كان يلوم نفسه أنه لم يصر بعد راهباً..

إلى أن جاء يوم ٢١ بشنس من العام التالى سنة ١٤٦٣ش حين قام أبونا سيرابيون مبكراً فوق العادة وقبل أن يدق ناقوس الدير ليعلن بدء تسبحة نصف الليل.. فقد اعتاد أن يستيقظ مبكراً فى كل يوم منذ إثنى عشر عاماً حين دخل الدير وهو ابن ستة وعشرين سنة..

وخرج من القلاية.. ومضى لفوره غرب الدير من الناحية القبلية، حيث وقف أمام طافوس(١) الدير، وهناك صلى صلاة قصيرة.

مشى برفق بعدها إلى بحرى قليلاً حيث الكينوبيون(٢) وخرج منه بخبرات قليلة وضعها فى جيبه. فقد كانت العادة وقتها أن يترك مفتوحاً ليأخذ منه الآباء إحتياجهم، وعاد أدراجه إلى القلاية. وفى كل ذلك لم يلحظ الأخ الذى كان يتبعه من بعد بحذر شديد. وبنفس الحذر، ساقته محبته لأبونا وسعيه للمنفعة الروحية إلى قلايته حيث (الثقب المقدس) الذى يتطلع منه على سفير من السماء، لايستحق العالم وطئة قدمه فوجده جالساً يحصى على أصابعه أسماء الآباء الموجودين فى الدير.. أبونا ساويرس.. أبونا برصنوفيوس.. أبونا شنودة.. أبونا دومتيانوس.. أبونا إبراهيم.. أبونا تكلا.. أبونا.. أبونا.. الأخ..

ثم همّ بعد ذلك بالخروج من القلاية.. فأسرع ثيئودوروس إلى الاختفاء خشية أن يراه، ويحزن بسبب كشف تدبيره.

فلما خرج مشى الهوينة حتى وصل إلى مبنى الضيافة الكائن إلى جوار الكنيسة شرقاً.. ومضى إلى داخله، ثم خرج بنفس الهدوء ولكن بدون اللفافة التى كان يحملها قبل أن يدخل.

ولما ابتعد قليلاً جلس القرفصاء عند آخر مبنى القلالى القديمة المتاخم لسور الدير من ناحية الباب البحرى، وكان يراقب الآباء وهم

---

(١) طافوس كلمة يونانية معناها مدفن.
(٢) كينوبيون كلمة يونانية معناها حياة مشتركة وأصبحت تطلق على المجمع (مخبز - مطبخ - مائدة - بيت لحم).

يسيرون كالأشباح فى الظلام، فى طريقهم إلى الكنيسة فقد كان جرس نصف الليل قد دق وهو خارج من مبنى الضيافة.. فإذا تأكد أن الرهبان جميعاً قد خرجوا من قلاليهم. تسلل إلى داخل الممر وصار يقبل أبواب القلالى فى نهم وسرور مع تمتمة خفيفة، لم يتمكن ثيئودوروس من استيضاح شئ منها.

ثم دخل إلى الكنيســـة . هناك كلما تقابل مع راهب أمسك يده بكلتا يديه ويقبلها فى فرح ممزوج بالخشوع، وفى أثناء القداس بدا وكأنه يريد أن يخفى شيئاً فوقف مستنداً إلى الحائط، يفرك فى عينيه.. تارة.. ويمسح على وجهه ولحيته تارة، ولكن الأخ ثيئودوروس كان يتبعه.

وانتهى القداس الإلهى.. وسرحت الكنيسة، ولكن أبونا لم يمضى إلى قلايته كباقى الآباء.. بل جلس على سور الحديقة التى توسطت الدير، والتى لا تزيد مساحتها عن قيراط واحد، ثم ما لبث أن صار يتنقل بين نخلاتها السبعة يتحسسها.. ذلك دون أن يطأ ما زرع من الفول.. والخضر.. إلى أن عاد أيضاً إلى جلسته الأولى على السور.. يخطط حيناً - بجريدة كانت ملقاة بجانبه - على الأرض.. وحيناً يداعب الحصى الذى افترش الأرض تحت قدماه.

وعلى السور بدا قلقاً بعض الشئ.. يفرك فى يديه تارة ثم يحكهما فى السور تارة أخرى.. إلى أن قام فى تثاقل يجر رجليه جراً.. مغادراً المكان..

هنا وتوقف الأخ عن متابعته فقد كان من الواجب عليه أن يمضى إلى عمله فى المجمع ليساعد أبونا ثيئوفان..

وعند الغروب من ذلك اليوم.. وبعد أن انتهت تسبحة عشية للاحتفال بعيد نياحة الأنبا ارسانيوس معلم أولاد الملوك.. خرج الآباء كعادتهم من الكنيسة إلى الباب القبلى للدير متجهين إلى البرية فى نزهة روحية كل فى ناحية.. ما لبثوا بعد دقائق معدودة أن تفرقوا مبتعدين عن الدير..

واتجه أبونا سيرابيون شرقاً، وغاب مثل الذين غابوا ولكنه ابتعد أكثر وأكثر.. وكان أبونا ثيئوبترس آخر من رآه.. فقد رآه يجد فى المسير بينما يقاوم الهواء ثيابه الرثة وشاله المتهرئ فى عناد وصفير مسموع.

وعندما نزل الظلام وكسا الأرض بحلته المهيبة. عاد الآباء أدراجهم إلى باب الدير.. ثم إلى قلاليهم. ولكن أبونا لم يعد.. ولم ينتبه الآباء إلى ذلك إلا عند ظهر اليوم التالى حين راح الأخ ثيئودوروس يوزع عليهم النبأ الغريب فى دهشة وانزعاج.. نعم فقد ذهب كعادته كل ليلة إلى قلاية المغبوط، لينال متعته اليومية عبر ثقب الباب ولكنه لم يجد أبونا مثل سابق عادته، وانتظر حتى الصباح ولكنه لم يعد، وحتى الظهر فلم يحتمل واعلن ملاحظته على الكل..

+ + +

فى لهجة آمرة ولكن بأدب رهبانى سليم.. أفرز الأب شيشوى سبعة من الرهبان للبحث عن أبونا.. قال لهم بمرارة : أصلى وتصلون معى ألا تكون الوحوش قد افترسته أو أن مكروهاً ما قد ألمّ به.. ورد الآباء فى تمتمه ووجوهم مطرقة إلى أسفل.. (...)..

وعند الغروب أمر رئيس الدير بضرب ناقوس الدير بلا انقطاع،

على أن يتناوب عليه بقية الآباء طوال الليل، علّ أبونا يهتدى إلى الدير عن طريق الصوت.

وأما العجوز يوساب فقد كان يجلس بجوار الباب من الخارج بعد أن توسل إلى الأخ فليمون أن يصحبه إلى هناك نظراً لكونه محروماً من نعمة البصر.. جلس ليراقب ما يحدث ولكى يقف - أولاً بأول - على نتائج البحث..

وطال غياب الآباء السبعة، وعاقت الرياح مصابيحهم الزيتية وبدأوا فى العودة إلى الدير نحو العاشرة مساءاً وهم حاسرين الوجوه.. ونظر إليهم رئيس الدير وفهم.. وصمت.

واستمر البحث طيلة شهر كامل دون جدوى وبدا الوجوم واضحاً على كل الوجوه فى الدير.. واقيمت صلوات وأصوام خاصة لأجل ذلك.. ولكنه لم يعد..!

ولم يفت رئيس الدير أن يسأل أب اعتراف أبونا سيرابيون فيما بينهما علّه يعرف تعليلاً لما حدث.. ولكن الأخير اعتذر فى لطف قائلاً : كل ما أعرفه أنه كان يؤخذ كثيراً.. وكان فى كل مرّة يقول لى، عدا هذه المرة فقط لم يقل لى شيئاً.

وانصرفت سنوات طويلة على هذه الحادثة دون أن يوجد لها تفسير شاف.. سوى مرات ثلاث ظهر فيها أبونا سيرابيون فى رؤى.. الأولى لرئيس الدير والثانية لأبونا ثيئوفان والثالثة للأخ ثيئودوروس.. (وكان قد ترهب باسم الراهب ببنودة).

نفس اشراقه وجهه.. ولحيته الحمراء المتوسطة الطول والكثافة وانحناءته الخفيفة.. ولكن الثلاثة لا يذكرون ماذا قال لهم بالضبط.. أو شيئاً عن الحديث الذى دار بينهم.. بل أجمعوا على شئ واحد وهو إحساسهم القوى بأن أبونا لايزال حياً..

وصارت قصة أبونا سيرابيون تتناقل من جيل إلى جيل يرويها الآباء للأخوة الجدد ويشيرون بأيديهم إلى قلايته.. وبالتحديد إلى العبارة المقوشة على الحائط.. (أبونا سيرابيون خرج ولم يعد..).

ومع الوقت، صارت أشبه بالإسطورة من فرط غرابتها فقد لوحظ أن الأجيال الجديدة ما كانت تصدق بسهولة أن مثل ذلك يمكن أن يحدث.. ربما لنقص الإيمان أو لقدم القصة أو لقدم الحادثة نفسها..

نحن الآن فى أول مسرى

أفاق أبونا سيرابيون على صوت أشبه بعواء الذئب، فتنهد مسروراً، وحدث نفسه بالرجوع إلى الدير، قبلما يغلق الباب..

ولكن وبينما هو فى طريقه إلى الدير لاحظ من بعد مائتى متر أن شكل الدير قد تغير.. فالمبنى الكبير الموجود من الجهة البحرية.. لم يكن موجوداً منذ (ساعتين!) عندما خرج للخلوة.. كذلك ما هذا السور الجديد الذى لم يكتمل بناؤه بعد؟، وما هذا.. الـ.. هنا ووجد نفسه فى مواجهة باب الدير فهرع إلى حبل الناقوس يدقه فى رجفة بينما تسابق دقات قلبه دقات الناقوس.

ومن الداخل أسرع الراهب البواب.. قائلاً من بالباب

ـ أنا سرابيون إفتح يا أبونا إيليا !..

وسمع خشخشة خلف الباب.. ثم فتح الباب. فلم يجد أبونا (إيليا!) بل وجد راهباً لايعرفه.. ولما رحب به لم يجب أبونا سلوانس من فرط دهشته.. هنا ولاحظ الراهب البواب حيرةً وذهولاً فى عين الزائر.. فقال له تفضل يا أبونا قدسك أول مرة تزور الدير؟ ولكن أبونا كان لايزال مشدوهاً لما يراه أمامه..

أين مبنى الضيوف؟ أين صف القلالى القديم.. ما هذا المبنى العالى.. أين.. ما هذا..

وعبثاً حاول أبونا البواب أن يلفت نظر أبونا الزائر إليه ويكاد أبونا سيرابيون يصرخ من هول المفاجأة.. وتجمع حوله الآباء يرحبون به.. ويشكرون له زيارته لديرهم المتواضع. وصرخ أبونا:ـ أنا سيرابيون خرجت منذ ساعتين فقط ولكنى لا أجد الدير ولا أخوتى الذين تركتهم هنا.. وبكى.. والآباء يهدئون من روعه والكل فى حيرة من أمرهم ينظرون إليه فى دهشة ويقابل هو نظراتهم بالتعجب والتساؤل..

ولكن هذا لم يدم طويلاً إذ ألهم الله راهباً قديساً. هذا أخذ أبونا من يده وصعد به إلى مكتبة الدير الأثرية.. وهناك قال له فى هدوء شديد ممكن تتعب معى فى البحث عن اسمك فى هذا السجل الضخم.. ووافق أبونا فراحوا يمرون على صفحاته واحدة تلو الأخرى.. ولكن دون أن يجدوا اسمه إلى مائة سنة وخمسون خلت لم يجدوا اسمه!

واحتاج الأمر إلى قليل من الصبر وراح الراهب يقلب أكثر.. إلى

أن قفز أبونا سيرابيون من موضعه ويكاد أصبعه يثقب السجل مشيراً إلى اسمه فى أحد السطور: هذا !

+ جرجس حنين عبد المسيح

تاريخ الرهبنة : ١٤٥١ للشهداء

اسم الرهبنة : سيرابيون

البلد : منف

وأما فى خانة تاريخ النياحة فقد كتب فيها «خرج ولم يعد»..

ووسط كل الأسماء لاتوجد مثل هذه العبارة سوى أمام اسمه..

ونظر إلى التقويم المعلق على حائط المكتبة فإذا هو لعام ١٦١٩ش!

وبسرعة اتفقا سوياً أن يبقى هذا الأمر بينهما سراً.

ولكن النور لايخبو إذ عرف الأمر قبل مرور شهر واحد.. ولكن الله ضمه إليه فى راحته.

أين كان.. وماذا صنع وكيف عاش إلى ذلك الوقت وأسئلة أخرى غيرها.. لايستطيع أحد الاجابة عليها، وستظل قصة أبونا سيرابيون لغزاً سوف يحلّ فى المجد الاسنى.

غريب

بينما كان الدير - القابع فى قلب الصحراء التابعة لمدينة أخميم - تسير فيه الأمور بطريقة عادية : شوهد شاب لا تُعرف هويّته وهو يحوم حول أسواره .. وكان ذلك لمدة أيام ثلاثة ..

وإذ لاحظ ذلك الراهب مقار، أبلغ الأب الأقنوم(١) الذى طلب منه أن يسعى فى دعوته للدخول. ففعل وجاء الشاب مطيعاً.

أمام رئيس الدير، وقف شاب فى نحو السابعة والعشرين من عمره، فى ثياب بسيطة، وعمامة تلف رأسه وقد قاربت مقدمتها أن تخفى حاجبيه .. وقد انتعل حذاءاً بالياً كأنما من مشقة السفر، كما بدا منهك القوى، وقد هزم الحزن عينيه.

وحالما مثل أمام الأب الرئيس مد يده إليه فى صمت فتناولها الآخر وهزها هزة خفيفة مرحباً بكلمات يسيرة، ثم بادره سائلاً:

ابلغنى الأب مقار أنه شاهدك منذ أول أمس وأنت بالقرب من الدير، أيمكننا مساعدتك ؟

- إذا ماقبلتمونى لديكم فسأكون بذلك سعيداً
- بكل سرور، ولكن زائر أم عامل أم رغبة فى سلك الرهبنة ؟
- أريد أن ألتحق بأى عمل
- ماهو عملك ..

(١) أقنوم كلمة معناها مدبر وهى مأخوذة عن الكلمة اليونانية ايكونومين ومعناها تدبير.

– أنا أعمل فى كروم العنب منذ زمن بعيد ولى فى ذلك الخبرة.. فهى مهنتى.

– ولكن لماذا تركت عملك وجئت إلى هنا ؟

– أنا أحب هذا الدير، وأما عن تركى لعملى القديم فقد طردنى الذين كنت أعمل معهم. كما أنى آتى هنا كثيراً وأعرف كل الأباء هنا

– وهل هم يعرفونك

– الحقيقة أنهم مثقلين بأعباء العمل فى الدير

– ولماذا تهرأت ثيابك؟

– ليس لى ثوب آخر غيره، كما أنه معى منذ زمن بعيد وقد أعطانيه إنسان شفوق

– نسيت أن أسألك عن أسمك، فما هو ؟

– جيمى

– فقط ؟!

– «صمت»

وهنا حدقه الأب الأقنوم بنظرة اشفاق وتساؤل ثم شرد بذهنه

ترى هل هو فتى يتيم؟! يبدو لى ذلك.. وإلا فأين ذويه؟ وكيف لايعرفهم، ولماذا يبدو شاحب الوجه، وكأنما قد جارت عليه ليالى طوبه وظهيرات بؤونة.

نعم ياربى أشكرك من كل قلبى لأنك اعتنيت بى ولم تهملنى، فكم من مشردين لا أب لهم ولا أم وأنت تضمهم إليك وتعولهم..

هذا أحد أخوتك والجوع ينهش أحشاءه، والعرى يدمى جسده.. أشكرك لأنك حسبتنى مستحقاً أن أنال بركتك بتقديم المساعدة لأخوتك.. رحماك يارب.. رحماك.. وأغرورقت عيناه بالدموع.

ثم انتبه بعد ذلك ليجد أن الصمت يسود الحجرة، فأسرع كمن يريد ابتلاع سؤاله:

يا ابنى لا يهمنى أن أعرف ابن من أنت ومن هم ذووك، فالرجل ليس من قال كان ابى ولكن الرجل من قال ها أنذا..

فقط أتمنى أن تكون عند حسن ظنى..

فأجاب جيمى:

ـ سوف لا تندم يوماً أنك قبلتنى.

- ٢ -

أمام بستان الكروم وقف المعلم برسوم يشرح لجيمى، العمل المطلوب منه.. ويسلمه المسئولية التى ستلقى على كاهله..

والمعلم برسوم رجل له من العمل أكثر من خمسة وخمسين عاماً، قضى أربعين منها فى الدير. فقد أتاه صبياً من قرية أوسيم التابعة لمديرية الجيزة، ولشدة أمانته فى عمله وولائه للدير، أسند إليه الاشراف على بستان الكروم الكائن غربى الدير على قطعة أرض شبه نصف دائرية ـ تبلغ مساحتها أربعة فدادين وعشر قراريط.

وهو طويل القامة عريض الكتفين.. له شارب غزير وأصابع لا

تكف عن تنميقه، ولكنه يحمل قلب طفل.

قال لجيمى وهو يضع يده على كتفه:

– أحب عملي وأخلص له وأريدك كذلك : فلا تخذلنى. فابتسم جيمى كمن همّ أن يضحك ولكنه عدل عن رغبته سريعاً، ولم يجب

واستطرد المعلم برسوم. حذارى أن يعلموك التدخين أو التكاسل فى العمل ؟ أريدك أميناً، لا كالأجير بل كصاحب الكرم فهز جيمى رأسه بالإيجاب. وحينئذ سلمه فاساً ومنجلاً، وحبلاً لايتجاوز المترين طولاً.

وبعد أيام شعر المعلم برسوم أن جيمى فرحٌ بعمله الجديد، وصار يراقبه عن كثب - ليطمئن على امكاناته ومدى اخلاصه، وكلما جمع البستان بينهما كان المعلم يقول له :

أود أن يصير البستان جزءاً منك.. أتفهمنى ؟

ويجيب جيمى مطمْئناً وواعداً.

والذى جعل الطمأنينة تسرى إلى قلب المعلم برسوم أن جيمى كان يمر على الكروم جذعاً جذعاً، وساقاً ساقاً، وقد تنطّق بالحبل ، والفأس معلق على كتفه، بينما أصابعه اليمنى قابضة على يد المنجل.. وكان له مع كل غضن عمل.

فقد كان يربت على الجذع فى حنو، مثل أم تهدهد ابنها، ثم ينزع فى تؤدة الأوراق اليابسة، كذلك صنع سداً دائرياً حول كل جذع من البستان لكى يرتوى ويشبع، دون أن تهرب المياه من حوله.

وفرح برسوم بجيمى واستبشر خيراً..

وذات مرة تنهد محدثاً نفسه قائلاً :

الآن فقط استطيع أن أترك البستان وأنزل لقضاء حاجاتى وحاجاته، وأنا مطمئن بالاً. فالحق يقال أن جيمى يهتم به ويخاف عليه أكثر منى.

ـ أسرع ياجيمى. فالليل يستعد للهجوم.. هيا لتسقى ما تبقى من الكروم..

وهكذا قبل أن يمتلك الظلام أديم الغبراء.. كان جيمى بخطوات واسعة وهمة نشيطة قد أكمل ما حثّه على انجازه المعلم برسوم، فأثنى الأخير عليه ببعض كلمات المديح، ثم مد يده ليمسح بعض قطرات العرق عن وجهه.. واستسلم جيمى فى وداعة ليد برسوم..

قال برسوم :

ـ ألا تأتى معى لتناول كسرة خبز

ـ سآكل ولكن بعد قليل

ـ ولكنه ليس أوان الصوم والنسك، فنحن فى الخمسين المقدسة..

ـ صدقنى لا أشعر بجوع الآن.

ـ كيف ذلك وأنت تعمل منذ الصباح الباكر ولم تضع فى جوفك شيئاً ؟

ـ أرجوك لا تقلق علىّ، اهتم أنت بنفسك، قالها وكأن الكلمات آتية من بئر عميق..

ولكن المعلم برسوم لم يقنع بشئ من هذا بل قال فى اصرار:

لابد لى من أن أسدى إليك أى معروف لقاء ما تبذله معى من جهد مضنٍ.

والحقيقة أن برسوم حاول مراراً أن يهبه شيئاً من المال أو الملابس، ولكنه اعتذر بأنه فى غير احتياج إلى أشياء من هذا القبيل.

هنا وقال جيمى كمن له دالة مع برسوم:

اريد أن تهبنى أن أجعل للكروم أسماءا

فضحك برسوم ملء شدقيه وألقى برأسه إلى الوراء مقهقهاً، ثم صمت هنية قال بعدها:

- لك ماتريد، ظننت أنك ستطلب نصف الكروم، وكنت متأكداً أن أبانا الرئيس لن يبخل عليك بذلك، نعم فقد تحدثت معه بخصوصك كثيراً، وهو بدوره معجب بك للغاية، ودائماً يقول نحن لا نستحق هذا الإنسان فى وسطنا.

وأمام هذا الثناء. لم يستعف جيمى، ولم يجاوب، بل صمت.

فى وسط البستان اختار جيمى اثنى عشر جذعاً وجعل لكل منهم اسم واحد من تلاميذ السيد المسيح.. هذا لبطرس، وذاك ليعقوب، وآخر ليوحنا وهكذا..

وقد حذا فى ذلك حذو بعض الآباء فى الدير والذين يعملون فى بقية المزارع.. إذ اعتادوا إطلاق الأسماء على بعض أقسام الأرض التى يزرعونها.. مثل: حاران، عمون، بيت لحم.. كنعان.. وغيرها.

هكذا اختار جيمى جذعاً قوياً شامخاً جعله لأثناسيوس وآخر لديسقورس.

كذلك جعل لكل الأباء فى الدير بأسمائهم أغصان ما بين طويل وقصير، وكثيف وخفيف.

وفى رقعة أخرى من البستان كان لعمال الدير نصيب فى التسمية، وبدا أن هناك فروقاً متباينة بين قوة غصن وآخر.

ويمضى الوقت وجيمى مسرور بعمله، لا يكلم أحداً ولا يظهر كثيراً خارج نطاق عمله..

والأمور تسير فى الدير هادئة.. طبيعية..

- ٣ -

فى الفسحة الموجودة أمام حجرات النوم للعمال، جلس هؤلاء يتسامرون، فهم يهبون النهار عرقهم، ويأخذون من الليل راحتهم ومتعتهم.

يقضون السويعات التى تسبق نومهم، فى تبادل نوادر اليوم وخبراته ومفارقاته، فإذا ما داعب النعاس اجفانهم، خلدوا جميعاً إلى النوم.

فى تلك الليلة دار الحديث عن جيمى العامل الوافد على الدير حديثاً، والعامل فى بستان الكروم، واليد اليمنى للمعلم برسوم، كتعبيرهم الدارج.

وبالطبع لم يكن جيمى معهم، وهم فى الحقيقة لايعرفون حتى ذلك الوقت، أين ينام جيمى وماذا يأكل.

وأنما كل مايعرفونه أنه من أقاصى الصعيد، مات والده وهو لايزال صبياً يافعاً، نعم فقد قيل أنه بينما كان يعمل فى حقله خرجت حية من بين الأعشاب لتلدغه فى قدمه، ويسقط على الأرض وقد صرعه سمها.

قيل أيضاً أن أمه ماتت حزناً وكمداً على زوجها، وأما هو فقد تشرد منذ ذلك الوقت.. يقضى بعض أيامه لدى أقاربه وبعضها على قارعة الطريق، كما أنه تنقل بين أعمال كثيرة.. فإذا التحق بعمل جديد، لا يلبث أن يطرده صاحب العمل.. أو يتركه هو من ذاته..

قال أحدهم: لعله لذلك قليل الكلام..

قال آخر : ربما

وهنا تحرك فى جلسته العم يونان - وهو أكبر العمال سناً - فقال متسائلاً:

- ترى هل هو سعيد بحياته هنا بيننا ؟

- من يدرى ربما لم يجد له موضعاً آخر أكثر راحة.

- ولكن أين يقضى وقته بعد نهار عمل شاق؟

ولم يجب أحد من الجالسين، إلا بذمِّ الشفتين وقلب اليدين!

فأكمل قائلا: عموماً هو شاب طيب القلب ويكره الشجار ويترفع عن الهزل.

قال تكلا مؤيداً (وهو عامل قارب العشرين من عمره):

– مرّ بى جيمى عصر أول أمس بينما كنت عائداً من العمل إلى حجرتى .. فاقترب منى وقال لى بحنو : مالك ياتكلا مكمداً وقد هزمك

شيطان الغضب؟

وفى ظل إحدى الشجيرات رويت له ما كان منى ومن «سعد» زميلى وكيف رمى أحدنا الآخر بعبارات مما يتناولها أهل العالم فى شجاراتهم، ثم كيف أفترقنا ناقمين..

وأعجب مالاحظته أننى بينما كنت أروى لجيمى ما حدث أنه ظل صامتاً، لم تتحرك عيناه ولم تهتز أهدابه، ولكنه ظل شاخصاً إلىّ، ولم يومئ برأسه، أو تتحرك يداه..

لقد خيل إلىّ وقتها أنه ينظر إلى ماوراء الزمن ومضيت أنا فى سرد مادار ظهراً، وصوتى يعلو تارة ثم ينخفض، ويهتز جسدى، وتتحرك يداى لأعلى فى الهواء مرة، وأخرى لتضربان فى قسوة على جذع الشجرة من شدة التوتر.

وفى النهاية، وعندما بدا له أننى انتهيت من سرد أحداث القضية، ابتسم بطريقة خلابة لم أر لها مثيلاً.

ثم ربت على كتفى قائلاً فى هدوء :

لأجل المسيح سامحه مكتوب «اغفروا يغفر لكم» ثم بنفس الهدوء تابع مسيره إلى حيث لا أعلم.. ورحت أتبعه مذهولاً حتى غاب عن ناظرىّ.

وقد زالت من قلبى سحابة الحقد والكراهية تجاه «سعد» .

وقال العم ابراهيم وكأنه يحدث نفسه: أنه يتكلم أحياناً بطريقة غامضة.. وعن أمور حدثت فى الدير لا أظن أنه كان بيننا عندما

حدثت، فى حين أن له فى الدير مدة لاتتجاوز الخمسة أسابيع. فضجّ آخر بالضحك قائلاً: أنه مجنون، فنهره الجالس إلى جواره بأنه مسكين وظروفه قاسية.

وعندما كانت دفة الحديث متجهة إلى موضوع آخر - كمثل عادتهم إذا جلسوا للسمر - قال آخر وكأنه كان يقاوم رغبته فى الافصاح عما فى جعبته:

عوتب أحدنا على أمر ما، وأحب أن ينفى عنه الاتهام، فطلب من جيمى أن يشهد معه، وأحس جيمى بدوره أنها ستكون شهادة زور، فاعتذر فى دماثة خلق.. وهمّ بالانصراف، فما كان من ذاك إلا وقد جذبه بعنف ووبخه على عدم (شهامته) ووقوفه إلى جانبه وقت الضيق، ثم زاد على ذلك بأن لطمه لطمة قاسية وهو يرغى ويزبد قائلا: مجرم.. ذنديق.. متكبر..

وابتسم جيمى ابتسامة أب قبالة إبن شيخوخته. ثم أضاف الراوى قائلاً: نعم رأيت ذلك بنفسى وأحسبنى لم أكن لأصدق لو أن آخراً روى لى ماحدث.

تكلا: ويقال أن أمه كانت امرأة فاضلة، طيبة القلب..

آخر مقاطعاً: نعم لقد شاهدتها - على باب الدير منذ تسعة أيام - تسأل عنه، وهى امرأة عجوز علا رأسها المشيب، وقد قابلها جيمى وحياها فى حرارة، وتحدث معها طويلاً، وقبل أن تودعه ألقت فى يده علبة متوسطة الحجم محزومة بحزام أحمر.

ولكن تكلا سخر منه مؤكداً أن أمه قد ماتت منذ زمن بعيد..

ومن بعيد كان «رمزى» يتابع الحديث فى شغف، وقد لمعت فى ذهنه فكرة انفرجت لها أسارير وجهه، ثم قام لينام ليلته مغتبطاً وقد عقد النية على شئ ما.

فقد قام صباحاً بجولة بين اخوته، يجمع منهم ما فضل عنهم من متاع يزيد عن حاجتهم، وخرج بحصيلة لا بأس بها؛ ملابس داخلية رتق معظمها، وحذاء قديم، طاقية عفا عليها الزمن.. ثم حزم الجميع فى صرة واحدة صغيرة. أحكم زمامها فى اهتمام وكأنها إلى السفر.

ثم مضى فى خفة ورشاقة إلى حيث يوجد جيمى، وأمام جيمى أبان فى اتضاع، إن الاشفاق لم يدفعهم لمثل هذا التصرف وإنما المشاركة - ومحاولة التعبير عن محبتهم - ثم قام برفق وقد ترك (الصرة) إلى جواره فقام حينئذ جيمى فرحاً، وقبل رمزى شاكراً ثم ودّعه مثنياً عليه وعليهم.

وحذا حذوه فى ذلك - آخر، إذ حرم نفسه من نصيبه المقدم له من اللحم فى الغذاء، وحمله إليه عند العصر، وهو يعرف أن جيمى لا يمتنع عن أكل اللحوم لأسباب صحية كما يظن البعض، ولكنه الزهد والنسك، لذلك ألحّ على جيمى فى قبولها فوافق جيمى والبشر طافح على وجهه.

كما أن هذا التأثر قد امتد إلى (خليل) الذى يهتم بخيول الدير الثلاثة، ذلك أنه عندما تقابل مع جيمى فى صباح اليوم التالى، اقترب منه محيياً ورد جيمى فى كثير من الاهتمام.

قال خليل:

- أرجو أن تسامحنى إذا تجاسرت على اخراجك عن هدوئك بحديثى معك.

- ابداً لن أتضايق..

- لماذا اطبقت فى صمتك؟ لا تتحدث إلا نادراً. لم نرك مرة ضاحكاً بل تهرب من مجالستنا.

... لا تظن ياجيمى ياأخى أنك وحدك الذى تمر بظروف قاسية، نحن جميعاً نئن ونطلب المدينة العتيدة.. تقرّب منا ربما كان لك فى ذلك سلواناً وعزاءاً..

- صدقنى... لست منعزلاً كما تظنون بى.. ولكنى أحب ألا أفرض وجودى على مجالسكم..

لا تقل هكذا، كيف ذلك ونحن نتلهف على كلماتك القليلة.

أنت طيب القلب ياخليل، ولكن لا أحب أحاديث الإدانة والمال، وأكره اللهو والعبث، وأجد اخوتنا العمال يحبون الليل ويكرهون النهار، لأن الأخير يوجب العمل ولكن الليل يهب التراخى..

فى ذلك اليوم كان الأب أبيفانيوس رئيس الدير فى زيارة إلى بستان الكروم يتفقد العمل فيه، وهناك تقابل مع جيمى فاقترب منه، وربت على كتفه فى محبة قائلاً: جيمى: أما تريد شيئاً؟

أجاب جيمى: أريدكم بخير.. هذا يسعدنى ويكفينى فاقترب منه بالأكثر، وفى صوت يشبه الهمس قال: مارأيك فى أن تأتى معى لتساعدنى فى بعض الشئون؟

أجاب جيمى: أنا أحب أن أساعد الكل.. واستأذنك فى أن أبقى هنا مع اخوتى، اعرق معهم وأفرح معهم.. وعندما

ثم انقطع عن الكلام مستأذناً فى أدب جم لكى يسرع إلى العم (تودرى) يرفع عنه الكيس الذى يحمله.

قال العم تودرى وهو يلهث: أكرمك الله ياولدى وعوض لك بالنسل الصالح!

فهز جيمى رأسه، وانصرف حاملاً حمل الشيخ.

- ٤ -

ذات يوم قاد شيطان الغيرة، واحداً من العاملين فى الدير لكى يوقع بجيمى، ذلك الشاب المبارك الوديع، فتوجه إلى حجرة المعلم برسوم - وكان الوقت صباحاً باكراً - وجعل يطرق بابه فى الحاح.

ويخرج المعلم مابين نائم ومستيقظ ليستجلى الأمر، فاقترب منه العامل بسرعة وألقى فى أذنه سراً! ويتعجب برسوم - العجوز الطيب - ولكن الآخر لا يدعه لشكوكه، بل يعود فيؤكد أنه رأى جيمى بإم عينيه من خلف السور - المصنوع من الجريد والسعف.

ويدخل المعلم مسرعاً نحو الداخل ليخرج وطاقيته الحمراء في يده، يضعها في غير اهتمام على رأسه، ويمضي لفوره إلى البستان، ليفاجأ هناك بأقوى ثلاثة غصون في الكرمة مقطوعة من أسفل وهاوية إلى الأرض صريعة، فيلطم خديه مراراً ! ويصرخ ملتاعاً، ويجرى مسرعاً نحو رئيس الدير مباشرة.

هناك قالوا له أن الأب لايزال في القداس الإلهي، فجلس خارج الكنيسة منتظراً ومستنداً إلى الحائط، وقد دفن رأسه بين يديه في ثيابه، وبين الحين والحين كانت آهاته المكتومة تخرج مابين طويلة وقصيرة..

وما أن خرج الأب أبيفانيوس، وشعر بذلك برسوم حتى إنتفض من مكانه واتجه إليه وتحدث بطريقة لا يفهم منها شيئاً.

فدعاه الأب للجلوس ونصحه بالهدوء.

أمام رئيس الدير، والمعلم برسوم، وأحد العاملين: وقف جيمي متهماً ولكنه كان جاداً.. ورصيناً.

قال الأب الرئيس : المعلم يتهمك بإتلاف بعض أغصان الكرمة هل حدث ذلك فعلاً؟

جيمي: لا لم يحدث.

– ولكن هذا الأخ (مشيراً إلى العامل) - رآك وأنت تهوى عليهم بفأسك الصغير.

– صمت

– أما تدافع عن نفسك

– أنا أحب البستان، ولا يوجد من يحبه أكثر منى

– ألا يمكن أن تكون قد فعلت ذلك وأنت فى غير وعيك؟

– لا. فأنا أعى كل شئ

– جيمى .. أنت تعلم أننا نحبك ونقدرك.. والمعلم معتز بك ودائماً يكلمنى عنك بالخير.. فلماذا خيبت الظن فيك؟؟؟

– أنا أيضاً أحبكم، وأحب هذا المكان، وكل شئ فيه، وانتم تغضبون علىّ ومنى بلا سبب، (واختلجت مشاعره.. وصدر الكلام عنه متقطعاً ثم بكى جيمى بشدة..).

حينئذ قال الأب فى اشفاق:

– أنا لا أحاكمك، لكنى ابحث عن الحقيقة لا غير، فلماذا تبكى؟

– صمت

– ولكن ـ سامحنى ياأخى ـ فإذا صح قول المعلم وهذا الأخ فإنه لن يكون فى استطاعتى أن أبقيك هنا من اليوم

– ليكن ماتريد فأنا فى ضيافتكم

فحول حينئذ الأب ابيفانيوس مجرى الحديث قائلاً : اخبرنى ياجيمى: هل لك أب اعتراف ؟

جيمى: لا.. ليس لى

– نعم.! فقد لاحظت أنك لم تتناول من الأسرار المقدسة طيلة هذه المدة التى مكثتها طرفنا، إذا هل كان لك قبل أن تأتى إلينا ؟

– لا. لم يكن لى

– فكيف إذاً ياابنى تستقيم حياتك الروحية بدون اعتراف وتناول؟

– صمت

– وماذا عن الكتاب المقدس وصلواتك

– ليقرأ آخر أمامى، ويصلى كذلك. أولاً. فقال المعلم برسوم فى غيظ وحنق: قبل أن يعلمك ـ لابد أن يعاقبك على فعلتك السوداء، فكيف تخون المكان الذى تعمل وتعيش فى خيره؟

– فترة صمت

ويقطع الأب ابيفانيوس الصمت بقوله..

لا بأس .. لابأس.. هناك حل وسط: (ثم يوجه الحديث إلى جيمى قائلاً).

يمكنك من اليوم أن تذهب إلى المطبخ لتساعد الأباء هناك..

وفى توصية الأب المسئول عن المجمع، قال الأب أبيفانيوس:

أريد أن تعلمه كيف يصلى، وكيف يقرأ الكتاب المقدس، حدثه ـ أرجوك ـ عن سر التوبة والاعتراف، وعن سر الشكر، لكى يكون مستعداً للاعتراف السبت والتناول الأحد القادم.

فانحنى الآخر مجيباً مطيعاً، ثم يمضى وجيمى يتبعه..

والتفت الأب ابيفانيوس إلى المعلم برسوم قائلاً: لدىّ احساس قوى أن جيمى مظلوم، ولكن منعاً للسجس استبعدته عن البستان..

أجاب برسوم متألماً: لم أكن أعلم أنه خائن إلى هذا الحد..

فأكد العامل قائلاً، نعم.. فكيف تسول له نفسه أن يستهين بالكرم، وينافى الامانة والرأفة بالدير؟

والحقيقة أن الذى حدث هو أن هذا العامل أراد أن يتخلص من وجود جيمى فى البستان، لأنه شعر أن وجوده يبكت تقصيره، ويكشف ضعفاته. فدخل فى هدوء الليل وسكينته إلى البستان، وهو يحمل فى يده (بلطة) ثم انتقى ثلاثة جذوع تعد من أكثر أغصان البستان إثماراً، ثم كمن طار عقله هوى بكل قوته عليها واحداً فواحداً، وبنفس الهدوء خرج لايلوى على شئ قاصداً حجرته.

.. نعم لقد كان مهزوماً من كبريائه وشره، ففكر فى هذه الحيلة لكى يتسبب فى طرده من الدير أو على الأقل من البستان.

-٥-

فى يوم الجمعة وبعد أن انتهى جيمى من العمل فى المطبخ، دعاه الأب الراهب - العامل معه - إلى قلايته فوافق على الفور، هناك فى القلاية قال له:

أخى جيمى: لابد من التوبة ياأخى قبل أن تنصرم سنوات العمر، ونجد أنفسنا فى مواجهة مع الله.. ماذا نصنع؟ وكيف نعطى حساباً عما صنعنا؟

الحياة مع الله متعة لا تدانيها سعادة أخرى، غداً أمام الكاهن قر

بخطيئتك، واكشف له أفكارك لكى يرحمك الله وينقل عنك خطاياك، وتصير كلك نقياً، وتدخل فى عهد الحياة الأبدية بتناولك من الأسرار المقدسة.

أرجوك ياجيمى، تشجع فكلنا خطاه، والله لن يديننا لأننا أخطأنا، ولكنه سيديننا إن لم نتب بعد ما أخطأنا.

فلم يجب جيمى، بل هزّ رأسه مبتسماً، صامتاً.

واستطرد الراهب قائلاً: لا بأس فى ذلك يمكنك اليوم أن تبدأ فى الصلاة معى لحبيبنا يسوع. مارأيك؟ أجاب جيمى: موافق بكل سرور.

وفى القلاية وقف الراهب يصلى وجيمى منصتاً :

أيها الرب يسوع.. ما أعجبك، وما أقربك اليوم إلى قلبى.. أنا لا استحقك، فقد وهبتنى أكثر مما أستحق بل وأكثر مما أحتاج.. أخجلتنى بتسامحك وطول أناتك..

كم أنا مقصر، وكم أنت وفىّ معى مداوم على اخلاصك لى.. أشكرك لأنك تحبنى وتدافع عنى...

أطلب من محبتك لأجل أخى الواقف معى هبه رحمة من صلاحك، واعطه أن يسلك كمايليق.. وتقدّمه فى كل عمل صالح..

– باركنا

ورد جيمى بصوت يشبه خرير الماء

– آمين

– طهرنا

– آمين

– قدسنا

– آمين

– ولك منا كل المجد.

هنا واهتز المكان بشدة، وامتلأ بسحب كثيفة وفوجئ الراهب وإذا بجيمى ينطلق لأعلى ثم يختفى. فوقع مغشياً عليه.

ولا عجب فى ذلك، فقد كان الشاب الغريب جيمى[1] هذا..

هو المسيح ذاته ..

---

(١) جيمى : كلمة قبطية معناها وجـــود.

علامة على الطريق

... ولكنه أصر على موقفه، ولم يرق لدموع أمه أو يأبه لتوسلاتها، وغادر المنزل ليستقل القطار المتجه إلى القاهرة ومنها إلى الدير.

وبكل بساطة ودون أدنى مناقشة قبله رئيس الدير، وأفسح له مكاناً ليسكن بين الاخوة الجدد، ولم يلتفت إلى تساؤلات الآباء الرهبان وتعليقاتهم.

وقد جرت العادة أن يتردد الأخ الراغب فى الرهبنة مدة لاتقل عن السنة، يقبل بعدها فى الدير، إذ يتأكد الآباء من صلاحيته ومدى تناسب طريق الرهبنة له، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل قبله الأب الرئيس دون قيد أو شرط.

واستطاع هذا الشاب أن يسلك فترة الاختبار المقررة بحذر شديد لكى يكسب ثقة الرهبان وتأييدهم، ثم ماهى إلا شهور قليلة حتى ترهب مع اثنين آخرين، وأما هو فأسموه ببنودة(١).

ولم يمر شهر واحد على رهبنته (ارتدائه الملابس الرهبانية): حتى ضج الآباء منه.

فقد كان يتصرف بحرّية!، وبدأ يظهر عليه التوانى والكسل، ولم يحفظ طقسه.

فمن تعليقات علمانية إلى هزر سخيف، إلى مقاطع من أغنيات عابثة كان يرددها بين آن وآخر.. فى حين أن القديس يوحنا الدرجى يقول:

---

(١) ببنودة كلمة قبطية مأخوذة عن بفنوتى Πεqνοϯ أى الخاص بالله.

«الراهب هو الجسد المنقى والفم الطاهر والذهن المستنير»

إذا تكلّم: علا صوته وأحدث جلبة، وإذا جلس: فمع الزائرين والعمال يتحدث فيما لاينفع.

ويذكر الأب سلوانس أنه دعاه ذات مرة ليصلى معه القداس الإلهى فقابل دعوته بالسخرية!

كذلك عندما إقترح عليه الأب بيصايون أن يجلس ليقرأ معه الكتاب المقدس، أشاح بيده فى الهواء مستخفاً وضاحكاً ضحكة لاتليق.

وأب اعترافه فى كل هذا وذاك: يتمزق من الداخل، فلا تدبير قد نفع معه، ولاتوجيه قد خضع له.

إلحّ عليه بالصوم فلم يحفظ بطنه، وأشار عليه بضرورة الصمت فلم يستطع كذلك أن يحفظ لسانه فى فمه، بل أطلقه على الكل!

وبين آن وآخر كان يردد على مسامعه قول الشيخ يوحنا الدرجى «قدم أتعاب شبابك للمسيح حتى تتمتع بنعمة اللاهوى (كسر المشيئة) فى شيخوختك».

ولكنه رأى فيما بعد أنه من المناسب أن ينبه رئيس الدير إلى خطورة الأمر، وضرورة النظر فى شأن ببنودة، لاسيما وأنه لم يعترف منذ ثلاثة شهور: إذاً فالخوف من هلاكه أمر وارد .

ووعده رئيس الدير بالتبصّر فى الأمر.

وفى اليوم التالى تقابل الأب الرئيس مصادفة مع ببنودة، فقال له فى اتضاع شيخ: «لاتنس يا أبانا أن الصبر فى القلاية يرد الراهب إلى طقسه..».

ولكن وكما بدا للشيخ أن ببنودة اعتبر أن القول موجّه إلى شخص آخر.

والعجيب أن قلايته والتى لا يطيق الجلوس فيها، كانت تحوى كتباً عديدة ومجلدات نادرة، كذلك فقد تزينت حوائطها بصور حشد كبير من القديسين، إلى جوار مالا يقل عن الثلاثين لافتة مابين آيات وأقوال آباء.. ولكنها كانت للديكور فقط!

وتضجّر الآباء منه، ومنهم من صارحه، لاسيما عندما كانوا يشاهدونه يقضى أغلب وقته فى طرقات الدير، يجر رجليه جراً من موضع لآخر فى سآمه وملل..

كذلك شكا الأب المسئول عن المطبخ إلى رئيس الدير، بسبب تواجد ببنودة الدائم فى المطبخ وإلى جواره، مما يعطل العمل ويعثر العمال والضيوف.

ولكن أصعب مافى الأمر أن يترك القداس الإلهى أو صلوات السواعى ليتمشى فى ساحات الدير.

وبقى رئيس الدير صامتاً كعادته، لايعلق ولايعاتب أو يعاقب، وأما ببنودة فماضٍ فى غيه...

أخيراً طلب الآباء إلى بعضهم البعض، أن تقام طلبات خاصة لأجل أخيهم المعذب فى هذا الآتون: لعل الله ينتشله.

وثابر الآباء على الصلاة والطلبة فى كثير من الصبر، لكن بدا وكأن الله لم يسمع لهم!

مضى عام كامل، والأمور كما هى تسير من سئ إلى أسوأ مع الراهب الشقى ببنودة، واضطر رئيس الدير أخيراً إلى معاقبته، ولكن لم تفلح أيضا هذه الطريقة فى استمالته إلى حياة القداسة.

وفى أوائل شهر أمشير، انعقد المجمع وأقر الآباء طرد ببنودة من الدير، وذلك بقصد أن يثوب إلى رشده ويرجع عن سيرته الرديئة إلى رتبته الأولى.. ولكنهم مع ذلك تركوه شهراً كاملاً قبلما يخبروه بقرارهم..

بعد انعقاد المجمع بأيام خمسة، وعندما أرخى الليل سدوله، طلب ببنودة من الأخ بلامون أن يوقظه بعد ساعتين، لكى يرتب القلاية وينظفها..

وذهب لينام.. ولكنه بعد قليل شعر برغبة غير ملحة للصلاة، فقام متثاقلاً وأمسك بالأجبية ليصلى صلاة الستار.. بعد أن نفض عنها الغبار.

وما أن وصل إلى المزمور السابع أو الثامن حتى شعر بشئ من الصداع فى رأسه، وحقيقى أن هذا الصداع كان يأتيه من وقت لآخر، وكان فى كل مرة ينصاع له ويهب نفسه الراحة، ولكنه حاول فى هذه الليلة ألا يعتد به وأن يثابر على الصلاة - لاسيما وأنه لم يصلى من الأجبية منذ شهور طويلة ولا شك أنه فرح بأنه لايزال فيه بقية راهب ! ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.

وازداد الصداع، فتضجر ببنودة وألقى الأجبية جانباً، ووقف صامتاً

لعل الألم يخفض أو يختفى، ولكن الصداع ألحّ عليه.

فأمسك برأسه بين يديه وضغط بكل قوته، ثم خرج من القلاية متثاقلاً ولازالت رأسه بين يديه، إلى أن وصل إلى قلاية الأب اسحق المسئول عن العمل فى صيدلية الدير المتواضعة المحتويات.

وأمام قلاية الأب اسحق خشى الأب ببنودة أن يظن أنه جاء كعادته فى كل يوم للتلكؤ ولطلب المزيد من الحقن والأقراص، التى كان يأخذها دون أن يكون فى إحتياج إليها.

وإذ تمنىّ من كل قلبه ألا يجول هذا الخاطر فى فكر الأب اسحق: طرق الباب متوسلاً أنه متألم بالفعل فى هذه المرة.

وما أن سمع خشخشة خلف الباب حتى اطمأن قلبه..

فوجئ الأب اسحق ببنودة فاغراً فاه، وعينيه نصف مغمضتين وقد طوّح برأسه قليلاً إلى الوراء ماسكاً إياها بكلتا يديه، وبدا للأب ببنودة أنه قد رق له.

وبشاشته المعهودة وكلماته الرقيقة، رحب به ودعاه للدخول ولكنه اعتذر مشيراً إلى رأسه، ثم قال فى صوت خفيض: أنه يحتاج إلى الراحة بعدما يتكرّم عليه بأى مسكن.

ودلف الأب اسحق إلى الداخل ليخرج ومعه شريطاً من الأقراص المسكنة وناوله إلى الأب ببنودة الذى أخذه بدوره شاكراً، وانطلق إلى قلايته لايلوى على شئ.

ولكن لم تمر ساعة واحدة حتى عاد أدراجه إلى باب قلاية الأب اسحق، يطرقه فى إلحاح وخجل.

وفتح له مرة أخرى ليجده فى حالة لايحسد عليها، فقد كان يتلوى من شدة الألم، فأغلق الباب خلفه فى هدوء، ومشى معه متجهاً إلى الصيدلية، وفى طريقهم مروا على الأخ بلامون (والذى كان يعمل طبيباً أيضاً).

فى الصيدلية وعلى السرير الموضوع هناك، استلقى ببنودة يتجرع آلامه بينما وقف الاثنان يتشاوران بالانجليزية، وأعطياه حقنة مسكنة للألم، صحباه بعدها إلى قلايته وتركاه هناك بعد أن وعداه بعرض الأمر على الأب الرئيس حتى يأمر بعرضه على الأطباء المتخصصين بالقاهرة.

وكانت ليلة قاسية تلك التى قضاها ببنودة، إذ لم يذق فيها طعم النوم، بل صار يزرع الغرفة ذهاباً وإياباً، إلى أن ناداه الأب اسحق قائلاً إن السيارة التى ستقلهما إلى القاهرة: جاهزة.

فى المستشفى التخصصى قال الاستاذ بعد الفحص الدقيق: بسيطة.. التهاب خفيف..

وأوصى بحقنة كل يوم وكبسولة مضاد حيوى كل ثمانى ساعات. ثم أضاف (فى الروشته): راحة تامة فى السرير، ممنوع القيام بأى مجهود..

وفى طريق العودة إلى الدير، بقى ببنودة صامتاً، لم يتكلم سوى مرة واحدة قال فيها للأب اسحق: سامحنى. تعبتك..

ورد الأب اسحق فى بشاشة كمن يستنكر: لا تقل هكذا أنا أخذت بركتك (ألف سلامة لك).

وفى الدير كان الأب اسحق يطمئن كل من يسأله قائلاً: بسيطة.. خير..

وابتدأ ببنودة يعود إلى نفسه ويتذكر تهاونه، وإساءاته إلى اخوته.. ترى ماذا لو أنهى هذا الألم حياتى ؟ (هكذا حدّث نفسه).

كان يبكى مرة من الألم ومرات من الندم على توانيه وعلى الشرور التى صدرت عنه، ودأب على أن يطلب إلى كل من يقابله - بضراعة وانسحاق - أن يصلى لأجله.. ويلتمس مغفرتهم، وهم بدورهم يطمئنونه بأنه أخوهم وبأنهم متأكدون من أن محبتهم راسخة فى قلبه، ومن ذلك:

أنه بينما كان الأب ويصا يعاوده فى القلاية، قال له :

- أرجوك يا أبى أن تغفر لى من قلبك شئ اعترف لك به، فأنا الذى أخذت كتاب ميامر مار اسحق الخاص بك، وقمت بتغيير غلافه لأضع اسمى فوقه بدلاً من إسمك، سامحنى أرجوك، أغوانى الشيطان وانسقت إلى غوايته، والكتاب موجود فى الطاقة التى خلفك، ويمكنك الآن أن تأخذه لكى يستريح ضميرى.

الأب ويصا: هو لك أيضا، ولا فرق بينى وبينك، وسيظل عندك واعتبر أن كل ماعندى هو لك.

ببنودة وقد انفجر باكياً من التأثر: إن لم تأخذه فلن يكون لى نياح(١).

الأب ويصا: إذاً استسمحك فى نقله إلى مكتبة الدير العامة

- ليكن.. المهم أن يخرج من قلايتى.. ويرتاح قلبى

- أود أن يكون لى مالك من الرقة والضمير اليقظ.

ومرت خمسة أسابيع، وصحة ببنودة تتأرجح بين التقدم والتأخر. وازداد الألم، وزادت شكوته، وعاد الآباء يطمئنونه أنهم سيطلبون إلى الأب الرئيس أن يسمح بعرضه على فريق آخر من المتخصصين بالقاهرة..

ويجيب ببنودة بعينين ملؤهما الشكر والأمل.

فى المركز الطبى الجديد: قال استاذ جراحة المخ والأعصاب:

«لابد من عمل أشعة للتأكد إن كان هناك أية أورام فى المخ».

ثم عاد الطبيب ليسأل ببنودة عما يشعر به، فقال أنه يشعر منذ أيام بأن الأشياء تهتز أمام عينيه، أو يرى الشخص شخصين، وأنه فاقد الشهيّة فى أغلب الأوقات، وأنه يقوم من النوم على أثر آلام شديدة فى رأسه من الخلف، كما لم يحدث أنه نام - خلال الأسابيع الثلاثة الماضية - أكثر من ساعتين متصلتين.

على أحر من الجمر كان الأب اسحق والأب ارسانيوس ينتظران نتيجة الأشعة، نعم فقد كان يساورهما الشك فى الأمر.

---

(١) نياح = راحة.

وجاءت نتيجة الأشعة لتقع وقع الصاعقة على اثنيهما: ورم خبيث.. Malignant Tumour.

ونظر أحدهما إلى الآخر فى ذهول وتأكدا أنها حالة سرطان Carcinoma (نوع من السرطان).

وبالطبع لم يكن ببنودة معهما، ولكنه سمعهما من الداخل، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً، وحفظ الأمر فى قلبه.

وفى الطريق إلى الدير: حاولا بث روح الفرح والرجاء مطمئنين اياه... وحاول هو أيضا أن يجاريهم كأنه يستجيب لملاطفتهم.

وبدأت جلسات العلاج - أشعة راديوم Radium - للقضاء على الخلايا السرطانية. وبدأ شعر رأسه يتساقط بعد أول جلسة باسبوع واحد.

كان ينزل إلى المركز الطبى كل خمسة عشر يوماً، ثم يعود بعد الجلسة إلى قلايته يجتر آلامه النفسية والجسدية معاً.

وتمنى من قلبه أن يصنع الله معجزة معه ويشفيه، ووقتها سيعود إلى السيرة الملائكية، ويترك عنه العبث الصبيانى، ويعوض كل مافاته، ويحب اخوته ويبذل لأجلهم..

كان يشتهى ساعة واحدة يستطيع أن يمشى فيها دون مساعدة أحد.. أو يقف ليصلى بمفرده.

«نعم. سأضبط نفسى ولسانى.. واحفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب» هكذا صلى باكياً.

وطلب إلى الكل بإلحاح أن يقيموا الصلوات لأجله.

ولكن الألم سخر منه وتعقبه فى كل وقت، وفوجئ ذات يوم بأنه لايرى! وفزع لذلك.. وصرخ صرخة مدوّية، ولكن الألم فى رأسه كان أقوى فأنساه ظلام عينيه..

فى آخر جلسة قال الطبيب للراهب اسحق بصوت خفيض: It's Hopeless .. وسمع ببنودة فى هذه المرة أيضا، وكان يخفى عنهم أن له بعض الالمام بالانجليزية.. فهم أنه لا أمل..

واستطاع فى ذلك اليوم أن ينفرد بالطبيب حيث قال له: أرجوك ، أنا راهب، والمفروض أننى ميت: فلا أخاف الموت، كما أنه لا زوجة لى ولا أولاد أقلق بسببهم، فهلا صنعت معى إحساناً وصارحتنى بالحقيقة؟ وأعدك بأننى سوف أتقبلها كراهب شجاع يريد الانطلاق إلى الله. وتردد الطبيب محاولاً التملص من الاجابة، ولكن ببنودة ألح عليه..

وإزاء هذا الإلحاح والإصرار قال الطبيب وكأنه يلقى بقنبلة:

قدسك مصاب بسرطان فى المخ..

فقال ببنودة بهدوء: عرفت ذلك ولكن اسألك عن الأمل فى الشفاء.

فرد الطبيب غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله والله أرانا فى حياتنا الطبية أنه قادر على صنع مايعجز عنه الطب.. «شد حيلك يا أبونا».

أرسلوا له ذات يوم، أن أسرته الجسدية بالخارج يطلبون مقابلته، وارسل يعتذر لهم.. ولكنهم أصرّوا، ولما لم يستطع بسبب تضعضع صحته (استسمح الآباء رئيس الدير) لكى تتمكن أسرته من زيارته فى قلايته[١]

(١) معروف أنه ممنوع على العلمانيين دخول قلالى الرهبان.

وكـان لذلك فـائدتين: الأولـى توفـيـر التـعب المضنـى الناجم عن تحركه حتى بيت الضيافة، والثانية لكى لاتلاحظ اسرته إنه فاقد البصر..

وقـد أوصـوا أمـه أن الزيارة يجب ألا تـزيد عن العـشـرة دقـائق.. ووافقت ووعدت..

ولم تعرفه والدته، فقد شحب لونه، وهزل جسمه، وقد أبصرت إلى جـواره علبـاً لاتحصى من الأدويـة، فإخـتلجت مـشاعـرها وبكت فـأبكتـه معـها، رقت له واستفسرت عن الأمر، وحـاول هو بدوره أن يطمئنها بأنه صداع شديد وسوف ينتهى إن شاء الله.

وغادرت وهى متأثرة جداً.

إشتـد الألم أكثر فـأكثر، لدرجـة أن ببنودة كـان يضـرب رأسـه فى الحـائط فى يـأس قـاتل، وكـثيـراً مـا كـان يطرد الأباء ـ الجلوس حـوله ـ من قلايته، لا لشئ سوى لأنه لم يعد يطيق حتى نفسه.

وتمادى الداء فى إيذائه، فـقد بدأت الخـلايا السـرطانيـة فى إتلاف مراكز السمع والذاكرة معاً.

وأقعده اليأس فى الفراش.. لايتكلم لأنه لايسمع ونادراً ما كان يأكل أو يشرب.

ثم بـدأ يفكر أكـثـر من ذى قـبل فى أبـديتــه وذلك كلمـا حـضـرته الذاكرة..

نعم، فهو يعرف جيداً أنه الآن قاب قوسين أو أدنى من الموت.

ولما رغب ذات يوم فـى التناول من الأسـرار المقدسـة، انتبـه الآباء إلى أن قـلايتـه تبـعد إلـى حـد مـا عن الكنيـسة مما يمثل جـهـداً فـائقـاً فـى

الوصول إليها، فاستأذنوا أحد الأباء وكان يسكن بجوار الكنيسة لافساح مكانه للأب ببنودة، لكى يتسنى له دخول الكنيسة بمجهود قليل.

وكان يحتاج عند دخوله إلى الكنيسة إلى ثلاثة من الأباء لكى يعاونوه، ولكنه لم يكن ليستطيع الجلوس أكثر من نصف الساعة، وكثيراً ماتململ فى جلسته، وطلب الرجوع إلى القلاية. وكان عند ذلك يتذكر كيف كان يترك القداسات، ويجلس على المصطبة الطويلة الكائنة خلف مكتبة الدير..

وتناوب الآباء على خدمته، والسهر على راحته وخدمته، وكان يعاملهم فى أيامه الأخيرة معاملة خشنة، وذلك دون قصد منه، ثم يعود ليعتذر لهم، وهم بدورهم يأبون ذلك عليه وعليهم..

وإذ لاح لمن بالدير أن النهاية باتت وشيكة، وبدا أنه لايستجيب للعلاج ، أشار عليهم أحد الأباء الأساقفة بإجراء جراحة له فى المخ..
وحقيقى أنها مجازفة، ولكن لئلا يلاموا من ضمائرهم فيما بعد، نعم قالوا: لا منّاص من الجراحة..

وتمت الجراحة، وانتظروا النتيجة بكثير من القلق والإرتياب ولكنهم انتظروا طويلاً لعله يفيق من تأثير المخدرّ.

ولكنه لم يفق فى حين أن قلبه لازال ينبض، والمخ ماض فى اعطاء إشاراته المعروفة.. هى غيبوبة إذن..

والحقيقة أنه لم يكن فى غيبوبة.. ولكنه لم يستطع أن يحرّك رأسه..

وأسرعوا بنقله إلى الدير ليتنيح هناك ـ على حد تعبيرهم ـ وكان هو

بين الحين والآخر يفتح عينيه - اللتان لاترياان - أو يتمتم ببعض كلمات غير مفهومة..

وبعد يومين وبينما كان الأب الرئيس يعاوده فى قلايته، سأل الأب اسحق بالانجليزية عن الحال..

فأجاب اسحق وغصّه فى حلقه It's end أيام قلائل لاغير.. وربما ساعات.

شعر ببنودة وهو يصارع الموت بأن الوجوم سائد على وجوه كل من بالدير، وأنهم كانوا يطلبون له الراحة من أتعابه لاسيما كلما سمعوا صرخاته المسعورة وهم داخل الكنيسة..

كان فى اليوم الأخير.. يرتمى فوق الحصير، يصرخ ويشد فى لحيته، والأباء من حوله بين مشجع ودامع وباكٍ.

وأخيرا لاح للكل أن النهاية فى طريقها إليه، أو بالأحرى هو فى طريقه إلى النهاية..

واجتمع الآباء عنده يعزّون، ويشجعون، بينما هو يرفس برجليه ويهذى بكلمات رديئة وغير مفهومة. وفيما هم يتبادلون سير الآباء وأقوالهم كان ببنودة يحتضر.

- ٣ -

فى تلك الساعة دق باب قلايته.. دق .. ودق وبدأت صور الآباء الجلوس حوله فى أن تختفى .. رويداً .. رويداً..

وعاد الباب ليطرق من جديد فى شدة وإلحاح

وفتح ببنودة عينيه وجعل يفرك فيهما، وتحسّس رأسه و... وإذا به يحلم!

فقام مفزوعاً، وضرب الغطاء بكل قوة قدمه، وقفز كمن صعقه التيار ليفتح الباب للأخ بلامون.

ووجد بلامون ليقول له: أخطأت يا أبى كان ينبغى علىّ أن أوقظك منذ ساعة كطلبك إلىّ، ولكنى نسيت ذلك..

ولم يرد ببنودة بل انفجر باكياً..

+ + +

فى العام الماضى مضيت إلى الدير المذكور للتبرّك من قديسيه ورهبانه.

وطلبت من الآباء هناك أن يمكنونى من مقابلة أحد الشيوخ لاكشف له أفكارى وأنتفع.. بخبرته وأبوته.

وانتظرت طويلاً قبل أن يأتينى الأب ببنودة.. تشع من وجهه القداسة والملائكية.. وتحدثت معه قليلاً ووجدت راحة ليست بقليلة.. ولكنه بعد دقائق استأذن منى معتذراً عن عدم امكانه المواصلة فقد ألمّ به صداع خفيف! .

فقراء.. ولكن

... فحين طابت لباسيليوس المعيشة هناك فى الدير، ورفض الرجوع إلى أمه وأخته.. أرسل إليهما متوسلاً أن يتركاه فى الدير ليكمل حياته فيه.

ولم تكن أمه تتوقع أنه لن يعود من تلك الزيارة، ولذلك سمحت له بأن يرافق زملاءه الخمسة فى رحلتهم إلى الدير، وأما هم فقد عادوا بعد ستة أيام، وأما هو فقد تشبّث بالحياة هناك، وأمسك بقرون الدير.

وكان سنه لايتجاوز السادسة عشر حين أرسل لها يقول:

... «علمت أنك تحبين القديسين، وترفضين مجد العالم ومظاهره، وعلمت أنك قد رغبت سابقاً فى الالتحاق بدير القديسة يوستينا للراهبات حينما كنت لاتزالى صغيرة، ولكن أسرتك ألحّت عليك وتوسلت فقبلت الزواج...

وعلمت أنك شغوفة بسير الأوائل.. وجلّ اهتمامك أن أكون مثل واحد منهم...

فهلا سمحت لى أن أحقق غايتى.. وأمنيتك من قبل؟!.. أرجوك وأتوسل إليك.. وأقبل قدميك، لاتدعى رابطة الدم تحول دون سعادتى وسلامى...».

وحالما وصلت إليها هذه الرسالة، صرخ نداء العاطفة داخلها وصرعها.. فقامت لفورها تسعى إلى الدير فى نفر قليل من العائلة..

وفى الطريق إحتاج الأمر إلى المبيت..، وحدث فى تلك الليلة أن رأت ولدها قابعاً فى حضن شيخ مهيب وقور تبدو عليه سيماء القوة

والاتضاع معاً، عرفت فيه القديس ثيؤدوسيوس شفيع الدير المذكور ورأت كلاهما فرحين وسمعتهما يرددان لحناً تعرفه هى جيداً ثم رأت سيدة تحاول أن تنتزع ولدها من بين يدى الشيخ والشيخ بدوره يتوسل إليها أن تتركه.

واستيقظت من النوم، وبدت ساهمة طوال اليوم، ماعسى أن يكون هذا الذى رأت ؟!

عندما وصل الركب إلى الدير علم ابنها، فهرب إلى المغارة التى كان يسكنها قبلاً البار أبوللو، ولم يرد أن يقابلها لكن أب الدير نصحه بالحضور، وقد كان له فى ذلكِ غاية. وهى أن يعرف مدى محبة باسيليوس للدير، وإصراره على الحياة فيه وقدرته على ضبط عواطفه.

وحالما رأته أمه جرت نحوه كالمجنونة وإنفجرت باكية تحتضنه وتغمغم بكلمات غير واضحة، وأما هو فقد كان ناظراً لأعلى متماسكاً رزيناً، ثم انسحب برفق من قبضتها وأخذها وأجلسها إلى جواره وتركها دقائق ريثما تكفكف دموعها. وأما هى فأردفت تقول:

- هل هنُا عليك بهذه البساطة..؟

- لا يا أمى فمحبتكم ما تزال فى قلبى ثابتة.

- فلماذا تركتنا ونحن أحوج مانكون لك فى هذه الأيام، ألعلى ضايقتك فى شئ؟

- أبدا يا أمى.. وأنا أثق فى أن الله معك وهو يعولنا جميعاً.

- (وقد لانت قليلاً) ما رأيك فى أن تأتى معنا، وسأتركك حالما تتزوج أختك!

- بارك الله فى أفراد العائلة

هنا وتدخلت إبنتها لتقول فى وداعة: لا تلقى بالاً إلىّ يا أمى فسعادة أخى أمر يهمنا أيضا، وأرى أنه من الأنانية أن نسعى لراحتنا فقط.

ثم تدخل الرفاق أيضا ليثنوا باسيلى عن رغبته، ولكنه بوداعته وحجته جعلهم يتراجعون..

وعادت الأم لتبكى قائلة: إذا تعالى امكث معى حتى أموت وتدفننى ثم بعد ذلك إفعل مايحلو لك !

واختلجت المشاعر فى داخل باسيلى ولكنه ضبط نفسه وكظم الألم النفسى فى داخله، وصمت قليلاً حتى يستعيد شجاعته وهدوئه ثم قال : (ربنا يطول لنا فى عمرك) وعادت لتبكى وتقرع صدرها وتقول : لن أغادر هذا المكان إلا وأنت معى..

فابتسم باسيلى قائلاً :

إذن إبقى معنا !

وهنا دخل الأب أغسطينوس ليستأذنهم فى أن يتركهم باسيلى قليلاً.

وإلى أن حلّ المساء لم يكن باسيلى قد عاد لهم.. وأما هم فاستعدوا للنوم، وعادت الأم ترى فى نومها نفس المشهد الذى رأته فى الطريق إلى الدير، نفس الشيخ ونفس السيدة التى تحاول أن تنتزع ابنها من بين يديه.

ولست أعلم ماحدث بالضبط.. إذ عندما استيقظت باكراً، أيقظت

أفراد المجموعة وحثتهم على مغادرة الدير. وفيما هم يجمعون متاعهم كانت هى قد أخذت ورقة وقلماً وراحت تكتب:

«ولدى وقرة عينى:

نزلت على رغبتك وكأنى تركت قلبى هنا ودمى، لا عن رضى ولكن رغماً عنى، وقسر إرادتى، ومنذ الآن لن تكون لى خصومة مع الله.. ولكن خصومتى ستكون مع نفسى، فإذا حققت مرادك من المجئ إلى هنا، فقد أثلجت قلبى حية وأرحت عظامى فى قبرى، تركت قلبى عندكم.. وتركت أنت ذكراك لى، سأجاهد مابقى لى، حتى أقدمك ذبيحة عقلية للمسيح، فإن أنا مت فلى رجاء: أن تذكرنى فى كل ترحيم بالقداس الإلهى..

الرب أعطى والرب أخذ ليكن اسم الرب مباركاً

«المسكينة أمك»

وفى ركن من القلاية وقف باسيلى مدمع العينين وهو يمزق رسالة فى يده، وقد بقى شارد الذهن لبضعة أيام قبل أن ينسى ماحدث، وينظر إلى الأمام.

كان الأب مرقس ـ وهو الأب الروحى للدير ـ قد تجاوز الأربعين من عمره حين تبنى باسيلى منذ دخل إلى الدير، واعتبر أنه لازال عجينة طيعة يمكنه تشكيلها حسبما يريد، فابتدأ معه منذ البداية ينصحه ويرشده ويساعده فى اقتناء الفضائل، يركز على فضيلة المحبة مثلاً خلال السنوات الثلاث الأولى.. ثم الاتضاع ثم..

وأخذ على عاتقه أن يراقبه عن كثب ويوجهه أولاً بأول، ويعلمه كيف يواجه الأفكار وكيف يتخلص من هجمات الشيطان. ثم كيف يخطب ود ومحبة من حوله.

وتتعجب .. كيف بسهولة ويسر قد صار خادماً للكل، ويجد سعادة كبيرة فى مساعدة الآخرين وكيف كان يجول يصنع خيراً.

وأما دراسته للأسفار فقد جعلها سراً لايعرفه من حوله كذلك فقد حفظ بعض الأسفار عن ظهر قلب.. ولكن أكثر مابرع فيه هو أقوال الآباء وسيرهم، وكان سيل منها يتدفق عبر فمه على الدوام.. كذلك كانت له علاقات قوية ببعض القديسين.

ومرت سنوات وسنوات، وباسيليوس فرح بحياته فى الدير ينمو باطراد يوماً بعد يوم حتى لقد كانوا يسمونه «عروس الدير».

ولكنه على أية حال لم يسلم من التجارب والاهانات تلك التى يسمونها إكليل الراهب. فى البداية كان يتضايق من الداخل، دون أن يظهر شيئاً من ضيقه لمن حوله.. كانت الآية الذهبية التى تداعب شفتيه على الدوام «طلبت وجهك - وجهك يارب أنا ألتمس».

ولكنه اعتاد مع الوقت ألا يتأثر من الخارج أو من الداخل بل صار يتقبل كل مايحدث بهدوء وبساطة..

حدث ذات يوم أنه نسى أن يمر على قلاية أحد الآباء ليعطيه نصيبه من الفاكهة، فقابله فى اليوم التالى، ووبخه بشدة واتهمه بالتقصير وبأنه مرائى ومخادع وكذّاب.. فصنع له الأب باسيليوس مطانية.. وأما

الآخر فقد استخف به! فعاد إلى قلايته يبكى وهو يصلى ويقول:

«اغفر لى يارب فقد أعثرت أخى، واضطررته للوقوع فى الخطأ.. اقبل توبتى.. وليقبل هو الآخر توبتى».

وكان يقول لنفسه أيضا فى مثل هذه الظروف.. «لو كنت صالحاً لما تضايق منى (فلان) ولو كنت حكيماً لتصرفت على نحو أفضل..

حدث أيضا أن كلّفه رئيس الدير ذات مرة، بإحضار بعض الخوص من مكانه به نخل كثير يبعد عن الدير حوالى كيلو مترين، وحدث عند عودته وكان ليلاً أن هاجمه أثنان من اللصوص وهجما عليه وأوسعاه ضرباً، آملين أن يأخذوا ما ظنا أنه يخفيه بين طيات ملابسه ـ ولكنهم عادوا فتركوه والدم ينزف من بعض أجزاء من جسمه..

وأما هو فأخذ طريقه إلى الدير فى بطء حاملاً حزمة الخوص. وقد لازم الفراش ثلاثة أيام قبل أن يستعيد قوته.

وعاش سعيداً.. فى ملء التعزية وسلام القلب، يشعر أن يومه أفضل من الأمس وغده سيصير أفضل من يومه واقترح عليه الأب مرقس ـ أبوه الروحى ـ أن يدخلا معاً مرحلة أخرى من الجهاد، فاتفق معه على أن يتصور الآب باسيليوس نفسه وقد ألمّت به بعض التجارب الجسدية.. من ذلك أن يتصرف على اعتبار أنه أعمى!

فكان يختار بعض الأوقات التى تخلو فيها بعض الممرات والسلالم من الحركة ومن الآباء.. ثم يمشى بها كأنه فاقد البصر، ويستعمل فى ذلك عصا ترشده، كذلك كان يتدرب فى قلايته على أن يأكل وهو

مغمض العينين.. ويصلى كذلك ويقضى بعض أموره..

وجدير بالذكر أن أحد الآباء فى ذلك الدير قد فقد بصره نتيجة ندرة الطعام..

ومن هنا عكف الأب باسيليوس على حفظ أجزاء أكثر من الكتاب المقدس والمزامير والتسبحة و أقوال الآباء ، يتلوها عن ظهر قلب.

وتخيل أيضاً أنه أعرج.. وجرب أن يمشى بعصا يتوكأ عليها، وتعلم من ذلك أن يسير بهدوء بعد أن كان قد حاول مراراً ولم يستطع إذ كانت حمية الشباب تجعله يمشى بنشاط زائد.. وهكذا جرب أن يشارك المعوقين حياتهم بالنية، وصار مستعداً لأى تجربة يسمح له الله بها..

ومر باسيليوس على كل أعمال الدير تقريباً، أخذ بركتها وبذل مجهوداً كبيراً فى كل موضع.. فقد عمل (بالمجمع) لفترة تزيد على السنتين.. لم يكتف خلالها بتجهيز طعام الآباء والضيوف والعمال فحسب، وإنما اهتم بصفة خاصة بالشيوخ والمرضى، كان يعرف أنهم يحتاجون إلى أنواع معينة من الطعام وطرق خاصة فى تجهيزه..

وكان يمكنك فى تلك الفترة أن تراه وهو يحمل طبقاً إلى قلاية هذا.. وخبزاً إلى ذاك.. وينتظر ثالث حتى يأكل..

كان أسعد مايكون عندما يطلب إليه أحد الآباء شيئا خاصاً، ثم يدعو له بالبركة.. والأبدية.. ولذلك اعتاد أن يعمل كل يوم حتى آخر النهار، وبين حين وآخر كان يتسلل إلى قلايته يصلى تارة ويقرأ تارة..

كذلك عندما عمل فى المخبز.. وفى مزارع الدير. واشتهر ببشاشته وحكمته فى استقبال زائرى الدير، ولباقته فى صرف الذين لايستطيع

الدير استقبالهم واستضافتهم، لقد كان صورة مشرفة للدير، ومثلاً حياً للمسيح المنظور، وكما اعتاد الزائرون السؤال عنه: اعتاد هو أيضا الهرب من الضيوف، عندما أسند إليه الدير عملاً آخر لايتعلق بالزوار.

كان نشيطاً محبوباً غيوراً، أحب التسبحة وعشقها، وأحب أن يكون أول الحاضرين فى الكنيسة بعد دق الناقوس، وفى محبته للكنيسة استأذن (الأب الكنائسى)[١] فى أن يدخل فى الخفاء لينظف الهياكل، ويزيل نزيف الشمع ويرتب الكتب ويمسح الأيقونات، ويسرج القناديل، كما اعتاد مساء كل يوم أن يمضى إلى الكنيسة ليتبارك من جسدى القديس ثيئودوسيوس والقديس بارثلماوس الشهيد، والمرور أيضا على الأيقونات لتقبيلها.

وروى عنه الأب مرقس، فقال أنه كان يخصص وقتاً فى كل يوم ليصلى فيه لأجل العالم... لأجل الحروب والزلازل والمجاعات.. ومن أجل المسجونين والمرضى والفقراء، والذين فى الضيقات، وكان يشعر أنها مسئولية يجب أن يحملها على كاهله وأن يكون أميناً فيها..

- ٢ -

وإزاء هذا النمو المطرد فى حياة هذا الأب والظهورات الكثيرة التى كان يتمتع بها، والقامة التى وصل إليها.. بدأ الأب مرقس يخشى عليه، فاستدعاه ذات يوم ليقول له:

---

(١) الكنائسى هو الأب المسئول عن كل مايختص بالكنائس فى الدير.

حياتك الروحية فى خطر، ويلزم لانقاذها أن تحتمل ما أشير به عليك.

فانحنى الأب باسيليوس خاضعاً منصتاً وقال: سوف أطيع صوت الله على لسانك يا أبى.. فقداستك علّمنى سابقاً أن الطاعة تخلينى مسئولية الطريق.

قال الأب مرقس: إذاً انصت إلىّ جيداً.

كان الأمر بالنسبة للأب باسيليوس مفاجأة غير متوقعة وتجربة لم يمر بها شخص من قبله، ولكنه قبل دون تردد واستعد للقيام بالمهمة .

فقد كان عليه أن يترك الدير ويتجه نحو أحدى المدن متخفياً فى صورة إنسان عادى كباقى الناس، يبحث عن عمل وجدير بالذكر أن الرهبان فى ذلك الوقت لم يكونوا يرتدون ثياباً مميزة، بل كانوا يظهرون فى أية ثياب، كما كانت عادة إطلاق اللحى منتشرة بين العامة من الناس فى ذلك الوقت أيضا.

كانت هذه هى المرة الأولى التى يترك فيها الدير.. فقد عاش فيه مدة ثلاثة وعشرين عاماً لم يغادره مرة واحدة..

ولذلك بهرته الأضواء والزحام والحركة الدائبة والأصوات الصاخبة غير المنقطعة فى مدينة ماتيان.

فى اليوم الأول وقد كان متعباً من طول السفر، جلس بجوار بحيرة صغيرة ريثما يستريح.. ثم غافله الوقت فإذا بالليل يرخى سدوله.. فمد الأب باسيليوس يده إلى الصرّة الصغيرة التى حملها معه من الدير

فأخرج شيئاً يشبه السجادة وآخر يستعمل كغطاء.. كان كلاهما مرتقاً لكنهما نظيفان.

وبعد أن قدم صلاة ورشم ذاته بعلامة الصليب ورشم كل الجهات من حوله استسلم للنوم، وتعجب عندما استيقظ ووجد كل شئ على غير ما ألف.. ولكنه عاد وتذكر أنه فى المدينة وليس فى الدير.

وعند الظهر وجد ذاته مهدداً بالملل والضجر، فتمشى قليلاً يجمع بعض الليف والخوص ثم اختار شجرة باسقة نقل إليها صرته الصغيرة، واختارها مكاناً يعيش تحته.. وابتدأ فى عمل الخوص وضفر الحبال.

وكان المسافرون المتجهون إلى سوق ماتيان يمرون به فى ذهابهم وإيابهم، ولكن لم يلتفت إليه أحد. وفرغ الخبز الذى معه واضطر أن يزحف قليلاً إلى الطريق خلال النهار لكى يبيع عمل يديه للمارة .

... وفى أحد بيوت البسطاء فى القرية دار حديث بين رجل وزوجته ، قالت الزوجة :

هذا أمر يرجع إليك، فإذا أحببت أن تأتى به ليعيش معنا فليكن ماتريد.

أجاب العجوز بطرس:

لقد أنت عليه أحشائى، وخفق له قلبى فمنذ عشرة أيام وأنا أراه جالساً تحت الشجرة صامتاً هادئاً لا يكلّم أحداً.

- أما عرفت اسمه

- وكيف لى ذلك

- إذاً دعه يأكل من جفنتنا ويشرب من كوزنا وينام تحت السقف الذى وهبنا الله أن نأوى تحته.

وفى اليوم التالى مر بطرس بالأب باسيليوس ووجده كعادته يعبث فى بعض الليف وبجانبه قطعة حبل .

- كيف حالك يا أخى

- أنا بخير أشكر الله

- سامحنى فأين تنام ومما تأكل ؟

- إن الله لايضيّع ماخلق ولاينسى خليقته

- فأين الغرض؟

- الله هو غرضى وهو مقصدى وما طلبت فى حياتى غير وجهه..

- هلا أتيت معى إلى بيتى والذى يعول الجميع يعولنا ويسترنا؟

- ولكنى سعيد على أية حال

- فإذا كان الأمر عندك واحداً فلتأت معى - فليس هناك غير زوجتى العجوز، ونحن نعيش وحدنا فى منزلنا المتواضع، فإذا وافقت على المجئ معى، فقد أضفيت على حياتنا السعادة، وأفسحت لنا المجال لنخدم القديسين.

- أخشى أن أثقل عليكما بوجودى، فإذا ابتغيتما راحتى فاتركانى ههنا، وإذا ألحّت عليكما فضيلة العطاء، فإن خبزة واحدة تكفينى كل يوم..

– أتوسل إليك، لاتردّنى ولا تكسر قلبى، فقد كنت طوال الطريق إليك أمنّى نفسى بهذه الأمنية، وقد صرفت حياتى فى التوانى والكسل وأريد الآن أن يهبنى الله بركة بوجودك معنا..

– أرجوك.. سأكون مستريحاً إذا ما تركتنى فى موضعى.

– إذاً مارأيك فى حل وسط.. ألا وهو أن نصنع لك كوخاً من الطوب اللبن تعيش فيه؟

– لا مانع من ذلك والرب يكافئكم عن محبتكم..

حينئذ بدأ العم بطرس فى إعداد الكوخ.. وصار جاهزاً للسكنى بعد أسبوع واحد.

فى اليوم الأول لخروجه من كوخه، مضى يتجول فى شوارع المدينة كأنه يبحث عن شئ ما، فما لبث أن سمع شخصاً يناديه باسمه والتفت ليعرف مصدر الصوت فإذا به إثنان يحمل كل منهما قفة فى يده وطلبا إليه أن يتبعهما. فمشى خلفهما دون أن يعرف وجهتهما.. إلى أن أشارا إليه نحو الكنيسة ثم قال له أحدهما «تشدد. وتشجع.. وكن جبار بأس.. وسترى كم سيصنع الله معك وبك.. وإذا احتجت يوماً إلى الخبز.. فتعالى إلى هذه الطاقة (وهنا اشارا إلى طاقة فى جدار أمامهما) ثم اختفيا من أمامه.

وأما هو فقد أخذ منه العجب مأخذاً كبيراً.. وصار يفكر فيما عسى أن يكونا هذان الغريبان.. ولكنه على أية حال دخل إلى الكنيسة يصلى..

وكان القداس الإلهى قد أوشك على الانتهاء.. فانسلّ إلى الداخل

حيث وقف خلف أحد الأعمدة وراح يصلى فى نهم وسرور وظل فترة طويلة يصلى قبل أن جاء إليه خادم الكنيسة يسأله الخروج لكى يغلق الباب.. وأطاع.. بعد أن سأل عن مواعيد القداسات..

وحدث عند عودته إلى مكانه أن شاهد اثنان من الشبان يقذف أحدهما الآخر بكلمات رديئة، ثم مالبثا أن هجم الأول على الثانى وأوسعه ضرباً.. فراعه المنظر ولم يصدق عينيه وتعجب من نقص المحبة بين الناس! إنها المرة الأولى التى يجد فيها اثنين يحاول أحدهما التخلص من الآخر أو الانتقام منه. وحاول أن يتجه نحوهما.. ولكن سيدة فاضلة أسرعت إليه تنصحه بالابتعاد وتنهاه عن التدخل لئلا يلحقه أذاهما. بكى.. وبكى وتأثر وقضى بقية يومه ينتحب ويفكر فيما رآه.. وحاول أن يطرد المشهد من مخيلته ولكنه أخفق، وعاد ليفكر فى الفرق الشاسع بين الحياة فى الدير والحياة فى العالم. أنه عالم مفتوح على غير ماكان يتوقع، كل شئ فيه مباح الضرب والسرقة والاتهامات والشتائم..

وتذكر حينئذ ماحدث منذ عامين وهو لايزال بالدير، كيف أن الأب أورانيوس اتهم الأب يوئيل بالإهمال! وكيف أسرع الآخر ساجداً نحو الأرض إلى أخيه طالباً العفو والنصح، وكان صادقاً فى اعتذاره وفى طلبه. وفليمون العجوز المحبوب الذى لم يكن فاه يفتر عن التشجيع والاشادة بفضل كل أحد.

(أنها بلا شك نقص محبة) هكذا حدث الأب باسيليوس نفسه وأحزنته أفكاره فى تلك الليلة.. كيف سيواصل الحياة فى هذا العالم.. بعد أن ترك الفردوس (الدير).. إنه يخشى أن تتدنّس أفكاره وتخور عزيمته،

ويفقد العين البسيطة ونقاوتها.

ولكنه عاد ليذّكر نفسه: أنه لابد أن يحيا فى الطاعة وأن حياته ومستقبله هما وديعة بين يدى الله.

وقام ليسجد مصلياً:

«ليس لى رغبة غيرك يارب.. طلبت وجهك، وجهك يارب أنا ألتمس، نعم ليست لى أية أهداف أخرى...»

ومنذ ذلك الوقت كتب هذه الآية وعلقها على إحدى حوائط الكوخ «طلبت وجهك وجهك يارب أنا ألتمس..».

واعتاد الذهاب إلى الكنيسة باكر أيام الأحد والأربعاء والجمعة ودون أن يختلط بأحد أو يتعرف على أحد.. كان يصلى هناك القداس الإلهى.. وينطلق بعدها إلى تجواله..

ولاحظ فى أحد الأيام - بينما كان مستنداً إلى عاموده أثناء القداس - رجلاً طاعناً فى السن، واقفاً بجوار الحائط وقد حمل فى يده زجاجة بها صليب، ينظر إليها ويبكى طوال القداس الإلهى.. وراقبه الأب باسيليوس بعد انتهاء القداس الإلهى فوجده قد دخل فى صمت إلى الهيكل ليتناول من الأسرار المقدسة ثم يخرج إلى الخارج.. ويختفى قبل أن يزدحم ممر الكنيسة بالخارجين..

وعاد ليبكت نفسه أنه لم يصل بعد إلى انسحاق هذا الرجل وخشوعه رغم أنه يحيا فى هذا العالم المزعج..

ومرت ثلاث أو أربع سنوات، والأمور تسير بطريقة رتيبة دون أن

يكتشف أحد أمره..

وإذا احتاج يوما ما إلى طعام مضى إلى الطاقة التى أشار إليها الغريبان قبلاً فوجد هناك خبزاً طازجاً.. على الرغم من أنه يذهب إلى هناك بطريقة (عشوائية) أى مرة كل فترة طويلة..

وكان الأب مرقس يراسله بطريقة (شفرية).. وقد أتى لزيارته بنفسه فى صيف ١٨٢٧م وفرح هو بتلك الزيارة كذلك الأب مرقس وجلسا يتحدثان طوال الليل وشكى له نفسه وشكى له الشيطان الذى يتربص به، وشجعه أبوه وحثه على الاستمرار وصلى له وأعطاه حلاً.. وعندما حل موعد الأب باسيليوس مع التسبحة وهما لايزالان يتحدثان عن عمل الله فى حياتهما، قاما ليصليا صلاة نصف الليل ثم أعقباها بالتسبحة فصلاة باكر فذكصولوجية باكر. حيث استأذن الأب مرقس فى الانصراف .. بينما اتجه باسيليوس إلى الكنيسة. وشكر الله أنه ضبط نفسه ولم يسأل عن اخوته فى الدير وعن أحوال الدير..

ويذكر أنه شاهد ذات مرة شاباً لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره جالساً يبكى على قارعة الطريق، فلم يتمالك نفسه بل أسرع نحوه وهدأ من روعه، ثم عرف منه أنه يعمل لدى أحد الموسرين وقد سلمه فى ذلك اليوم خاتماً ثميناً ليوصله إلى صديق له. ولكن لصوصاً تعقبوه وانفردوا به فى مكان خال حيث ضربوه ضرباً مبرحاً ثم أخذوا منه الخاتم وتركوه يعانى من الذعر والألم.

وأخبره الشاب بأنه خائف من سيده وجبروته وسطوته، وعاد الأب

باسيليوس ليطمئنه بأنه سوف يساعده وأكدّ له أن الله لن يتخلى عنه لأنه يحبه، ثم طلب إليه أن يصف له مكان التاجر.. ويجلس هو فى انتظاره حتى يرجع إليه..

فوجئ السيد انطونيو بشخص فى حوالى الخامسة والأربعين يدخل إلى حانوته الكائن فى حى (بقراطيوس) فقام ليحييه ويدعوه للجلوس فشكر له الأب باسيليوس لطفه ثم قال:

أنا أقصدك فى خدمة.. وإن كنت لاتعرفنى

قال التاجر.. تحت أمرك

قال : عفوا، فنحن جميعاً بيد الله علمت أن لك شاباً يعمل معك

- ألعلك تقصد فرانس

- نعم ياسيدى.. فقد قابلته اليوم ووجدته يبكى متأثراً لأن لصوصاً..

هنا وانقلبت سحنة الرجل، فبرقت عيناه واستقامت أذناه وتطاير الشرر من عينيه..

«ماذا حدث. أسرع فى الكلام» هكذا صرخ فى وجهه فهدأ الأب باسيليوس من روعه وقال له :

ألا تؤمن أن حياتك وكل مقتنياتك هما وديعة بين يدى الله؟

- نعم

- وهل تشك فى أن الله قادر أن يعوضك عنه بأكثر

- لا أشك

- وهل لو كنت مكان فرانس لنجوت من اللصوص

- (وقد هدأ قليلاً وعاد ليجلس) لا أدرى

- أليست كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الرب

- نعم نعم، ولكن أخبرنى ما شأنك أنت فى هذا الأمر.

- الحقيقة أننى رثيت له، وهو خائف من المجئ إليك

- هل تعرفه ؟

- كلا، ولكن قلبى رق له عندما وجدته باكياً متألماً

- والآن !

- أريد أن أتعهد أمامك الآن بأن أسدد لك ثمنه على فترات، أى كلما توفر لدى أى مبلغ آتى به إليك.

- موافق، لكن ألا يأتى هو لأقف منه على ماحدث بنفسى؟

- نعم... فقط عدنى بأنك لن تؤنبه أو تعنفه.

- كلا. كلا، فإن محبة الذى لم يخطئ تشفع فيمن يخطئ

- إذن سأحضره معى الآن.

وجاء فرانس خجلا، وكانت المفاجأة أن قام السيد انطونيو من مكانه واحتضن فرانس وقبله بحنو ومحبة أبكته.

واعتاد الأب باسيليوس على توفير بعض المال من عمل يديه ليسلمه لفرانس وهو بدوره يسلمه للتاجر وذلك فى كل سبت.. حتى جاء يوم قال فيه التاجر للأب باسيليوس:

هذه هى آخر دفعة فى ثمن الخاتم، ثم أومأ إلى فرانس فخرج.. ثم قال اجلس الآن لأن هناك شئ أود أن أعطيك إياه. ثم أخرج من الخزينة صرة بها كل المبلغ الذى دفعه على مدى ثلاثة عشر شهراً وأرفق الصرة بورقة كتب بها :

(محبتك أذابت قساوتى، واتضاعك أخجلنى، اخلاصك حرّك جنين الوفاء والتسامح داخلى، فإذا وجد فى «ماتيان» أثنان آخران على شاكلتك، نجت المدينة من الدمار، وابتهج قلب الله بها). ثم قام انطونيو ليودعه ويرجوه ألا ينقطع عن المجئ فى كل سبت كعادته.

واعتاد أن يذهب إليه كل سبت لا ليدفع القسط الأسبوعى وإنما ليتسلم منه نفس المبلغ الذى كان يدفعه هو قبلاً.. وخصصه الأب باسيليوس للانفاق سراً على بعض اليتامى الذين عرف أماكنهم.

وإذا أحببت أن أوفر عليك الوقت وأعفيك من الملل: قلت لك فى اختصار أن التاجر وخادمه صارا من محبى الكنيسة والقديسين واشتهرا بعمل الصلاح فى كل مدينة.

وعادت الأفكار لتهاجم الأب باسيليوس وتحاصره. فأحيانا يفكر فى أمه وأخته وأين هما وكيف آل مصيرهما فقد رآهما لآخر مرة حين كان يرافقهما زوج أخته وأولاده..

وإخوته الرهبان فى الدير، وماذا يحسبانه الآن ثم أبوه الأب مرقس الذى لم يره منذ سنوات ألعله انتقل؟

وماذا عن تدبيره؟

صحيح أنه لايزال يلبس منطقته تحت ثيابه ويتمم تدبيره كاملاً فى الصلاة والصوم والتأمل والقراءة.

ثم استطرد شارداً..

وماذا عن الثعبان الذى وطأته بقدمى أمس.. ماذا لو كان قد لدغنى؟ لقد كان ملفوفاً على هيئة (قرص) ؟! لابأس.. إذا كان هذا من أجل بنيانى وخلاصى لابأس.. لابأس.

يجب على أن أشهد للمسيح فى أى مكان ويتمجد الله بى ومقابل هذا لا أنكر أن الله كان يرسل لى العضد فى الوقت المناسب.

ولن أنس ذلك اليوم المظلم المشئوم، حيث اتهمتنى امرأة بأننى فاسد.. وجرنى الناس إلى محفل الشرطة، وهناك أوسعونى ضرباً وركلاً وسخرية، وقضيت ليلتين قاسيت فيهما المر والمذلة.

وأصعب من ذلك: عندما سألونى عن اسمى وعملى وأين أسكن وأين أسرتى؟!

ولكنى أحمل لذلك اليوم الفضل الكبير، فى أنه جعلنى أشارك الآخرين فى آلامهم واحس اننى عضو فى الجسد الكبير جسد المسيح (الكنيسة).

لابأس.. لابأس هكذا طيب خاطره!

وقام ليغسل بعض الخيار والطماطم الذى اشتراها فى صباح ذلك اليوم، ثم بلّ الخبز وجلس ليأكل كعادته عند الساعة الثالثة بعد الظهر.

وإذا بفتى صغير يبلغه بأن العم بطرس يدعوه للحضور إلى بيته على وجه السرعة، فقام لوقته ومضى إلى هناك.. ودفع باب حجرة

بضرب في هدوء ودلف إلى الداخل حيث وجده راقداً على فراشه يعالج سكرات الموت، فمكث إلى جواره عصر ذلك اليوم يطببه ويشجعه ويصلى معه، وقد ناداه الله عند الغروب.

فكان على الأب باسيليوس أن يترك الكوخ باعتباره أحد ممتلكات المتنيّح.. وخشى من خجله من أقارب الميت وخشى أيضا من خجلهم منه، فخرج في هدوء حاملاً نفس الصرّة! فهى كل مايملك من حطام الدنيا.

وظل المسكين يجوب شوارع المدينة وطرقاتها، وينام في العراء يقاسى قرصات البرد ولم يكفه الغطاء الذى كان يستره داخل الكوخ، لاسيما وأنه تقدم في الأيام، ولم يحتمل جسده المنهك نهش البرد، فخرّ صريعاً يعانى من آلام النزلة الشعبية..

ومن يعرفه؟! وقد ترك المدينة إلى مدينة أخرى، ومن أين ينفق على علاجه وهو الذى إعتاد التصدق بكل مايصل إلى يده؟ ثم إن الخبزات القليلة التى في حوزته أوشكت على النفاذ .... يارب ...... صرت لى ملجأ، خرجت لأجلك، ولأجلك احتمل العرى والجوع والمرض ... هكذا صلى..

وفرغ الخبز وبقى صائماً بعدها ثلاثة أيام متتالية، وأحس أنه في مواجهة مع الموت، ولكن الله وضع في قلب صبى صغير في الثامنة من عمره أن يميل إليه يسأله عما به..

فقال في وهن شديد: أريد خبزاً وماءاً.

وبسرعة جرى الصغير نحو بيته، واحضر له بعض الخبز، ونصف

برتقالة وكوز ماء، ثم جلس إلى جواره يطعمه ويسقيه، ثم لمعت فى ذهن الصبى فكرة وهو جالس: لماذا لايحضر بعض الأغصان ويصنع له كوخاً ؟ وبالفعل قام وجمع بعض الأغصان وبدأ فى اليوم الثانى فى تثبيتها بطريقة عمودية فى الأرض ليصنع منها كوخاً صغيراً، ثم جعل لها سقفاً وجوانباً من الخوص والحبال، ثم جمع فى داخلها بعض القش، فرش فوقه بعض من ثيابه القديمة.

وبعد أن انتهى فى اليوم الثالث من إعداد الكوخ، كان الأب باسيليوس قد تماثل للشفاء، فقام متباطئاً ومتأبطا ذراع الصبى، ودخل معه إلى الكوخ وكأنه إلى قصر منيف بفراش وثير وشكر الصبى بعينيه الواهنتين فقط.

وأحب الصبى الأب باسيليوس جداً، وكان يقضى معه كل يوم بضع ساعات، يقتطع بعضاً من أكله ليحضره له فى كل يوم، ولاحظت أسرته ذلك وسألوه، فروى لهم قصة هذا الغريب معه، فجاءوا لزيارته وسرّهم ذلك جداً ورجوه أن يحضر معهم ولكنه اعتذر بأنه مستريح فى هذا القصر الصغير المتواضع..

وذهب الصبى ذات يوم ليخبر كاهن كنيستهم، فأتى وصلى على الأب باسيليوس ورشمه بالزيت وطلب إليه أن يراه فى الكنيسة، ووعده الأب خيراً.

واعتاد الصبى أن يجلس إلى جوار الأب باسيليوس يستمع إلى قصصه وأحاديثه، وهو لايشبع منها، وهو بدوره اعتاد أن يقصها على

أصدقائه، الذين كان يأتى ببعضهم بين الحين والآخر لزيارة الأب باسيليوس.

وحدث يوماً أن نصح الأب، الصبى بالرجوع حالاً إلى بيته لأن والده محتاج إليه، وبالفعل عاد ليجد ذاك يبحث عنه. ومرة أخرى أرسل الصبى إلى بيت وصفه له ـ على الرغم من أنه لم يدخل الشارع الموجود فيه ذلك البيت من قبل. قال له : اذهب إلى الدور العلوى واطرق الباب، فإذا فتحت لك السيدة التى هناك فقل لها أن تطفئ النار على السطح.

ومضت السيدة مسرعة نحو السطح لتجد ناراً قد بدأت تسرى فى بعض القش، فأطفأتها على الفور، وكان ممكناً لهذه النيران أن تشتعل وتنتقل فى سرعة شديدة إلى باقى السطوح المعدّة من الخشب والحديد، ومكدس فوقها أكوام الحطب والبوص.

وعادت فى سرعة لتبحث عن الصبى، تسأله كيف عرف ذلك ومن أرسله، ولكنه كان قد عاد إلى معلمه يطمئنه بأنه قد أبلغ الرسالة.

وفى ذات يوم رأى أربعة رهبان يسيرون تجاه كوخه، وجرى نحوهم يسلم عليهم ويتبارك بهم، وكاد يصرخ عندما عرف فيهم الآباء: لوقا ولونجينوس وبسطوروس ويوحنا، قبل يديهم مراراً وطلب منهم أن يصلوا عنه، وأما هم فلم يعرفوه.

ودخل الأب باسيليوس فى صراع نفسى رهيب فى ذلك اليوم: فكر كيف حرم من الدير ومن اخوته وكيف شرّد هكذا فى أماكن لايعرفه فيها أحد ... تذكر قلايته ووجوه الآباء فى الدير.. ومرافق الدير التى كان يتردد عليها..

وتذكر الراهب الشاب يوليان، وبكى بحرارة...، كان الحبيب إلى قلبه.. وابن سرّه، وكيف كان عندما يمرض يجلس بجانبه يعيده ويسأل عنه ويصنع له طعامه وشرابه.

وما الداعى لكل هذه (المرمطة)؟ أهذه نتيجة الطاعة ولماذا اختار أبى هذه الطريقة؟! أما كان من بديل آخر؟ أكان يستطيع أن يسلك هو هذا المسلك الذى سلكته أنا؟ وهب أنه خاف علىّ من السبح الباطل، وأراد أن يجعلنى أعيش فى الطاعة.. وأذوق طعم الغربة الحقيقية أما كان هناك من بديل؟

نعم قال لى وقتها: إن الغربة الحقيقية هى أن تعيش وسط اناس لاتعرفهم ولايعرفونك، وتحتاج إلى أن تطعم نفسك وتشترى ثيابك وتبنى كوخك وأما فى الدير فهناك معزون كثيرون وخيرات كثيرة.

آه...

ولكنى تعثرت كثيراً وصغرت نفسى كثيراً.. كيف كان شكلى وأنا فى محفل الشرطة، وامرأة تقذفنى باتهامات سمعت عنها فقط فى قصص حروب الآباء.

وفيما هو على هذه الحالة سمع وقع خطوات بالقرب من الكوخ وانتبه، ولطم خده مؤنباً نفسه على تذمره وانسياقه لحيل المحتال.

واجتاز مقابله قافلة من الرجال، وتجاوزوه.

وعادت الأفكار لتطرق رأسه فى عناد واستبسال..

وماذا إذا متّ الآن؟ فأين ادفن ومن يكفنّى؟

لا بأس.. هذا لايهم فالتراب سيعود إلى الترب..

لا .. لا ..

أقوم الآن وأعود إلى الدير

الدير.. الدير..

ولكن الطاعة.. والأمانة..

وماذا فى الدير..

الآباء.. القلاية.. الكنيسة..

لابأس فهنا الكنيسة. وهنا الكوخ، وهنا يعزينى المسيح فقد قيل لنا أن التعزيات البشرية تمنع التعزيات السمائية.

وصلى: «اللهم التفت إلى معونتى، يارب أسرع وأعنى»

ولكن لا.. يكفى ما قاسيته..

ثم قام مفزوعاً وكأن شخصاً آخر يطرده وجمع صرّته وخرج وعصاه فى يده وصرته على كتفه وانطلق لايلوى على شئ..

وحتى مشارف المدينة كان مسبياً بالفكرة. واشتدت الأفكار وثقل عليه التذمر والقلق، وجلس مكدوداً منهك القوى والعقل.

ووجد راحة فى أن يبكى.. بكى وبكى لساعتين كاملتين ثم نام من شدة التعب..

وفى نومه رأى شخصاً يشع وجهه محبة وحناناً ووقار شيخ، عرف فيه أبيه الروحى الأب مرقس وارتمى على صدره يبكى ويتأوه.

وفى حنان ربت على كتفيه وعاتبه قائلاً:

لماذا شككت ؟ ولماذا لم تصبر لتكمل جهادك؟

أترى أن الله سينسى لك تعبك ومحبتك وطاعتك ؟

ثم قبله وأعطاه شيئاً فى يده، واستيقظ الأب باسيليوس ورأى يده مقبوضة على شئ، فتحها فلم يجد فيها شيئاً، ولكن الطمأنينة سرت فى صدره، وابتسم لنفسه وسخر من تذمره، وفى اتضاع تحدى الشيطان قائلاً:

«نعمة الله التى يهبنى اياها سوف تغلب محبتك للشر وكراهيتك لكل عمل صالح».

وعاد ادراجه إلى الكوخ المبارك ليجد الصبى فى انتظاره يحمل فى يده صرة صغيرة بها بعض خبز الشعير والبيض المسلوق والبلح المجفف..

وسأله الصبى أين كان.. ولماذا يحمل صرته على كتفه؟ وصمت ولم يجب وجلس ليأكل من يد الصبى..

ومع الأيام تسللت الشيخوخة إلى جسده، وظهرت فى قسمات وجهه المبارك، وأحس بالرضى عن نفسه، وصار يحمل الشكر والعرفان بالجميل لأبيه المحنك المحب.

وقد زاره فى كوخه فى يوم من الأيام رجل شيخ، وفاجأه بقوله: ألست أنت الراهب باسيليوس؟

أجاب: نعم ولكن كيف عرفت ذلك:

– أنا راهب مثلك، أرشدنى الله إليك لأنتفع منك.

– ولكن ليس لدى ماينفعك، فسيرتى كلها واحدة وهى اننى مشغول بعمل التوبة، لأننى أعلم أننى ماض يوماً ما إلى الرب

- فكيف تأكل؟ ومن يعولك وكيف ثبتّ فى هذه الرباطات؟

وجعل الراهب يسأل، والأب باسيليوس يجيب

- أما افتقدك الملل؟

- كيف لا؟ وقد اعتاد الضجر أن يضرب خيمته مقابل خيمتى فى كل ترحالى.

- وكيف تخلصت منه؟

- الحقيقة إننى لم اتخلص منه، ولكنى صادقته!

نعم، صرنا أصدقاء فلم أعد أخشى لدغاته، ولم يعد له سلطان علىّ

وعاد ليسأل والأب يجيب

ثم صنعا سوياً صلاة - وانصرف الضيف..

- ٣ -

فى ١٤ يوليو سنة ١٨٥١م عرف مصادفة أن الأب مرقس قد تنيح، دون أن يمرض..

ولا أستطيع القول بأن الأب باسيليوس قد حزن عليه وإنما بدأ منذ ذلك اليوم يفكر فى العودة إلى الدير، ليس مهزوماً من الأفكار ولكن لرغبته فى أن يتنيح هناك ... فكر أياماً طوالاً.. وبات مشغولاً بهذا الأمر واستحوز على كل اهتمامه، وبدا مهموماً..

صلى وصلى.. وبكى طالباً العون، وأين توجد مسرة الله، إلى أن استراح قلبه للفكرة.. وبدأ يضعها موضع التنفيذ.

اختار يوماً كان بترتيب إلهى يوافق نفس تاريخ اليوم الذى نزح فيه من الدير إلى العالم منذ حوالى ٢٤ عاماً.

وفى الطريق جعل يفكر.. كيف سيتقابل مع الآباء؟ وهل يوجد منهم من لايزال على قيد الحياة، ممن عاش معهم قبل مغادرة الدير..

ترى هل سيجد قلايته فى مكانها خلف السلم الأثرى، والمنارات الست وهيكل القديس بارثينوس..

واستراح فى الطريق خمس عشر مرة، واستغرق المسير حوالى اثنى عشر يوماً، تخللها مرتين أو ثلاثة أشفاق بعض الأعراب عليه فحملوه على دوابهم مسافة من الطريق وبدأ يدخل الجبل المقدس فى اليوم الثانى عشر، بعد أن قطع حوالى مائة وسبعون كليومترا..

وهو يذكر أنه لم يمش بهمة وبقوة شباب مثلما مشى فى البرية، كان يمشى مثل غزال!

وطفح البشر على وجهه وتمتم مسروراً يحدث نفسه.. تاره يرنم وأخرى يصلى بصوت مسموع.

إلى أن عبر التلة الكبيرة حيث وقع نظره على الدير وجهاً لوجه، فلم يحتمل ولم يطق صبراً وصرخ من الفرحة وصفق بيديه، واختلجت مشاعره وبكى طويلاً..

وكان قد قرّر أية على ألا يعرّف من بالدير بقصته بل سيطلب

إليهم كمن يريد دخول سلك الرهبنة، لكى لاينالــه منهم أى مديح أو كرامة..

ولكى لايمطروه بالأسئلة والاستفسارات وهو لايحب أن يضعه الآخرون وسط هالة تميزه عنهم.

على الباب دق الناقوس فخرج الشيخ الوقور البواب وقابله ببشاشة وفرح، فأخبره برغبته فى الانضمام للدير للرهبنة وطلب إليه الشيخ أن يمهله ريثما يبلغ أب الدير، الذى جاء مع البواب وتحدث معه قليلاً ثم اعتذر فى أدب شديد عن عدم امكانية قبوله لأنه تجاوز السن المناسبة للرهبنة.

وصار الأب باسيليوس يتوسل والأب ماض فى الاعتذار إليه والنصح بأن يطرق سبلاً أخرى لخلاصه. ثم اعتذروا له أيضا بأنهم مضطرون لاغلاق باب الدير واغلقوه!

واحتار ماذا يفعل؟ وتذكر الصرة التى يحملها على كتفه، وتذكر الغربة والعرى والجوع.

وفرش فرشته بجوار سور الدير

وبعد يومين خرج البواب لقضاء أمر ما، فوجد إنساناً نائماً بجوار السور فذهب ليستطلع الأمر فوجد الأب باسيليوس راقداً وقد اسلم الروح.

وعقد الآباء مجمعاً ماذا يصنعون بجسد هذا الغريب! وتضاربت الأقوال وكثرت الآراء.

وأخيراً رأى أكثرهم أن يدفن فى المكان الذى تنيح فيه بجوار السور.

وهكذا فعلوا

وهكذا دفن

وهكذا أكمل جهاده

عاش غريباً ومات غريباً

التجارة بالحب

الأم الرؤوم جلست على حافة البئر القديم، وفى يدها (سبحة) تصلى:

ياربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنى أنا الخاطئة.. هكذا علمتها الأم الرئيسة عندما قدمت للرهبنة.. فتاة فى السابعة والعشرين ربيعاً سلبها نسكها نضارة جسدها، ورضيت (بالصفقة) إذ بودل الجسد بالبصيرة الروحية..

كانت تصلى بشفتيها بينما قلبها المفعم حباً يلهج غبطة وسروراً. وخطر لها خاطر، أن تتمشى ولكنها عادت لتأمر نفسها بالهدوء فى موضعها، تنظر إلى السماء الملبدة بالغيوم القطنية والمخضبة بلون الدم، ثم تعود ليصطدم ناظريها بسور الدير العتيق وقد برزت بعض قطع منه هامة بالانفصال عنه، وقد بدت كشفاه ممطوطة وكأنها تتردّد تود الاستئذان قبلاً.

وعادت لتخفض بصرها نحو الأرض حيث لاحظت كومة صغيرة من الرمال ونملة تود الصعود عليها، وأمعنت النظر فإذا بالنملة كلما قاربت القمة فى صعودها عادت لتهوى من حيث بدأت.

ياربى يسوع المسيح ارحمنى أنا الخاطئة..

واستهوتها مراقبة النملة، وعادت لتؤنب نفسها بأن الذين ذاقوا الحب الإلهى تعلموا أن ينشغلوا بالله عما حولهم لا أن ينشغلوا عن الله بما حولهم.. ولكن أليست كل الخليقة تمجد الله؟ أليس الإنسان هو كاهن الخليقة يقدم التسبيح عنها للخالق.. أفما نردد فى كل صباح فى الهوس

الثالث «سبحى الرب أيتها الوحوش والتنانين والطيور وكل مايتحرك فى المياه..؟

آه.. ولكنى ضعيفة، ومبتدئة فى الحب الإلهى، احتاج أن أسبح أنا أولاً.. وأود أن أنهل من النبع الذى ارتوى منه قبلى الأبرار الذين سبقونى إلى المجد..

ياربى يسوع المسيح أعنى.. انى اسبحك ياربى يسوع المسيح..

ولكن مهلا.. انهم تعبوا سنوات وسنوات.. حفروا وعمقوا حتى وصلوا إلى هذا النبع، وماحفرهم وتعميقهم إلاّ الاتضاع الذى ادثرت به حياتهم..

ياربى..

من لى بهذا الحب.. ومن لى بهذا الاتضاع؟.. هل المحبة هى التى تقود إلى الاتضاع أم الاتضاع هو الذى يولد الحب؟.. قالت لى الأم.. أن المحبة هى فضيلة (أم) لها أولاد وبنات كثيرين أولهم اتضاع الفكر..

وانتبهت ماكرينا على وقع أقدام، فإذا باثنتين من الراهبات - هما الأم ميلانية والأم ثيؤدورة - تمران مقابلها.. كانتا كشبحين مرّا فى هدوء.. وهما فى سيرهما: لا عجرفة ولا انحلال..

ما أجمل حياة ملائكة الأرض..

ياربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنى أنا الخاطئة..

اعطنى أن أحبك وأفيض من محبتك على الذين هم حولى..

أبادلهم حباً بحب.. أزرع الحب فى كل مكان، حتى فى الأماكن المجدبة وأرويها بالصبر وطول الرجاء.. وتنميها أنت ياربى.. ويصبح الحب شجرة عظيمة وارفة فى ديرنا.. كما أراد ذلك وصلى لأجله كثيراً شفيع ديرنا البار بفنوتيوس..

وانتبهت مرة أخرى فإذا بالناقوس يدق يدعوهن إلى المائدة.. ولكنها عادت إلى خلوتها فهى لها تدبير خاص فى الأكل..

اننى محمومة ومريضة بحبك.. ما أجملك وما أروعك، من لى بقلب يستوعب كل هذا الحب.. يا إلهى .. إننى لا أحتمل كل هذا الحنو.. فلطالما أحسست بيدك تربت فى حنو فوق ظهرى.. وتسألنى أن أثق فى عنايتك ورفقتك..

ياربى يسوع المسيح أرحمنى
ياربى يسوع المسيح أعنى
أنا أسبحك ياربى يسوع المسيح

ورفعت يدها لتمسح بأناملها قطرات من الدموع تسللت من مقلتيها لتسيل فوق وجنيتها..

ما رأيتك يارب تغضب منى.. أو تعاقبنى .. بل تتعقبنى فى كل موضع لتسبغ علىّ نعمتك..

حتى فى الأوقات التى فيها كانت الغيرة من الأخت أفدوكية تكاد تنهش صدرى.. كنت تعزينى وتهمس فى أذنى قلبى قائلاً: أنا عريس نفسك.. أنا كل ماتريدينه..

متى يارب أشعر أنه لا هدف لى سواك؟.. ومتى تصبح أنت كل رغباتى مجتمعة معاً ؟

نعم ياربى يسوع المسيح.. اعطيت سروراً لقلبى أوفر من الذين كثرت حنطتهم وخمرهم وزيتهم..

ياربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنى أنا الخاطئة..

وجاء عصفور وحط على الشجيرة المقابلة لها.. وراح يصدح فى طفولة وطلاقة.. وكأنه يشاركها تسبيحها للرب القدوس.. هى تشكر وتطلب حباً يتأجج فى داخلها.. وهو يشكر للحياة.. والبهجة وهمّت أن تقف، وعندئذ تذكرت كومة الرمال والنملة المفعمة بالرجاء وانحنت لترى فوجدتها تصعد للمرة الأخيرة حيث استقرت فوق القمة تنظر هنا وهناك.

وخيل لماكرينا أن النملة لم تفرح بنصرتها على الرمال المفككة، ولكنها كانت تبحث عن شئ آخر، إن النملة كل حياتها عمل، وكل دقيقة لها ثمنها بالنسبة لها..

«دعنى من النمل والرمال الآن»

ياربى يسوع أعنى..

ثم وقفت وانتصبت قامتها، ومشت فى هدوء متجهة نحو.. لاشئ..

افدوكية.. افدوكية..

تلك الفتاة السمراء القصيرة.. كم كنت أكرهها.. وهى تصغرنى بثلاث سنوات.. كم كنت احقد عليها.. حاسدة إياها على محبة الأم الرئيسة وبقية الامهات لها .. وكم كنت أنظر إليها شذراً ولكنها مع كل ذلك كانت تقابل جفاوتى بقلب متسع ومحبة تخجلنى.

ياربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنى أنا الخاطئة.

ترى متى يارب أحب كل أحد ولا أكره شيئاً.. متى أصل بالحب إلى عدم كراهية أى كائن حتّى من كان خاطئاً بل أمنحه شيئا من الرثاء؟!

ثم تنهدت.. بينما المسبحة تدور بين أصابعها..

متى يصبح الكل أطهاراً فى عينىّ، لا أفحص أحداً ولا أحاكم أحداً بفكرى.. إن الحقيقة التى لا أريد أن أقبلها وأديم غضّ الطرف عنها هى أن الكل أفضل منى.. كذلك عندما يضيق صدرى بأحد فاللوم كل اللوم علىّ أنا وحدى.. أنا الخاطئة.. أنا الشريرة الديّانة..

إنى أسبحك ياربى يسوع المسيح

وجاءت قطة صغيرة بيضاء وقفزت إلى جوارها تبحث عن الدفء.. وراحت ماكرينا تمرر أصابعها عليها فى حنو بينما القطة جالسة تلعق فروها بلسانها..

أعاهدك ياربى منذ هذه اللحظة.. لا، بل.. اشتهى ياربى واتمنى منذ الآن أن أحب الكل تلك المحبة التى أحببتنا بها.. المحبة التى لاتطلب مالنفسها.. غير المغرضة.. أحب الكل لكى أتمتع أنا نفسى بحبك.. ثم أعطيه إنا لقريناتى فى هذه البرية.. لهذا جئت ياربى إلى أرضنا.. ولهذا جئت أنا أيضا إلى هذا الموضع لأمارس الحب وأتاجر به وأربح وأفرح.. لكنى خاطئة فتحنن على عبدتك..

ياربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنى أنا الخاطئة..

لاشئ لى هنا أشتهيه وليس هناك مايستهوينى..

ألم أعاهدك بهذا فى اليوم الأول لدخولى هذا الدير.. أننى أذكر

ذلك اليوم ولن انساه ماحييت.. يوم أن حاربت أنت عنى.. حاربت وإنتصرت لحسابى.. وتركت لى تلك النصرة رصيداً أسحب منه فيزداد يوماً بعد يوم..

أنا اسبحك ياربى يسوع المسيح..

+ + +

وتذكرت ماحدث منذ ثلاث سنوات..

فقد تقدم شاب لخطبتها وكان قريباً لها.. وفرحت أمها ومعها كل أفراد أسرتها.. وانتظر الجميع حتى عادت من خدمتها بالكنيسة، حيث زفت الأم إليها هذه البشرى ظانة أنها بذلك تدخل البهجة إلى قلبها.. وأما هى فبعد أن أطالت السمع لهم ، قالت فى وداعة أنها قد عقدت النية على أن تحيا بقية حياتها بالدير.. تعوض مافاتها من تقصير وتهب كل مالها للمسيح الذى أحياها وأسلم ذاته عنها.. وطال النقاش مابين حدة ولطف.. ووعد ووعيد، فلما نشرت أمامهم لواء الاصرار، صمتوا وقد بيّتوا فى أنفسهم أمراً !.

وفى صباح يوم ثلاثاء توجه الأب والأم ومعهما ذلك الشاب إلى الدير. فى ذلك اليوم استقبلتهم الأم سوتيريا ـ مدبرة الدير ـ بحفاوة .. ووقتها كانت ماكرينا تمضى بضعة أيام كخلوة بالدير..

وجمعتهم حجرة الاستقبال المتواضعة، وقال الأب مفتتحاً النقاش :

ـ نحن إنما جئنا إليك لكى تعيننا فى إقناع ماكرينا فى العدول عن رأيها.

الأم سوتيريا : ولم ؟

الشـاب : الزواج أنسب للفتـيات، ومـاكرينا إنسـانة فـاضلة سـتكون الزوجة الفاضلة والأم الحنون، المدبرة لبيتها حسناً.

الأم سوتيريا : الزواج يناسبها، ولكن خلاصـها هو القضيـة الأخطر وأخشى إن هى تزوجت رغماً عنها وعاشت فى العالم، أن تفقد خلاصـها.

الأم وقـد لاح فى عـينيـهـا التـحـدى والضـيق: أو تقـصـدين أن كل الزوجات لا خلاص لهن ؟

الأم سـوتيـريا فى بشـاشـة : عـفـوك.. لا أقـصـد ذلك.. وإنما لكلٍ رسالتـها فى هذه الحياة، فنحن نحـتـاج إلى الزوجـة والأم، وإلى الخادمة البتول وإلى الراهبة سجينة الحب فى مخدعها..

الأب مستفهما : ولكن ماكرينا فتاة حنونة فيها عاطفة الأمومة..

الأم سوتيريا : ومن قـال أن الراهبـات تجـردن من العاطفة؟.. بل إستطعن أن يوجهن عواطفهن.

الشـاب : ومـاكـرينا جـميلة يشـتـهـيـهـا أى شـاب، ومن الخـسـارة أن تتردّى فى هذا المجهل..

الأم سوتيريا : الزواج من أجل الجسد فقط، هو امتـهـان لهذا السر العظيم ولمعة الجمال تتحول إلى سآمة ودمامة مع الوقت، ومع ذلك فإذا كـانت لهـا رغبـة فى الزواج فإننى أوافق وأشجعـهـا، حينئذ هزت مـاكـرينا رأسها بالرفض هادئة.. وكانت تسمع صامتة طيلة هذا الوقت..

فـأردفت الأم قـائلة، دعـوها وشـأنهـا، ولاتحـزنون قلبـهـا، ثم وجـهـت الحديث إلى الشاب قـائلة: وأنت يا إبنى ثق أن الله سيرسل لك الفتاة التى تناسبك وتفرّح قلبك وتعينك فى حياتك، أما إذا كنت تحب مـاكرينا محبة

حقيقية روحية، فلتفرح بفرحها، ولاتدفعها إلى ما لا رغبة لها فيه.

الشاب : ولكن أليست هذه هى الأنانية بعينها؟ أن تسعى فتاة فى طلب سعادتها وحدها، بينما يمكنها أن تؤدى دوراً ايجابياً فى الحياة؟ إن الواجب فيما أرى أن نشترك معاً فى صنع نسيج الحياة لا أن ننسحب إلى هامشها..

الأم وقد تزرعت بالصبر: نعم يا إبنى فإننا أيضاً فى نسيج الحياة، نضيف إلى هذا النسيج لونا خاصاً وضرورياً يضفى جمالاً وبهجة على الرقعة كلها، حقيقى أننى أنا متكاسلة خاطئة، ولكن بقية الأمهات كزهور فى حديقة هذا العالم الواسع..

إن الرهبنة فيما أعتقد هى خط الدفاع الأول عن الكنيسة.. لها الدور الخفى، تحارب حرباً خفية غير منظورة..

والفتاة التى تسعى فى طلب العزلة عن العالم.. ليست أنانية كما يحلو لك أن تتهمها، **لأن الأنانى هو ذاك الذى يحب مالنفسه، وأما تلك فقد تركت مالنفسها** من محبة الزوج ومتعة الأطفال والراحة التى يوفرها لها ذلك الزوج، وخرجت تلتمس الغربة والجوع والوحدة..

الراهبة تصلى لأجل كل المتزوجات لكى تتحول البيوت إلى كنائس والقلوب إلى مذابح، ويجد الله موضعاً - فى كل منزل - يستريح فيه ويقول : هذا هو موضع راحتى..

ثم أردفت الأم الرئيسة تقول.. بينما بدأ الشاب وقد اعترته الدهشة وفغر فاه مشدوهاً وكله آذاناً صاغية :

وماذا عنك.. كيف ترى الحياة.. وماهو موقع المسيح بالنسبة لحياتك واهتماماتك ؟

وهز سؤالها أعماقه، وكأن الأم قد أصابت بسؤالها فيه عمقاً من أعماقه.. وراحت تحدثه عن الخلاص الثمين الذى أهداه الله إلى البشرية وكيفية التفاعل مع هذا الفداء الإلهى.. ثم عن محبة الله ثم محبة القريب..

وبهت الشاب.. واتخذت كلمات الأم موضعها فى قلبه، ولما كانت مائدة الأغابى قد أعدت.. قاموا وقامت معهم ماكرينا.. يتناولون طعامهم.. صامتين..

وبعد قليل غادروا الدير غير ناقمين ولا حاقدين.. قالوا لها ليكن لك ماتريدين، فقط تضرعى لأجلنا مع بقية الأمهات..

+ + +

يارب يسوع المسيح بن الله أرحمنى أنا الخاطئة..

أذكر أننى لم أنم فى تلك الليلة.. فلم يسع قلبى الفرحة ورحت أبكى من شدة العزاء.. وأنا أشكر مسيحى.. أشكرك ياربى يامن تهتم بخلاصى وحياتى..

ياربى..

واقتربت منها الأم أفدوكية فقامت لتقّبلها.. ثم يتجه اثنتيهما نحو قلاية الأم العجوز يوستينا يعودانها..

عند الغروب

زحف الظلام حثيثاً نحو الأرض، ولكنه أخفق فى أن يكسو الدير كله بلباسه الوقور، فقد انبثقت بعض أنوار خافتة عبر أسافل بعض الأبواب وشبابيك القلالى.. وبين الفينة والفينة، كانت تسمع بعض أصوات تشبه الأنين.. فمن كلمات ضمّخت بالدموع إلى تسبيح هادئ رزين.. إلى تلاوة لسفر من الأسفار.. وهذه هى العادة فى كل ليلة.. لا يفرغ الدير من التسبيح والصلاة.. وأما الساعة فقد حققت الدورة الأولى بعد منتصف الليل.

ولكن البواب ـ أعنى الراهب المكلف الاهتمام بالباب ـ كان النعاس قد داعب أجفانه فأسلم نفسه للنوم، ولم نظلمه ! وقد حرم من النوم خلال اليومين السابقين لتلك الليلة المباركة، فرقد منهك القوى..

وأما ناقوس الباب فقد صدر إليه أمراً.. فأخذ يدق ثلاث دقات.. ثم بعد فترة صمت عاد ليدق مرة أخرى ثلاث دقات، وانتبه الأب شيرامون، وجعل يفرك عينيه، ولكنه سرعان ماغاب عن الوعى، وعاد الناقوس.. وصوت أعقبه يناديه باسمه (يا أبونا شيرامون.. يا أبونا شيرامون).

وتقلّب البواب فى رقدته، وتعجّب ! فالصوت فيه عجلة، والناقوس مصرّ على تأدية واجبه، ونهض شيرامون فى غير تكاسل وقفز من فراشه وهو يرشم ذاته بعلامة الصليب، ويردد (خير.. كل الأشياء للخير.. ياربى يسوع اعطنى حكمة..).

ولما كان قد وصل إلى الباب أسفل قلايته سأل عن الطارق؟ فأجاب (أنا اورانيوس).

هنا وزال تعجب الأب شيرامون وذابت دهشته وسرت الطمأنينة فى قلبه.. وامتدت يده لتسحب المزلاج.

وأورانيوس هذا، راهب بلغ السادسة والأربعين من عمره.. يحيا حياة الوحدة فى مغارة على مقربة من الدير، وقد اعتاد المجئ إلى الدير بين وقت وآخر وفى جعبته خبر غريب أو سر خطير أو تحذير هام وكان الآباء ينظرون إليه نظرة حب ممزوج برهبة، كما اعتادوا منه المفاجآت التى يطرحها أمامهم كلما حضر إلى المجمع.

قال الأب شيرامون وهو يصافح أورانيوس ويقبله.. ويدعوه للدخول: (خير يا أبونا أورانيوس).

- لا لن أدخل فإنى فى عجلة، وسأعود حالاً إلى مغارتى، فقط أرجو أن تبلغ الأب بيشوى أنه سوف يتنيّح بعد غروب اليوم، واسأله أن يصلى عنى حينما يبلغ المجد العتيد أن يكون، ثم استأذن ومثل جندى ابلغ رسالة خاصة وقت الحرب، عاد أدراجه إلى محرابه..

وتقلص حاجبا شيرامون، وقذفت عيناه دموعاً، وتناول مزلاج الباب ليعيده إلى موضعه، ثم راح يبكى وهو لايدرى ألفراق أخيه المزمع أن يكون هذا اليوم أم لأنه لم يستحق بعد أن يمضى إلى أخوته الذين سبقوه !.. أم ماذا؟! (لا شئ.. لاشئ) هكذا تمتم وجفف دموعه وتحسس القلنصوة على رأسه، ثم تذكر أنه حافى القدمين، ولكنه لم يأبه لذلك.. واتجه لفوره نحو قلاية الأب بيشوى، واطمأن عندما رأى الضوء الخافت ينبعث فى خطوط متعامدة حول الباب والشباك، فوقف برهة يستجمع شيئاً من الشجاعة قبلما يصدر أمراً إلى أصابعه لتطرق الباب فى رقه -

ثلاث دقات يعقبها (أرى أغابى) أى إصنع محبة.

وانقطع الصوت الذى فى الداخل.. وخبا نور السراج، وتعوق الأب بيشوى قليلاً قبل أن يفتح الباب فى هدوء، متظاهراً بالنوم..

سلم أحدهما على الآخر وقبلا بعضهما البعض، ثم مال شيرامون على بيشوى قائلاً فى همس : أبشر وأفرح اليوم تمضى إلى العرس، وتلتحف بالمجد، ثم أردف قائلاً أنبأنى بذلك الطوباوى أورانيوس منذ دقائق، جاء خصيصاً من مغارته، ليخبرك أنك ستنتقل اليوم بعد الغروب.. ولم ينتظر جواباً بل قال : أتركك الآن، وسوف نجتمع عندك بعد القداس الإلهى.. لنصلى معك كيما يكمل فرحك.

+ + +

بيشوى.. بيشوى.. حان الوقت لتنصرف.. ابتهجى يانفس بيشوى وتهلل ياقلبه «هكذا بدا مسروراً».

وأول مافكر أن يعمله، هو أن يقف ليكمل صلاته فقال: أشكرك يا إلهى بكل مافىّ وتشكرك عنى حواسى.. من أجل دعوتك لى فى هذا الصباح المبارك، لكى أرتفع إلى جوارك.. مبارك هذا اليوم، مبارك مجيئك إلىّ ومبارك ذهابى إليك، وبعد أن كنت أبحث عنك فى وسائط مختلفة وأتردد على أماكن متعددة ليقوى احساسى بك فيها، اليوم أنطلق لأكون فيك ولاشئ آخر يجذبنى عنك، وأما جسدى هذا (وتحرك قليلاً فى مكانه كأنه يشير إليه) الذى ائتمنته على روحى التى هى نسمتك، فأرجو أن يكون أمامك سليماً طاهراً خلواً من النجاسة ودنس العالم.

اليوم أسلمك وديعته، ومنذ اليوم لا مرض ولا حزن قلب لا شهوات ولاشيطان.. ولا غضب يتحرك داخلى.. الآن أشعر أن سنى حياتى مرت كلحظات قصيرة.. شكراً ياروح الله القدوس.. هللّ ياكل مافى باطنى بالرب.. وبالنصرة التى يلبسك إياها الرب مخلص نفسى.

آه.. كم اشتقت إليك يا أبى انطونيوس ويا أبى موسى.. ويا سحابة الشهود جميعاً.

ثم قرر أن يخلى القلاية من محتوياتها، ثم عاد وانتبه إلى أنها خالية إلا من الحصير الذى ينام عليه والبطانية التى يتغطى بها وسبعة كتب مقدسة وضعت بعناية فى طاقة بالحائط البحرى لقلايته، وأما الطبق الذى يأكل فيه فقد كان يضعه خارج القلاية.. يُدخله كلما أراد أن يأكل.. هكذا تعود منذ جاء للدير..

ثم راح يمشى هنا وهناك فى قلايته الضيقة يكاد يرقص طرباً.. وجاءه فكر أن يخرج من القلاية ويتبارك من الآباء، ولكن الوقت كان غير مناسب، إذ لم يكن ناقوس نصف الليل قد دق بعد. ومع ذلك خرج.. ولكن إلى الطافوس مضى، ووصل إليه وراح يقبّل الحائط، وطفرت الدموع من عينيه أنها دموع الفرح فعما قريب يفك أسره بعد أن عاش يرقِب هذه الساعة.. متذكراً قول مار اسحق السريانى «التاجر عينه نحو البر والراهب يرمق ساعة الموت»، وتذكر الأب شيشاى ـ آخر راهب تنيح منذ خمسة شهور ـ وقال هامساً (أنا جاى لك يابونا شيشاى).

وأدار ظهره للطافوس واتجه نحو الكنيسة، ولم يستطع أن يمسك

نفسه من الفرح، فراح يرتل لحن القيامة - اخرستوس آنستى - بصوت أجش فيه حشرجة ودموع.

ودق ناقوس تسبحة نصف الليل، وخيل إليه أنه الناقوس الذى سيقرعه عصر اليوم على باب الفردوس فيفتح له الملاك.. ويأخذه من يده إلى صفوف المنتصرين فى الداخل!

وتوافد الآباء وحداناً على الكنيسة، حتى اكتظ بهم الخورس الثانى، وراح بيشوى يحملق فى وجوههم واحداً فواحداً، دون أن يجذب أنظارهم إليه، ثم وقف هادئاً يصلى ويسبح معهم.. ولمح الأب شيرامون يقف إلى جواره..

فما انتهى القداس الإلهى.. حتى خرج الآباء من الكنيسة وقد انتشر الخبر بينهم أن الأب بيشوى جاءه الوقت لينطلق، فتبعوه إلى قلايته..

هذه هى المرة الأخيرة التى فيها يتحدثون إليه ويستمعون إليه، يملأون أعينهم من منظره الملائكى ويوصونه بوصايا متعددة غريبة.

وبيشوى منطلق الأسارير.. يحس بتعزية قوية تسرى فى كيانه ومع أنه قد عرف عنه أنه قليل الكلام، فقد تكلم كثيراً فى ذلك اليوم. وقد ضمّن أحاديثه إليهم طلبة: أن يبتهلوا إلى الرب كيما يقبله إليه متغاضياً عن هفواته وسقطاته.

وسأله أحد الآباء كلمة منفعة، فقال له.. نعم لن أحجم عن ذلك وأنا ماض إلى مشتهاى.. فقد عشت حياتى كلها وأنا أعرف أن المسيح منتظرنى فى السماء، لكى يفرح معى وأفرح معه، ويعوضنى عن كل ماكابدته فى زمان غربتى، وكنت أقول لنفسى: من العبث والجهل أن

انشغل بأمور أخرى حولى، بينما السيد المسيح يرنو إلىّ من سمائه بشوق وحب، كنت كلما وقفت لأصلى أقول له: نعم ياربى.. ولى نفس الشوق ونفس اللهفة، ولتكن لا إرادتى بل إرادتك..

وأما فيما يتعلق بسقطاتى وخطاياى، فقد كان الرجاء المفعم به قلبى يدفعنى إلى اصلاح مافسد، دون أن يضيع وقتى فى التنهد واليأس.

+ + +

وكانت الساعة حينئذ قد قاربت الثالثة بعد الظهر، حين لم يستطع أحد الآباء إمساك دموعه فسالت منهمرة، وتبعه فى ذلك آخرون، وسادت فترة صمت قطعها الأب بوليكاربوس داعياً إلى الصلاة والتسبيح.. سبحوا بقوة وتهليل كما لم يسبحوا من قبل وارتفعت الطلبات والتنهدات، والكل يأمل فى أن يحظى قريباً باللحاق بالأب بيشوى..

ولما انتهوا.. أشار الأب افلوجيوس إلى الآباء، فخرجوا وبقى هو وحده معه ليسمع منه آخر اعترافاته ويصلى له صلاة التحليل، ويقبله مراراً، ثم يتركونه ويخرجون على أن يعودوا إليه بعد قليل..

وعلى بعد سمعت فى قلاية بيشوى أصوات قبيحة وشتائم وصراخ.. كانت على مايبدو محاولة من الشيطان لافساد فرحته بالانطلاق بعد أن هزم وأفلت بيشوى من يده.

وبعد أن انتهى الآباء من صلاة الغروب، مضوا جميعاً إلى قلاية المغبوط ليجدوه قد رقد ووجهه نحو الشرق وقد ابتسم ابتسامة حلوة ويديه على مثل الصليب..

وشوهدت حمامة بيضاء تحوم فى الدير.. واختفت لتظهر.. بين آن وآخر قرب المكان الذى كان يسكن فيه بيشوى.

كان يوماً مشهوداً .. فرح.. وفرصة للتأمل.. ووقفة مع النفس.

هذه الواقعة جرت فى أوائل هذا القرن مع أحد الآباء الطوباويين الذين عاشوا فى هذا الدير سردناها بتصرّف فى أسلوب قصصى.

نعم حرب يا راهب

اسمه موسى

موسى المسعودى

أو موسى البرموسى

عشق الحياة النسكية منذ كان صغيراً، وروت له أمه الكثير من قصص الآباء المجاهدين ونوادرهم داخل الأديرة وصراعاتهم مع الشياطين، وظهور الملائكة لكثيرين منهم.

وأحب الرهبنة والرهبان، وحالما كان ينزل راهباً لأى أمر فى قريته، ينطلق فى إثره، يلازمه مثل ظله ويرقب كلماته وتعليقاته وتصرفاته، ويسجلها على صفحة عقله، بفخر وإعجاب وسرور لايقدر على إخفائه.

وكان ينتظر بصبر فارغ، ذلك اليوم الذى فيه ينطلق من بيته إلى الدير، ولعله سمع أيضا فى ذلك الوقت عن القمص عبد المسيح المسعودى الكبير الذى ترهب بالدير المحرق وانتقل بعد ذلك ليحيا فى دير البرموس، وكان يعتبر كل يوم له فى العالم - بعيداً عن الدير - هو يوم ضائع !، إلى أن استطاع أخيراً أن يفلت من قبضة عاطفة أمه واخوته، حيث سمحوا له بأن يحقق مايصبو إليه، فانطلق إلى برية شيهيت، وعرج هناك على دير البرموس..

بدأ مطيعاً فى كل شئ ولكل أحد، عاش صغيراً يتعلم من الذين حوله، وتنقّل بين أعمال متعددة فى الدير، واقتنى فضائلاً كثيرة، وتتلمذ على آباء مباركين كثيرين، وأما الشئ الذى برع فيه فهو محبته الفائقة

للصلاة، فقد كان يقضى فيها من الوقت أكثر مما يقضى فى أى شئ آخر، كان يصلى بنهم وبلا حدود، وتجاوز قانونه الرهبانى إلى مافوق بكثير جداً، ودرب نفسه على صلب الجسد فى الصلاة، بل أسر مرة إلى أحد الآباء بأنه يشعر بوقوف المسيح معه حالما يقف ليصلى.

وفشل الملل فى الوصول إليه، وعندما لحق به، أخفق فى الحرب معه، فقد كان يصلى مرةِ وهو راكع على ركبتيه ويداه مبسوطتان لأعلى، ودفعة أخرى وهو منتصب القامة ويداه مضمومتان نحو صدره، ودفعة ثالثة وهو مغمض العينين هامساً، ورابعة وهو يصلى مرتلاً بصوت أعلى قليلاً.

كان ينسى كل شئ وهو واقف على مذبح الصلاة، كانت الحضرة الإلهية تسبيه لدرجة أنه لايشعر بقدميه تلامسان الحصير الواقف فوقه، وإذا ناداه مناد من الخارج فما كان يسمعه، كذلك إذا طرق بابه طارق، شعر وكأنه فى حلم..

ويمضى الوقت، ويزداد وجهه إشراقاً وملائكية، ويزداد شغفه بالصلاة، ولزم قلايته، فصار نادراً مايرى فى الخارج، لدرجة أن الآباء عندما كانوا يعرضون عليه الخروج للاشتراك فى عمل ما، كان يعتذر، متعللاً بأن الصلاة لذيذة وحلوة وفيها كفاية عن كل شئ، وما كان ليقول ذلك تباهياً وإنما فى براءة كمن يتحدث مع نفسه.

وكثيراً ما انشغل عنهم بالصلاة، وهم يعملون معاً، دون قصد منه ويعود ليتظاهر بميله إلى النوم.

واحترم كل الآباء مشاعره، ولكن أبوه الروحى كان يرقب هذه التطورات فى حذر، وبين آن وآخر كان يلفت نظر الأب موسى إلى ضرورة الاعتدال.

وجدير بالذكر أن المسئولية تنتقل من المعترف إلى أب الاعتراف إذا توافر شرطين أساسيين :

أولهما : أن يصارح أب اعترافه فى كل شئ ولايخفى عنه شيئاً.

وثانيهما : أن يطيعه فى كل شئ.

ولكن وكما هو معروف فإن الاعتراف يُقبل ولاينتزع !.

وحدث فى سهرة الأحد الثانى من شهر كيهك، أن لاحظ الآباء أن الأب موسى غير موجود بالكنيسة، الأمر الذى يعد خروجاً عن المألوف، فإن الآباء جميعاً اعتادوا حضور سهرات شهر كيهك وأسبوع البصخة معاً، بمن فيهم أولئك الذين لهم تدبير خاص والمتوحدون.

وقام ليلتها القمص مينا المحلاّوى رئيس الدير، ليفتقده فى قلايته.. وفوجئ عندما اقترب منها، بأصوات غريبة صادرة منها، شئ يجمع بين القبح والهمس، وبدلاً من أن يطرق الباب، أصاغ السمع وما أشد دهشته حين أحس بأصوات تشبه فحيح الأفاعى . وتقزز الأب مينا واستاء وأيقن أن هذا ماهو إلا (نذير شؤم) ولم يحاول أن يفسر مايسمع أو يحلل مايحدث، وإنما عاد أدراجه إلى الكنيسة، ساهماً شارداً، يحس بضيق وعدم ارتياح، وعاد مرة أخرى قرب انتهاء السهرة، دون أن يلحظه أحد، إلى قلاية موسى، وأرهف أذنيه، ولكنه سمع صلاته وكأنه يزغرد، وتعجب وحفظ الأمر فى قلبه.

وفى الصباح قابله يمشى كعادته، بطيئاً بملابسه المتهرئة، ونعليه المرتقين، يهتز جسمه النحيف، وسأله لماذا لم يأت إلى الكنيسة البارحة ليصلى ويسبح مع إخوته ؟ فاعتذر فى أدب راهب بأنه كان يشعر ببعض التعب، ولم يتخلص منه إلا عندما دق الناقوس يعلن بدء رفع بخور باكر، وأنه حرم بركة المجمع (يقصد إخوته) ثم قال وهو يحك فى لحيته :

- بإذن المسيح السبت القادم..

ولم يعلق الأب مينا، على الرغم من أن الشك كان ينهش صدره والخوف يؤرقه تجاه هذا الأب، ومضى من فوره إلى القمص سمعان يسر له بمخاوفه، ويلتمس منه التدخل لانقاذ ابنه.

كان الأمر يبدو طبيعياً، أن راهباً يصلى ويحب الصلاة، ويقضى معها أغلب وقته، كما يفعل الأب موسى فينسى طعامه، ويتهرب من العمل مع اخوته، ويصلى بطريقة مطولة، ملحناً الكلمات فى بطء غلب المألوف والعادة..

بل أن كثيراً من الآباء تبكتوا من ضمائرهم بسبب المقارنة التى يعقدونها فيما بينهم وبين هذا الأب، وأصيب بعضهم من المبتدئين بصغر النفس.

ولكن الذين جاهدوا وغلبوا فى الحياة الروحية، ودخلوا فى حرب مع الشياطين ، وغلب المسيح لحسابهم، وأصبحوا لايجهلون حيل المحتال - بعد أن تمرّسوا فى البرية بالحنكة والخبرة - هؤلاء أطلقوا صفير الإنذار ، وأضاءوا النور الأحمر.

وشهدت ليلة السابع عشر من شهر كيهك، حديثاً مطولاً بين الأب موسى وأبيه الروحى القمص سمعان، تخلله خلاف غير حاد لم يلبث أن تحول حالاً إلى عتاب ثم وعد بالاعتدال.

فى تلك الليلة قال له أبوه الروحى فيما قال :

- اتفقت معك على أن تصلى صلاة باكر، ونصف الليل فقط، ثم تحفظ فكرك نقياً بقية الوقت، وهذا يكفى.

- ولكنى أحب أن أصلى أكثر فما الضرر من ذلك.

- الضرر ليس فى الصلاة، وإنما هو فى عدم طاعتك.

- أنا كسرت الطاعة لكى أصلى.

- الخوف لئلا تكون صلاتك لأجل الصلاة فقط.

- لا أفهم..

- أخشى أن تكون صلاتك، بدافع أن تكون راهباً مصلياً يرضى غروره فحسب، بأنه وصل إلى مرتبة عالية فى الصلاة، ومعروف أن الصلاة هى حب وانسحاق، وتوبة.

- هذا صحيح، وهكذا أؤمن ولم نختلف.

- لو كان إيمانك هو هذا، لما حزنت وغضبت عندما نصحتك بتعديل تدبيرك فى الصلاة..

- ولكن ما رأى قدسك فى أننى أسمع أصواتاً مشجعة، فى بعض الأوقات ؟

- مبارك، ولكن قد لاتكون أصواتاً إلهية بالضرورة فى كل مرة.

– كما إنى أشعر بتعزية فى الصلاة.. الصلاة بكثرة على وجه الخصوص.

– ربما لاتكون تعزية، ولكنها شعور بالرضا عن النفس، ومن يعمل هواه فقد أفسح للشيطان ـ شيطان السبح الباطل ـ مكاناً معه، وأما من يخضع لتدبير أبيه الروحى، فهذا قد أثمر ثمرة الاتضاع الشهية.

– سأحاول .. ولكن تذكر قدسك أننى على مضض أطيعك.

– تذكر يا إبنى أن الطريق الوسطى خلصت كثيرين.

– اغفر لى وحاللنى، فالطريق طويل وشاق وأنا معدوم الخبرة، ليّن العظام.

وصلى له صلاة التحليل، وخرج وهو يبتهل إلى الله فى أمره لكى يرفع عنه الحرب التى أعلنها الشيطان، وكان يشعر أن عدو الخير قد التقطه ، عندما وجده كغنمة شاردة عن القطيع.

وأما موسى فقد عادت الأفكار لتقلقه، وعادت الشياطين لتهجس فى فكره، أن أبيه الروحى ماقال له ذلك ، إلا لغيرته منه، لأنه لم يصل إلى ماوصل إليه هو.. وعاد يقول لنفسه محتجاً :

– من أوصى بألا نصلى، وبدلاً من أن نتقدم فى الصلاة، نعود القهقرى ونقلل مانصليه ؟

ثم لوى شفتيه عجباً !

وبعد عامين انتقل ليسكن فى قلاية أخرى، بأمر من رئيس الدير ، لعل الحرب تهدأ، ولم تهدأ الحرب، ولم يعتدل موسى فى سلوكه، بل لاحظ الكل إنعزاله المرضى عنهم، ولم يعد يظهر مطلقاً فى ساحة الدير،

ولم يرُ إلا ليأخذ قليلاً من الخبز أو البقول أو ليملأ زلعته العتيقة المكسورة ، يحملها وهو يمشى على مهل، بينما يطفح وجهه سروراً وزهواً وعيناه تقولان لكل من يقابله : (أين أنت منى يامسكين) .

وبكى أبوه، وقصد قلايته مرة أخرى..

وفى هذه المرة ، سجد أمامه وحاول تقبيل قدميه، وتوسل إليه أن يترك قلايته ويأتى ليسكن معه لفترة، ولكن موسى صمت طويلاً حتى هدأ أبوه، ثم قال كمن ضاق بكتمان سر خطير:

– أتعلم يا أبى أن ملائكة قد جاءوا إلىّ وباركونى ؟

– وماذا أيضاً يامسكين ؟

– باركونى فحسب.. وأضاءوا الموضع حولى، وشجعونى بكلمات كثيرة.

– كم مرة حضروا إليك ؟

– ثمانى أو تسع مرات .

– ألم يقولوا لك شيئاً ؟ شيئاً غير عادى؟

– لا، لم يقولوا.. فقط كانت مناظرهم مبهجة.. وكلماتهم معزية..

وزفر الأب سمعان زفرة محرقة، وهو منكس الرأس تحمله راحتيه، وبعد فترة من الصمت قال فى مرارة :

– أرجوك إذا حدث ذلك مرة أخرى فأخبرنى أولاً بأول..

وشوهد ذات مرة، وهو أت من ناحية الهوكارية (قرية قريبة من الدير) وفى يده كيساً به دجاجة مذبوحة.. ثم دخل إلى قلايته، وأعدها

هناك مع شئ من الطبيخ، وخرج من القلاية ليدعو إليه بعض الآباء، فأتوا وأكلوا معه، وصنع لهم أقداحاً من الشاى، وتكلم معهم بافراط على غير عادته فى الفترة الأخيرة.

وانتهزوا هم هذه الفرصة، وحاولوا أن يناقشوه ، ويتناولون حالته وطفراته بالحديث، ولكن تهرب من ذلك، فلما ضيقوا عليه الخناق، استأذن منهم وخرج من القلاية، ولم يرجع إليها إلا فى اليوم التالى، حيث كان كل منهم قد عاد إلى قلايته.

ولكن الأب هدرا، وهو من القريبين منه، اقتحم هذا السياج الذى ضربه موسى حول نفسه، ودار بينهم - ذات ليلة - الحديث التالى :

قال الأب هدرا : لعلك تصلى لأجلى، فأنا محتاج إلى طلبات ودموع كثيرة فى هذه الأيام.

أجاب الأب موسى : الرب يعيننا جميعاً ، صدقنى ليس أفضل من الصلاة، فهى الطريق إلى الله، وهى السلام.. وهى عربون الأبد.

- نعم.. ولكنى ضعيف، وبالكاد أصلى متمماً تدبيرى، أتعلم ماذا قال لى أبى الروحى ؟

- ماذا قال ...؟

- قال.. متى كنت فى قلايتك، وطرق بابك طارق فاترك ماتعمله وحتى إذا كنت تصلى، وافتح له واستقبله ، واقضى له حاجته، ثم عد بعد ذلك إلى ماكنت عليه..

- هراء..

نعم، فما حسبهم يقولون لنا ذلك، إلا لحرصهم على إتمام أعمال

الدير، من بناء إلى عجن وخبز وطحن وزراعة واستقبال الضيوف وغيرها، تلك التى هى خدعة من الشيطان لكى يلهينا عن الصلاة.

(ثم بإنفعال، ويدين تطوحان فى الهواء)

– كل المسئولين يسلكون هكذا، لهم نفس المنهج، لايتحدثون إلا عن الطاعة، إن اللاهوت الذى يدرسونه ويدرّسونه هو لاهوت السلطة !، طاعة عمياء، يريدوننا آلات فى أيديهم..

– مهلك يا أخى وعفوك، هم يعملون لأجل منفعتنا، ويعلمون أننا نحتاج إلى تعليم ، ويخافون علينا من الضربات اليمينية ، ويودّون أن تسير الأمور رويداً رويداً، يخشون من الطفرات ، ويؤمنون بالكيفية لا الكمية..

– هراء .. كذب وخداع ..

ربما لاتعلم، كيف يود أبى أن يكبلنى ويحد من انطلاقى، لغيرته منى، نعم محض غيرة، وقلب مفعم بالحقد.. ولكن لابأس، فالله نظر إلى صبرى، وشجعنى، وأعلن لى ذلك مراراً.

وبدا للأب هدرا أن الأب موسى مسبى بهذا الفكر فعاد ليقول له :

– إن الطاعة أفضل من الذبيحة، والاستماع أفضل من لحم الكباش، وأن التلميذ بطاعته يصير أفضل من معلمه.

ولكن موسى عزف عن الإذعان ، ورفض أية مشورة ، إلا تلك التى تأتى على هواه، وتختم على رغباته..

وعرض الأب هدرا على الأب موسى أن يستأذن رئيس الدير، فى

أن يأتى ليعمل معه فى الزراعة، ولكن موسى اعتذر بأنه يتعثر فى العمل مع الآخرين.

وتركه الأب هدرا وهو مكسور الخاطر، يطلب سراً إلى الله أن يعتق أخاه المسبى.

وفى الفترة التى أعقبت هذا ، قلّ خروج الأب موسى من القلاية، أكثر من ذى قبل.

واعتاد آباء من أديرة أخرى المجئ إلى الدير للسؤال عنه، فقد أشيع أن أصابعه تضئ، وبأنه يقف معلقاً، أى لاتلامس قدماه الأرض، وبأنه يختفى كثيراً من قلايته ومن الدير، فهو سائح، وبأن قلايته اختفت ذات مرة بجملتها من الدير ثم عادت مرة أخرى إلى موضعها.. و... و....

وبدا هو مكفهر الوجه، منحنى القامة، جاداً فى أحاديثه القليلة جداً، وكأنه يحمل فوق كاهله مصائب الشرق والغرب إلى أن كانت ليلة..

حين جاءته الملائكة، الذين حكى لأبيه عنهم، جاءوا بعد أن صلى صلاة نصف الليل، فى الساعة الثانية والربع صباحاً، ومدحوه بكلام كثير، ثم كمن يزفوا إليه بشرى رضا السماء عنه، قالوا :

إن الله أمر بمكافأتك لأجل جهادك وتعبك وسهرك وصبرك، أكثر من كل المجاهدين، وذلك بنفس الطريقة التى أخذ بها إيليا النبى..

وفغر موسى فاه دهشةً، وهو لايصدق من هول المفاجأة فعادوا يؤكدون له ذلك، وبأنه يستحق كل هذا المجد، وبأنه سوف يصل إلى بيعة الأبكار.

ثم بلهجة هامسة محذره وبصوت مملوء بالمكر :

ولكن إحذر أن تخبر أباك بذلك، فإنه لن يصدقك لكونه لم يصل

إلى قامتك وقداستك، وإذا سمع منك ماسمعته الآن فإنه يمنعك، وتحرم أنت من تلك المكافأة، وهذا الشرف، وقد تحاربك الشياطين ، ويسقطونك عن رتبتك، ويتطرق التوانى - بعد ذلك - إلى قلبك ، فتفقد إكليلك..

فقال بسرعة :

لا.. لا يقلقكم هذا الأمر.

فأكملوا حديثهم قائلين :

بعد غد، وفى منتصف الليل حوالى الساعة الواحدة من صباح السبت: وبعد أن تصلى طويلاً كعادتك، إصعد إلى السور البحرى للدير وفى الركن الشرقى منه، ثم انتظرنا هناك حيث نجئ إليك بالمركبة فتأخذك إلى المجد.

وإحذر أن تخبر أحد كما قلنا لك.

ثم اختفوا كما جاءوا...

واهتزت الدنيا أمام عينيه، ومادت الأرض تحت قدميه، وراح فى غيبوبة لدقائق، وأفاق.. لايدرى ماذا يصنع ؟ هل يفرح؟.. أم يبكى..؟ هل هو موت، أم ارتفاع إلى المجد حقاً ؟..

هل يقول لأبيه أم لا ؟

ولكن لماذا يتحير، ولماذا يقول لأبيه.. وأبوه لن يفهمه ! بل سيحاول إعاقته..

ثم كيف يعصى أمراً إلهياً ؟ وكيف يتشكك تجاه ما يشتهى البشر قاطبة فى الحصول عليه والفوز به..

ولم ينم تلك الليلة

وطيلة النهـار التـالى لهـا.. لم يـأكل. بل لم يصلّ ! ولماذا يصلى! والصلاة للمبتدئين فقط فى الطريق الروحى، وأما هو فقد وصل إلى أن دعاه الله إليه بكيفية لم تحدث قبلاً إلا لواحد فقط ، هو القوى فى الأنبياء، ايليا التشبى.

يا لها من كرامة..

كم كانوا يحتقروننى ويؤنبوننى، ولكنى صمدت وكافحت وثابرت، وأخيراً كلل الله جهادى..

ثم نقر بأصبعه على باب القلاية من الداخل.. وهو يغمغم مسروراً كمن يغنى

فاى بى بى إيهوؤو(*) فاى بى بى إيهوؤو

ولم يعلم المسكين، أنه كانت هناك طغمة شريرة، تردد بأصوات قبيحة، وفى نفس اللحظة.. نفس الأغنية ولكن فى موضع آخر..

فاى بى بى إيهوؤو فاى بى بى إيهوؤو

هو فى حالة طرب بلا وعى..

وهم فى وعى كامل.. وفى شماتة، وعلى أبواب نصر أكيد.

+ + +

كانت ليلة ليلاء ، قارسة البرد، شديدة العواصف.. مظلمة الصفحة.

فى تلك الساعة كان ثلاثة من الرهبان يحضرّون عجينة القربان ، فى بيت لحم استعداداً للقداس، بمناسبة أحد أعياد القديسين.

(*) أى هذا هو اليوم .. وهى آية فى المزمور المائة والسابع عشر .

وفى حوالى الواحدة والنصف من صباح هذا السبت، سمعوا صوت إرتطام شديد، أعقبه صرخات عظيمة تفتت الكبد، ثم فى لحظات هدأ كل شئ..

وانتفض الآباء من مكانهم، وهم يرشمون ذواتهم بعلامة الصليب المقدسة، ويصلون صلوات سريعة قصيرة، وما عسى أن يكون الأمر؛ واتجهوا حيث كان مصدر الصوت وفى طريقهم إلى الباب البحرى للدير، سمعوا أصوات قهقهة قبيحة.. عالية ومقززة مالبثت أن خفقت، ثم عادت لتعلو من جديد بنفس القبح، ثم تلاشت تماماً بعد ذلك وصار هدوء.

وما أن فتح الآباء الثلاثة الباب وخرجوا، حتى سمعوا أنيناً خافتاً متقطعاً، عرفوا مصدره.. جثة راهب متكومة غارقة فى بقعة كبيرة من الدم، وأشعلوا أعواد الثقاب، فندت عنهم صرخة، شقت سكون الليل.

أنه الأب موسى

وفى لمح البصر، تعاون ثلاثتهم.. وحملوه مثل الميت.. إلى داخل الدير، وقد لحقهم رهط من الرهبان، كانوا يصلون ساهرين فى قلاليهم، حين سمعوا الصراخ فجاءوا..

وذهبوا به إلى قلايته.. ولحقهم هناك الأب مكارى - وله دراية بالطب - وراح يمر بأصابعه على جسمه، واكتشف كسوراً مضاعفة فى اليدين والساقين.. والضلوع.. واشتباه فى نزيف داخلى وارتجاج بالمخ..

وأسرع يعمل له (جبيرة) فى مواضع الكسور.. وأراحوه على لوحة كبيرة من الخشب، وسقوه - بصعوبة بالغة - كوباً من عصير الليمون..

وأفاق قليلاً ليئن أنيناً يقطع نياط القلوب.. ما لبث هذا الأنين أن تحوّل إلى صراخ..

وتجمع باقى الآباء حوله.. وخارج قلايته، وهم يتساءلون عما حدث..

وجاء القمص مينا رئيس الدير، وطلب إلى الآباء - فى لطف وتوسل - أن يتركوه ليستريح، على أن يقيموا صلوات لأجله ثم جلس هو واثنين آخرين منهم الأب مكارى، يخففون عنه، ويرشون وجهه بالماء، ويبدلون من وضعه على الفراش.. وهو لايكف عن أنينه..

ولم يلبث أن راح فى غنيبوية

وجلس الآباء حوله، تلّفهم الدهشة، ويعتصرهم الألم والقلق عليه، وخرجت حيرتهم فى أسئلة وجهوها بعضهم لبعض.. ولكن لا أحد منهم يملك الاجابة.. ورفعوا قلوبهم بالصلاة..

وعاد موسى من غفلته، وراح يئن.. ولكنه مع الأنين طلب السماح والحل من كل الآباء، وهم بدورهم طمأنوه، وقال : أخطأت ولم أذعن لتحذير أبى، وانسقت لغواية الشيطان.. خدعونى..

واختنقت عبراته، وحاول أن يبكى، ولكنه لم يستطع ، وتحول البكاء إلى أنين موجع مرة أخرى، وصرخات خافته متقطعة، والآباء يهوّنون عليه ويطلبون له الحل والغفران من الله.

وجاء الأب سمعان مسرعاً منزعجاً، ثم بكى وأخفى وجهه بكلتا يديه، ولكن موسى لم يكن يراه أو يسمعه فقد راح مرة أخرى فى غيبوبة.

وزهاء ذلك النهار تأرجحت حالة الأب موسى، مابين يقظة يقضيها فى الصراخ والأنين وطلب السماح والحل من الآباء، وغفلة يغيب فيها عن كل ماحوله.. وكل من حوله..

فى اليوم التالى، ازداد الألم.. والأنين والصراخ .. رغم كل

المسكّنات التى أعطيت له.. ورغم مايعرف عنه، من احتماله الشديد..

كان واضحاً أنه فى ساعاته الأخيرة .

وجاءت القافلة(*)، وربضت الجمال الخمسة عشر أمام نفس الباب الذى سقط الأب أمامه، ولم يلتفت إليها أحد من الرهبان، ولم يهتموا بأن يدخلون ماتحمله من مؤن انتظروها شهراً كاملاً، حتى الجمالون أنفسهم ، قد سرت القشعريرة فى ابدانهم عند سماعهم ماحدث..

وعند الظهر أشار الأب موسى بيده للآباء، فخرجوا وتركوه مع الأب سمعان، وحكى له ماحدث ، بكلمات متقطعة وبطريقة مؤثرة أبكت أباه، ودخل أحد الأباء فى تلك الأثناء، يحمل طعاماً وشراباً أعدّوه له، ولكنه لم يستطع أن يأكل أو يشرب.. وخرج الأب مرة أخرى.

وعاد موسى يكمل.. وفى النهاية صلى له الأب سمعان صلاة التحليل وشجعه وطمأنه وشكرا الله الذى وهب له فرصة يقدم توبة..

وعند الغروب كان كل جسمه قد تورم، وإسود لون وجهه، وانقطع عن الكلام، ولكنه بين آن وآخر كان يفتح عينيه يطلب بهما السماح فى توسل، ثم راح فى غيبوبة استمرت حتى مطلع فجر اليوم الثالث..

ولم يستطع الآباء أن يحملوه إلى أى مستشفى لئلا يموت فى الطريق من عناء السفر.. ولما أحس القمص مينا بقرب النهاية، دعا كل الأباء ليتباركوا منه.. ويصلون لأجله، وصلوا جميعاً فى قلايته صلاة الشكر، أعقبها طلبة طويلة مؤثرة لأحد الشيوخ جعلتهم يبكون، ثم قبلوه

(*) القافلة هى مجموعة من الجمالين يرأسهم أحد الأراخنة يأتون بجمالهم ما يحتاجه الدير والآباء ، وذلك مرة كل أسبوعين ، وكانت هذه الطريقة هى المتبعة فى الأديرة حتى أواخر الستينات .

جميعاً واحداً واحداً.. ومضوا إلى قلاليهم..

وماهى إلا ساعة ونصف أى حوالى التاسعة والنصف حتى شق سكون البرية صوت الناقوص يعلن انتقاله..

+ + +

وعلى السلم المؤدى إلى الكنيسة الأثرية فى الدير، جلس الأب مينا مع الأب سمعان يستمع منه إلى ماحدث.. قال الأب سمعان :

قالوا له - أعداء البر والخير - سنأتى إليك من فوق، وتنتظرنا على السور - بجوار المطعمة - وفى الوقت المحدد، وكان المسكين فى انتظارهم، سمع أصوات رعد وعواصف وبرق يظهر ويختفى، ثم خيالات كثيرة، وأصوات مختلفة، وخيل إليه أن المركبة قد جاءت، كبيرة وسريعة، يطير بها أربعة خيول من نار، ثم اصبحت ملاصقة للسور، وسمع هو من يقول له : تقدم.. اخطو نحو المركبة..

وأذعن للصوت، ورفع قدمه اليمنى ليخطو نحو المركبة، فإذا بقدمه تزل، وينزلق من فوق السور، ويتلاشى كل شئ، بينما هوى كحجر عظيم على الأرض من ارتفاع تسعة أمتار، وسمع بنفسه قهقهتهم وسخريتهم، بينما هو يصرخ من الألم.

ثم قال الأب سمعان مستطرداً :

نعم لقد اعترف بكل شئ.. وكشف كل أفكاره، ولعل الرب لم يسمح بأن يضيع تعبه وجهاده.. وقد ترك له فرصة يقدم فيها توبة لئلا يفقد أبديته..

وأمّا الأب فليمون، وكان رجلاً باراً تصرخ حياته قداسة وشهادة حية للرب، طوال أيام حياته فى الدير. قد خرج من بعد عدة أيام ليجلس على احدى المصطبتين أمام الباب.

وحدث نحو منتصف الليل، أن سمع صوت جلبة وضوضاء آتية نحو الدير ، وإذا بطغمة من الشياطين، قبيحة المنظر، أتت لتتفقد الموضع الذى هزموا فيه الأب موسى. وفى نفس التوقيت.

وكأنّ الأب قد جاء خصيصاً لهذا الغرض! ، إذ ما أن اقتربوا من الباب، حتى صرخ فيهم باسم الرب أن لايتحركوا من أماكنهم فتسمّروا فى مواضعهم وراح يصلى بصوت عال، بزكاوة قلب، وقداسة سريرة، وبدالة شديدة لدى الله.

وصرخت الشياطين، ولكنه لم يأبه بهم، وازداد عويلهم وصراخهم، وراحوا يضربون الأرض بأقدام من حديد، ولكنه أهملهم وأطال فى الصلاة، وهم يتعذبون، وطلب إلى الرب بصوت مسموع أن يخزيهم، ويلحق بهم العار..

وازدادوا صراخاً، وطلبوا إليه بتوسل أن يطلق سراحهم.. وقال لهم كيف تتجرأون على خليقة الله أيها الأشرار وأنتم تعلمون أن مآلكم هو البحيرة المتقدة بالنار..

فأجابوه بمناظرهم البشعة وأصواتهم القبيحة بأنهم لم يحققوا مآربهم.. لأنه لم يمت قبل أن يتوب وهم لذلك آسفون، ووعدوه أن لايعودوا إلى هذا المكان مرة أخرى..

فرشمهم بعلامة الصليب المقدسة ثلاث مرات.. وهو يقول ليخزيكم الرب عنا، فإذا بهم يتحولون إلى دخان قذر ويختفون..

هذه هى آخر لقطة من حياة الأب المبارك المتنيح القمص موسى المسعودى البرموسى الذى ولد عام ١٥٦٦ ش الموافق ١٨٥٠م باسم بشاى مرقص بقرية الشيخ مسعود بطهطا وجاء للرهبنة فى عهد القمص يوحنا الأول عام ١٥٨٩ش الموافق ١٨٧٣م وقد رسم قساً عام ١٥٩٤ش الموافق ١٨٧٨م فى عهد القمص يوحنا الثانى ثم قمصاً فى عام ١٦١٦ش الموافق ١٩٠٠م فى عهد القمص مينا الأول. ثم تنيح فى عهد القمص مينا المحلاوى رئيس الدير عام ١٦٣٦ش الموافق ١٩٢٠م.

سردناها (بتصرف) فى قالب قصصى.

دعوة إلى وليمة

فى بطء شديد خرج الراهب الشيخ من باب قلايته الملاصقة للكنيسة، خرج يتحسس طريقه، يحمل معه عبء الستين عاماً، ويجر ماخلفت له من أمراض مختلفة.

يلوح بعصاه بلطف ذات اليمين وذات اليسار، علها ترتطم بشئ فيتعرف إلى طريقه.. وربما ليتأكد أنه ليس هناك مايصطدم به.

وقبل أن يحقق بضع خطوات، هرع إليه راهب شاب، لثم يده وسأله إلام يحتاج؟ ثم قاده فى إشفاق، وابتسامة مشرقة على ثغره، حتى وصل إلى (مصطبة) قريبة أجلسه فوقها برفق، ثم استأذنه فى الإنصراف وهو يطلب إليه أن يدعو له، وقال الشيخ عبارته المشهورة: (الله يساعدك على خلاص نفسك).

وفى جلسته لايبد حراكاً.. لاشئ سوى صوته الذى يرتفع بين الفينة والفينة ، مردداً مديحة قديمة ورثها عن الذين سبقوه، أو ترتيلة حملها معه من قريته، وهو فى ذلك له طريقة مؤثرة، فقد جمع صوته الحانى بين رنّتى الحزن والفرح معاً، ويشعر كل من يسمعه أن الصوت قادم من بعيد، بعيد جداً ! من الأبدية، يشعر أنه يرنم هناك، فوق ثم يصل الصوت إلى الذين يسمعون عبر كثافة ثقيلة من الزمن والمادة.

ثم أنه لايهدى مديحه إلى آخر، ولا يروم إلا لذة التسبيح، يدخل بها فى هدوء إلى المحفل الإلهى.

كما أن لترتيله خاصة عجيبة، فهو يبكت ويشجع فى آن.

ويمضى الوقت.. وهو لايعرف الساعة.. ولا المواعيد، ولايستطيع

أن يفرق بين الليل والنهار، فإذا دق ناقوص الكنيسة، صحبوه إلى هناك، وإذا دق ناقوص المائدة، صحبوه إلى المائدة! لايسأل عن الساعة! ثم أنه لايعرف مكاناً فى الدير، أقصد لايعرف كيف يصل إلى أى مرفق من مرافق الدير دون مساعدة آخر..

إنه محمول على عناية الله ورعايته..

وتطول جلسته على (المصطبة) فينهض بنفس البطء والهدوء ويتأهب لرحلة الرجوع، وطولها عشرون متراً فقط! حتى يصل إلى قلايته، نفس العمل الشاق! ويلمحه راهب آخر ويتطوع بمرافقته إلى القلاية..

فإذا جاء موعد النوم، أتى راهب شاب يعينه رئيس الدير لخدمته، يفتح هذا باب قلاية الشيخ فى هدوء ليطمئن إلى مرقد الشيخ، ثم يطلب بركته وصلواته، ويخرج ثم يغلق الباب من الخارج.

إلى أن يحين موعد ناقوص صلوات وتسبحة نصف الليل، فيعود إلى القلاية ليصحبه إلى الكنيسة، يضع يده فى يد الأب الشيخ ويقتاده فى صمت مطبق إلى هناك ، والشيخ فى هذا وذاك مطمئن، لايسأل، ولايستفسر.. فهو يعرف أنهم يقضون له حاجاته عندما يحين موعدها، وهو موقن أنه بين أيدى اخوته التى سبقت فأيدّتها يد الله الأمينة..

كل وجبة طعام، عندما يدّق الناقوص، يأتى الراهب ويصحبه من يده ويتجه به نحو المائدة، يجلس ويأكل من يده فى صمت من يده، ثم يذهب معه ليغسل يديه وفمه، ويناوله فنجان الشاى، ثم يرجع مصحوباً به إلى قلايته، أو إلى جلسته فوق المصطبة. كذلك عندما يحين الوقت

الاسبوعى يحضر نفس الراهب ويعد له حمّامه، ويغسل له ملابسه.

وبالجملة يصبح الراهب الذى يخدم الشيخ بمثابة عين له.

+ + +

ويدق ناقوص نصف الليل ذات يوم، كعادته الساعة الرابعة من كل صباح، ويمضى الراهب إلى قلاية الشيخ، ويدفع بابها برفق إلى الداخل ويناديه:

- هيا يا أبى، فقد دقّ الناقوص، بنا إلى الكنيسة لنسبح.

- أى ناقوص وأية تسبحة

الراهب فى صبر واضح:

- ناقوص تسبحة نصف الليل.

- باركك الله ياولدى، لعلك نسيت أو تحلم!

- أبداً يا أبى.

- كيف ذلك يا إبنى، وقد دقّ الناقوص منذ ساعات وذهبت إلى الكنيسة.

الراهب الشاب مداعباً:

- أى ناقوص وأية كنيسة.

- لقد سبحت، وصليت القداس.

- رباه.. انك تحلم ما فى ذلك من شك

- ابداً صدقنى، لقد كان القداس جميلاً، لا أذكر أننى تعزيت مثلما شعرت بالتعزية هذا الصباح، ولكن قل لى ألم تأت أنت إلىّ وصحبتنى إلى الكنيسة ؟

وأسف الراهب الشاب فى نفسه، ورشم ذاته بعلامة الصليب، واعتقد أن الشيخ قد لفحه هوس مفاجئ، أو أن الأمر اختلط عليه، إنه لم يسأل مرة واحدة عن الساعة (الوقت) أو الناقوس، بل قد تمضى ساعات وهو جالس لايدرى كم مضى من الوقت..

ومدّ يده ليلتقط يد الشيخ، ولكن الشيخ سحب يده، وزجره فى براءة، وعاد ليقول:

- كان القداس جميلاً، كذلك الأب الذى صلى كان صوته ملائكياً، ألا تصدقنى ؟! لقد تناولت من السر المقدس.

وتذرع الراهب بالصبر الذى تعلّمه من بطء الشيخ، وهمّ أن يعيده إلى صوابه، ولكن الشيخ مد يده فى هدوء، فشدّ طرف ثوبه، ليفسح ليده مكاناً فى جيبه، ثم بعد مجهود قليل أخرج قطعة (أولوجية)[١] ثم دفعها إلى الراهب، الذى إنحنى بدوره وإلتقطها بأصابعه، فإذا بها طازجة، فى حين أنهم حتى تلك الساعة من الصباح، لم يكونوا قد قاموا بصنع القربان بعد.

واندهش أيمّا اندهاش، وصمت قليلاً، ثم عاد ليقول للشيخ: ارو لى ماحدث بالتدقيق.

أجاب الشيخ: ليس هناك أكثر مما قلت لك، ولكن لماذا لم تأت معنا؟ واضح أنه صحبنى راهب آخر غيرك، لماذا نمت حتى الآن..

ولم يرد الراهب، ولكنه انطلق إلى أب الدير يروى له ماسمعه وهو

(١) أولوجية كلمة يونانية معناها «كلمة حلوة» وقد أطلقت على لقمة البركة التى يوزعها الكاهن على الشعب عقب القداس لأنها كانت توزع مع كلمة منفعة لكل أحد.

يلهث، ويفطن الأب إلى ماحدث، فيصحب بعض الآباء إلى الكنيسة الأثرية الكائنة تحت الأرض، ليفاجأوا هناك بالبخور يعبّئ المكان، والأوانى متروكة على المذبح دون أن تجمع، وقطرات من الماء فوق المذبح أمام كرسى الكأس.

وعاد الآباء وقد غمرتهم الفرحة، وشملتهم التعزية إلى قلاية الشيخ، يشرحون له ماحدث، ويتلقّى الشيخ الكلام بهدوء عجيب وصمت مطبق، خال من الدهشة، ولم يسأل عن شئ بل هز رأسه قليلاً.

هذه الواقعة رواها لى الشيخ نفسه قبل نياحته بعشر سنوات.

واسم الشيخ: الأب الراهب/ اندراوس الصموئيلى.

وَأحفظك حيثما تذهب

على المنصّة الكبيرة فى منطقة أبى قير بالاسكندرية، وقف إثنان وعشرون عبداً، رهن العرض للبيع.

إنه سوق العبيد، وقت أن كانت تجارة الرقيق، لازالت منتشرة وكان ذلك فى أواخر القرن السابع عشر، حين جمع التجار هذا العدد وقد إشتروهم بأثمان بخسة ليبيعوهم للأمراء والموسرين.

وكانت لهم طريقة خاصة فى عرض العبيد، فهم ينظفونهم من الأوساخ التى لحقت بهم من جراء الاصطياد أو السفر، ثم يلبسونهم ملابساً جديدة ليبدوا أكثر رشاقة، ثم يضعونهم على منصة أشبه بالمسرح، وفى صف نصف دائرى، هذا وعلى صدر كل منهم تدلّت رقعة صغيرة من الخشب كتب عليها، اسم العبد ووزنه وطوله وسنّه والعمل الذى يجيده ثم ثمنه، ولكنهم يخفون البلد الذى أتو به منها..

فى ذلك اليوم دقت الطبول وعزفت الموسيقى، وكان شيئاً أشبه بالحفل، لأن هذا المكان أيضا كان سوقاً كبيراً لكثير من المنتجات، وملتقى ومنتدى لكثيرين من أهالى الاسكندرية..

وجاء أمير من الأمراء، يبحث عن عبد يشترك فى العمل مع العبيد الآخرين فى قصره، ووقف طويلاً أمام تلك المنصة يتفرس فى وجوه المعروضين للبيع.. شباباً فى ريعان الصبا، تطفح عيونهم أساً ومرارة، شاء الله أن يقعوا فرائساً فى أيدى المتجبرين العتاة، منهم من بيع سداداً لديون ذويه، ومنهم من اصطيد فى الحرب، ومنهم من باع نفسه!

وبدا له أن أفواههم تقذف حمماً، وعيونهم تقدح شرراً، وتصرخ بالنقمة على المجتمع كله، لاسيما الطبقة الارستقراطية فيه.

والأمير، أمير طيب القلب، له قرية كبيرة ورثها عن ذويه.. كانت مثل مملكة صغيرة.. وبها بعض من العبيد والجوارى.. وتحيط بمملكته الصغيرة أراض كثيرة هى ملك له أيضا..

وهو لايتعامل مع عبيده على أنهم عبيد.. وإنما اجراء، أو بمعنى آخر كان يحسبهم كأناس يعملون معه.. لا عنده.

ونعرف أنه فى تلك الأيام، كان من حق مالك العبد أن يفقأ له عينه مثلاً، أو يكويه بالنار إذا سرق، وأن يخصيه للوقاية، وأن يقطع عضوا من جسمه، يفعل به كما يحب، ويترك صغاره يلهون به دون أن يعترض.. بل له الحق فى قتله، وذلك إذا هرب منه مثلاً ثم استطاع أن يجده، هكذا كان القانون يتيح وقتها.

مر الأمير بعينيه على العبيد الواقفين يتململون فى وقفتهم واحداً فواحداً، فرأى بينهم الممتلئ والنحيف، والقبيح الوجه والجميل الصورة، والفارع طولاً والمخل قصراً، الضعيف البنية والقوى عضلاً.

وتردد.. وأجال البصر كثيراً إلى أن إستقر رأيه على ذلك الشاب المتوسط الطول، القوى البنية، تنطق ملامحه الصريحة بالجدية وتشع عيناه ذكاءا وطيبة قلب..

واقترب قليلاً وأشار بيده ناحية ذلك الشاب، وحينئذ أسرع حارس «فظ» وجذب الشاب، جذبة لا رحمة فيها، واستسلم الشاب دون أن يهتز، رابط الجأش، يمتلكه سلام عجيب، ويشمله هدوء حلو..

وقرّب الأمير اللوحة المدلاه على صدر الشاب إلى عينيه، وتفرس فيها قليلاً، ثم قال فى ثقة وسرعة : موافق!

وحينئذ إستلم الشاب مع الأوراق الخاصة به (صك العبودية) وإنطلق به إلى قصره..

كان (روفين) من إحدى قرى البحيرة وقد هاجم قريته جماعة من البربر الذين أتوا من نواحى سيوه، منحدرين من ليبيا، لقد هجموا على بعض بيوت القرية، وقتلوا من فيها من الرجال والنساء، ثم استبقوا الشباب فأسروهم عبيداً.

وهو من أسرة تقية، فقد اتسم والداه بالبر، وأرضعاه اللبن المقدس، وعلماه كيف أحبه الله وكيف يحبه هو، نشأ متعلماً أن يكون له مخدع يرتاده صباحاً ومساءاً، وله فم مبارك ونظر مقدس.

وقد صُدم عندما قتل أبواه وأخته الوحيدة، ولم يفق من الصدمة إلا عندما أحس بأربعة رجال أشداء يقيدون يديه إلى خلف بلا رحمة، ثم يدفعونه أمامهم بخشونة وهم يركلونه بأقدامهم، وأفواههم تهدر بأبشع الشتائم..

هذا هو روفين الذى اصطحبه الأمير إلى قصره، ثم أرسل يستدعى القائم على بيت العبيد، فجاء رجل ناهز الخمسين من عمره، طويل القامة مفتول العضلات، غزير الشارب، أدى فروض الطاعة والولاء فى كلمات سريعة اعتاد ترديدها مع حركات أسرع.. وكأنها طقس من الطقوس.

قال الأمير:

خذ هذا، اسمه روفين لينضم إلى بقية رجالنا، ويبدو عليه أنه شاب طيب وذكى، لعله ينفعنا فى الأعمال الداخلية.

وامتثل للأمر، وخرج يتبعه روفين منكس الرأس، لايدرى ماذا ينتظره، وإن كانت معاملة سيده الأولى له، قد أشاعت الطمأنينة فى صدره، إلا أنه لم يستطع أن يتخلص من الشعور بالحذر، والتوجسّ خيفة.

وكان العبيد فى ذلك القصر ينقسمون إلى فرقتين، الفرقة الأولى وقوامها إثنى عشر رجلاً ويعملون فى حراسة القصر من الداخل والخارج، والفرقة الأخرى تعمل فى الشئون الداخلية له..

وكتعليمات الملك الصغير، ضمّ روفين إلى الفرقة الثانية..

وكان عمره فى ذلك الوقت حوالى التاسعة عشر، وكانت صناعته (فخارياً).. وكان يعلم أننا جميعاً كعجينة فى يد الله، يتولى هو الاهتمام بنا، وإعدادنا، كذلك عاش شاكراً، يشعر أن الله يدافع عنه دائماً ويدفع عنه المتاعب، وكان يكتنفه سلام عجيب، وتعلم أن يصلى دائماً فى فرح ويشعر أن كثافة هذا العالم لاتقدر أن تخفى عنه الله، وقد كان مصدر بركة لأسرته وأصدقائه وجيرانه.

إلى أن حل ذلك اليوم الذى أسر فيه.

فى سرعة البرق انتشر الخبر بين بقية العبيد، كعادتهم عندما يفد إليهم عبد جديد، فإنهم يتناولون ذلك فى شئ من الاهتمام واللهفة لمعرفة كل مايخصه، لكى يكونوا على بينة من أمره، وليطمئنوا إلى أنه لن يتسبب فى تكدير صفوهم، بل سيمضى فى طريقهم، وينضم إليهم وينتصح بنصائحهم وينطوى تحت لوائهم.

كان اللقاء الأول بينه وبينهم، فى الحجرة الرطبة (البدروم) التى إعتادوا أن يجتمعوا فيها لاحتساء الشاى وعرض نوادر اليوم وملابساته، وليبث بعضهم شكاواهم إلى البعض الآخر.

هناك وعلى ضوء المصباح الزيتى الخافت، دعوه ليشرب معهم الشاى، إنه حفل تعارف..

والحقيقة أن هذه هى المرة الأولى لروفين، التى فيها يجمعه مكان واحد مع إناس من هذا النوع، وأنتم تعرفون العبيد، وكيف هم ناقمون على المجتمع، بسبب أنهم مهملون ومحتقرون فى الحياة، إنهم يحقدون على كل سيد، ويستبيحون لأنفسهم كل ماتصل إليه أيديهم من مال أو متاع، يخص سادتهم، إنهم ينتقمون من كل «السادة» وكل الأغنياء، ويشعرون بلذة النصرة الخفية، وذلك أيضا بسبب النسر الذى يرزحون تحته، وإن كانوا يُظهرون الطاعة والخضوع لأولياء نعمتهم، بينما ينهشون فى أعراضهم وكرامتهم فى غيبتهم، إنهم يقدمون المديح صاغرين، وكأن إحترامهم لسادتهم ينتزع منهم إنتزاعاً، ولذلك فعندما أرسل معلمنا بولس الرسول برسالته إلى تلميذه فليمون، كتب يقول له «لكى لايكون خيرك كأنه على سبيل الإضطرار بل على سبيل الاختيار فل١٤ » . لأنه عرف أن العبيد مضطرون للطاعة، ولذلك فهو لايود أن يكون فليمون على نفس المستوى.

عرفوا منه كل ظروفه، واكتشفوا فى حديثه أنه شاب فاضل، لم يلحقه بعد دنس العالم، ولم ترتق إليه الشرور التى لحقتهم، والحقيقة أنهم أشفقوا عليه فى بادئ الأمر، أشفقوا عليه من أنفسهم، ومن الحياة التى

ستقبل عليه، كانوا لطفاء ودودين نحوه فى تلك الليلة، بشروه خيراً ووعدوا بأن يمدوا له يد العون، كلما إحتاج إلى ذلك، وهو بدوره شكر لهم محبتهم واستقبالهم.

وأدرج فى العمل معهم، وبدأ هدوءه وطهره لكل من فى القصر، ووهبوه ثقتهم وعطفهم، فلم يكلفه أحدهم بعمل ما فى الصباح الباكر، وذلك احتراماً لرغبته فى الصلاة، وهم وثنيون ومع ذلك فقد إحترموا مشاعره ومعتقداته، وأفسحوا له ليعمل مايشاء، كذلك فقد أوصى الأمير عليه بنفسه، وأعطى أوامره إلى الطباخ بأن يصنع له مايطلبه من طعام خاص، وذلك فى الأوقات التى يمتنع فيها عن أكل مايأكله الآخرون (يقصد عندما يكون صائماً).

وسألوه ذات مرة، ماذا يقول وهو واقف منتصب القامة رافعاً يديه لأعلى وهو مغمض العينين، كما إستفسروا منه عن الإشارات التى يرسمها بأصبعه على نفسه، ولماذا لايحلف ولايشتم، ولا يميل إلى القصص التافهة التى يثرثرون بها، وأجابهم فى بساطة وصراحه، ولم يفهموا، ولكنهم أحبوه، نعم.. وإن كان لم يشاركهم لهوهم وخمرهم، وأحاديث النميمة التى يحلو لهم الخوض فيها كل أمسية.

كذلك هو أيضا أحبهم، وغفر لهم نزاوتهم من قلبه، وإلتمس لهم الأعذار وتمنى لو أتيحت له الفرصة لكى يطلق كل العبيد أحراراً، كان يحلم بذلك، ولكنه لم يعلن لهم عن هذا الفكر وإنما كان يسلحهم بالصبر والشكر، يحدثهم عن إرادة الله وهم لايعون مايقول، ويستمعون فى صمت وغرابة وإستخفاف فى بعض الأوقات.

إلى أن وقع حادث السرقة فى ذلك اليوم الردئ، تمثال إغريقى من الذهب الخالص، لإله من آلهة اليونان، كان أحب التماثيل إلى قلب

الأمير، واستشرت الدهشة فى جوانب القصر، وإنطلق الوعيد يدوى فى إرجائه، الموت للسارق إذا اكتشف قبل أن يبلغ هو عن نفسه، أو يعيد التمثال إلى مكانه.

واكتُشف السارق، وسيق مكبلاً إلى الموت، رجل فى الأربعين من عمره، أسمر اللون مكفهر الوجه ممتلئ الجسم منكس الرأس، قاده الحراس فى غير شفقة وهم يركلونه بأقدامهم ويبصقون عليه ويشيعونه بشتائم يستحى منها..

وإعتصم هو بالصمت، فقد كان أولئك الذين يسوقونه إلى الموت هم شركاؤه، صمت لشهامة فيه... واكتفى بأن يموت وحده دون أن يجر غيره معه.

وتهامس العبيد الآخرون فى مساء ذلك اليوم فيما بينهم، ترى من أبلغ عن السارق ؟ فهذه ليست المرة الأولى، فهم لهم عادة فى ذلك بين الحين والحين، يسرقون شيئاً ليبيعونه ثم يقتسمون الثمن فيما بينهم، فمن عساه أبلغ فى هذه المرة.

وأملى الشيطان على ضمير أحدهم أن يتهم روفين، وأعلن اتهامه على بقية إخوته وأورد أدلة واهية، إنه ولاشك روفين فهو لايؤاكلنا ولايندمج معنا، له طبعه الخاص، والأرجح أنه وشى بنا لأنه يكره آلهتنا..

وثار العبيد دون تروٍ أو تمهل، وأقروا ضرورة الانتقام لكبريائهم منه، واتفقوا على أن يسقوه من ذات الكأس - على حد تعبيرهم - ويردوا له الصاع صاعين، ولم يكن روفين بالطبع معهم فى ذلك الوقت، بل

كان على سطح إحدى البنايات، يقضى وقتاً فى الصلاة والتأمل كعادته، وانبرى (ڤلاڤيان) يعلن تطوعه للقيام بالمهمة وشيّعوه بالتشجيع.

أمام عرش الأمير، وقف ڤلاڤيان، شاب تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، طويل القامة نحيف الجسم ضعيف العينين حاد الذكاء، له مشية غير منتظمة كأنه سكير يترنح.

قال ڤلاڤيان: سعدت مساءاً يامولاى، الطاعة كل الطاعة لمولاى، حفظتك الآلهة وأدامت لنا مانحن فيه من سلام.

قال الأمير : لعلكم مطمئنون

- كل الاطمئنان ياسيدى الأمير، واطمئن أميرنا الجليل أننا كلنا عيون ساهرة على القصر ومن فيه، وماجئت اليوم إلا لندرأ عنك خطر يحدق بك.

- تكلم ولاتخفى شيئاً.

- نعم إنه روفين.

... شهق الأمير دهشة، وسأل فى لهفة، ماعسى أن يكون الأمر؟

قال ڤلاڤيان : لقد خدعنا جميعاً بهدوئه وصمته وإنعزاله عنا جميعاً، ولكن الآلهة كشفت لنا عن هويته، فهل يصدق جلالتكم إنه يتآمر عليكم؟ وإذا لم نتحرك فلن تنجو من الخطر يامولاى المصون.

وتغيّر وجه الأمير ، وإشتدت قسمات وجهه قسوة، فهو يحب روفين ويحترمه وينزله فى قلبه منزلة الآلهة الصغار، وطالما استدعاه ليس لضرورة سوى أن يراه فقط ويشبع من السلام الذى يفيض عن وجهه،

ويسمع منه مايثلج صدره، كان يرغب فيه، ويشعر أنه قد أصبح للقصر مذاقاً جديداً بعد نزول روفين فيه.

ولذلك فقد صعقته المفاجأة..

وانتهز ڤلاڤيان ذلك وراح يكيّل التهم لروفين فى غيابه، ويوجس الأمير خيفة منه، ويتوسل إليه فى مكر، ألا ينخدع بالمظاهر، وأن حياة وسلامة الأمير، رهن وجود ذلك الشاب على قيد الحياة، إذا روفين هو كبش الفداء !

وتضايق الأمير، وغشت قلبه غمامة من الحزن، ولكن الملوك والأمراء مستعدين دائماً للتضحية بكل مايهدد سلامهم وحياتهم، مجرد تهديد، أى نسبة من التهديد يستحق مصدرها التخلص منه.. كما أن الأقوياء غالباً ما يفتقرون إلى الصبر! .

وصرف الأمير ڤلاڤيان .

وثقل الحزن عليه، وصلى إلى آلهته أن تعينه على الخلاص من شرّ روفين، وإبعاد الخطر عن قصره، وبيّت أمراً فى قلبه، قراراً اتخذه فى قلقه وخوفه، وأسرع فى أن يجعله موضع التنفيذ.

سمع الحارس فى الخارج، صوت عصا الأمير تضرب الصنج المعلق، فهرع إلى الداخل، وركع فى حركة ميكانيكية سريعة - تعودها - مع عبارة الطاعة، وطلب إليه الأمير استدعاء أربعة من عبيد الحراسة الخارجية، سماهم له بأسمائهم..

وبعد قليل جاء الأربعة ينتظرون أوامر أميرهم المحبوب، ولعلهم

لاحظوا ذلك السواد الذى إحتل صفحة وجهه وتلك العصبية التى يتكلم بها، وقلقه الواضح فى جلسته على عرشه، قال لهم:

غدا، وفى تمام الثالثة صباحاً عليكم التواجد فى الجرن الكائن شرقى البلدة، هناك توقدون ناراً (آتون صغير) وتجلسون مقابله، تنتظرون شخصاً سيحضر الساعة الرابعة يقول لكم «أرسلنى الأمير لتسلمونى ماطلبه منكم» عليكم أن تقيدوه من يديه ورجليه وتلقوه فى الآتون، حتى إذا ما احترق وتفحم، إطفئوا الآتون وإرجعوا إلىّ لتخبرونى..

وإنصرف العبيد واجمين..

وعادت عصا الأمير تصطك بالصنج، وطلب استدعاء روفين، وجاء روفين هادئ النفس واثق الخطى، يتمتم بكلمات لم يسمعها أحد، ثم وقف أمام الأمير منتظراً تعليماته..

وابتسم الأمير فى وجه روفين، أو بمعنى أدق تكلف الابتسام، وبنظرة حانية قال له:

«أنت تعلم كم أحبك، وأثق فى رجاجة عقلك وأمانتك واليوم احتجت إلى انجاز مهمة، رأيت أنك أنسب من أكلفه بها».

وأحنى روفين رأسه موافقة، وقال للأمير أنه يعد ذلك شرفاً عظيماً لايستحقه، وأنه يطلب إلى إلهه أن يعينه فى سبيل خير الأمير والمملكة.

حينئذ أردف الأمير قائلاً : «غدا وفى تمام الساعة الرابعة صباحاً ، عليك التوجه إلى الجرن الشرقى، هناك ستجد أربعة من العبيد بجوار نار أضرموها، قل لهم (ارسلنى الأمير لتسلمونى ماطلبه منكم) ثم إحضر إلىّ

مايسلمونك إياه..

وأحنى روفين هامته مطيعاً واستأذن فى الانصراف.

ثم مضى مسروراً، يشكر الله على كل شئ، ويصلى طويلاً ولايفتر قلبه ثم فمه عن ترديد كلمات الشكر، وطلب العون والحكمة. ولم ينم تلك الليلة، فقد خاف إن هو نام، أن لايمكّنه التعب من الإستيقاظ فى الموعد اللازم، فسهر.

وصلى كثيراً فى تلك الليلة، ورتل بما كان لايزال يحفظه، وتذكر أباه وأمه، وبكى كعادته كلما تذكرهم، وسأل نفسه إن كان سيلحق بهم فى الفردوس أم أنه لايزال خاطئاً متوانياً.

وإنصرف من الليل نصفه، وإقتربت الساعة من الثالثة، وقام ليغسل وجهه ويبدل ثيابه - أفضل مالديه من ثياب - وركع ووجهه ناحية الشرق، ولم يسمع أحد ماقاله فى صلاته، ولكنه قام منطلق الأسارير باسم الثغر، يحس بنشوه تحتل قلبه، وخرج من القصر، ومشى طويلاً حتى لمح عن بعد ناراً متقدة، وفرح أنه عرف الهدف، وهكذا سار نحو المكان فى شئ من الاطمئنان.

فى تلك الأثناء كان الأمير يجلس فى أحد ابهات القصر وقد انتابه الأرق، وجلس ساهماً يعالج ضيقاً تسلل إلى قلبه ، وكان يفكر فى الموت الذى ينتظر روفين، فهو يحب روفين ولايعلم كيف تسرع فى الحكم عليه، لقد إنفعل ولم يكن من الصواب أن يتخذ قراراً فى غضبه، ثم من أدراه أنه بالفعل مذنب ؟ وأن فلاقيان قد وشى به ؟

وقام يذرع أرض البهو فى قلق والألم يكاد يهتصر قلبه.. ثم همّ بالدخول إلى حجرته، حين أُبلغ بأن العبيد الأربعة قد عادوا يسألون عنه، واستقبلهم فى لهفة وهو يتمنى ألا يكونوا قد قتلوه، ولكنهم خيبوا ظنه بقولهم أنهم أتموا المهمة التى كُلِّفوا بها ، قالوا له أنه تأخر قليلاً وجاء إليهم فى السادسة والنصف وأنهم أطفأوا النار حالما تحول هو إلى فحم..

وتجهّم وجهه.. وصرفهم فى جفاء وعاد إلى عرشه، ثم جلس هو يحمل رأسه على كفيه وقد اظلّمت الدنيا فى عينيه ومادت الأرض تحت قدميه.. ولكن صوتا همس فى داخله، أن لا فائدة ترجى من الحزن وقد قضى الأمر، وأن ذلك لأهون من أن يلحق به وبمملكته أذى، وحاول أن يلم أطراف شجاعته، ولكن صورة روفين لم تبرح مخيلته، وضغط بكلتا يديه على رأسه، وتمنى - مثلما يتمنى الطفل - أن يكون ماحدث لايعدو أن يكون حلماً.. ولكنه لم يكن يحلم..

وفيما هو على تلك الحال، استأذن شاب فى الدخول إلى الأمير، وسمح له.. وما أن دخل وألقى التحية على الأمير، حتى تجمد الأمير فى مكانه، وعقدت الدهشة لسانه، وعاد الشاب يلقى التحية... إنه روفين! وجحظت عينا الأمير وفغر فاه دون أن يستطيع الكلام وتعجب روفين، ودارت رأس الأمير وكاد يجن.. وفى كل هذا لم يفهم روفين شيئاً، بل بدأت الحيرة تنتقل إليه.. ماعسى أن يكون هذا، وتمر دقيقتين، يفيق بعدها الأمير، ويضرب بقبضته على مسند عرشه، ويصرخ مبهور الأنفاس، وتخرج الكلمات متقطعة : «ألم تمت.. ألم تحترق.. أأنت حى أم هو شبحك..» .

وفـزع روفين وأحس أنه كـانت هناك خطة للتـخلص منه حـرقـاً وحـاول أن يستـفسر، والأمـير يصرخ ثم يطرق الناقوس بعصاه وقد هب واقفا، ثم يهرول إليه الحارس فيأمره بإستدعاء العبيد الأربعة الذين كانوا عنده منذ ساعة ونصف، ويأتى العبيد الأربعة ويسألهم فى دهشة كبيرة: ألم تتمموا ما أمرتم به.

فيحنون رؤوسهم بالإيجاب، ويكررون ماقالوه قبلاً، أنه تأخر قليلاً ولكنه نال عقابه.

وينظر الأمير إلى وجه روفين، ثم يحول بصره إلى العبيد الأربعة، ويكاد يطير عقله، وروفين بدوره ينظر إلى الأمير وإلى العبيد فى تساؤل فزع، والعبيد إنتقلت إليهم الحيرة والتساؤل.

وساد المكان جو من الفزع والخوف، ومئات من علامات الاستفهام ترقص فى المكان.

ولكن مالبث الأمير أن هدأ، وصوّب نظرة مخيفة إلى العبيد، وكأنه وضع يده على الحقيقة كاملة، فقال بهدوء: «صفوا لى الشاب الذى أحرقتموه، قالوا له : إنه شاب طويل القامة نحيف الجسم، ضعيف العينين يتعثر فى مشيته.

فهتف الأمير : الآن علمت كل شئ.

ونظر إليه العبيد وكذلك روفين، فى توسل وكأنه قد جاء دورهم فى إستيعاب ماحدث.

وصرف الأمير عبيده الأربعة، بينما استبقى معه روفين، وأجلسه

إلى جواره، وسأله إن كان قد صدر منه ما إتهمه به ڤلاڤيان، فأجاب بالنفى وقال :

«إن إلهى الذى أعبده، أوصانى بأن أحب كل الناس، واحتمل الكل وأضعهم فوقى دائماً، وألا أسرق أو أدين، حتى أولئك الذين يسيئون إلىّ، لا أحتقرهم أو أرد لهم الإساءة».

قال الأمير :

ماذا كنت تريد عندما أتيت الآن ولماذا لم تذهب كما قلت لك بالأمس؟

قال روفين :

نعم، كنت أريد أن أعتذر لعدم ذهابى وإتمامى المهمة التى كُلّفت بها.

قال الأمير : ولماذا..

قال روفين : قبلما اقتربت من النار المضطرمة فى الموعد المحدد، إذا بى أسمع صوتاً يصافح إذنى، لم أعرف مصدره ولا هويته.. واختفى ثم عاد مرة أخرى، ووقفت وأرهفت أذنى، واستدرت قليلاً ريثما أتبينه.. إنه آت من ناحية الشرق.. نعم إنه رنين.. إنه جرس.. آه..

لعله ناقوس الكنيسة، كنيسة الدير الواقع على مقربة من البلدة، إنه يعلن بدء التسبحة اليومية يعقبها القداس الإلهى، ما أحلاها التسبحة وما أحلاه القداس.. وحدثت نفسى : لأذهبن إلى هناك وأسبح مع الآباء الرهبان..

نعم لقد مر وقت طويل دون أن أحضر القداس وأتناول من الأسرار المقدسة.

وصمت قليلاً فإذا بالأمير يحثه على الاستمرار :

وتذكرت والدى ووالدتى ياسيدى الأمير، وكيف قالا لى كثيراً ألا أترك القداس الإلهى إلى موضع آخر، ومتى سمعت الناقوس فلا تأبه لشيء آخر، ثم تذكرت وصيتك لى بالأمس، وكأنها تصفعنى على وجهى لتفيقنى من أحلامى، أنها المرة الأولى التى يكلفنى فيها جلالتكم بشئ، ويضع فىّ ثقته، فهل يصح أن أخيب ظنك وثقتك فىّ !، وماذا ستقول عنى.. ربما تقتلنى..

ثم عدت لأتذكر القداس والبخور، والقربان المقدس، والألحان.. كل هذا الدسم والأكل الشهى على المائدة الإلهية ثم أدير ظهرى؟!

لا لن يكون شئ من ذلك، ثم عادت صورتك الكريمة تغشى عقلى وفكرى وصوتك الجهورى وغضبك، ولا أخفيك شيئاً يامولاى، فقد تذكرت وقتها اوكتاف.. ذلك العبد الذى عصا أمرك، فطارت رأسه عوضا، وتذكرت الكسندر وكيف قطعت أنفه، وتراجعت .. نعم جرنى الضعف البشرى إلى خلف ووبخنى !.

وأنهكنى التفكير، وصراعاً قوياً نشب فى داخلى وراح ينهش، ونزاعاً بين قوى الخير وقوى الشر (إنسانى العتيق وإنسان المسيح فىّ) ثم رأيت الإثنان أحدهما فى مواجهة الآخر، المسيح بوجهه المبتسم ودمه ينزف، ثم جلالتكم وسوطكم فى يدكم وعرشكم يلمع ذهباً.

ثم زال خـوفى منكم وإذا بى أهتف داخلى وكـأنى وصلت إلى المعادلة: من ينقذنى من يد الآخر : الأمير أم إلهى ؟.. وكانت الإجابة واضحـة لاتحتـاج إلى دراسة أو تفكير، فإن المسيح الذى مات لأجلى والذى بين يديه حياتى، يقدر أن يخلصنى وينجينى إذا فكرت فى إيذائى، ولكنكم فى ذات الوقت لاتقـدرون أن تنقـذونى من الدينونة متـى مت خاطئاً.. قلت وكأنى أنهى الصراع : المسيح سيحفظنى ويباركنى ويدبر أمرى مع أميرى المحبوب.

وهكذا استراح فكرى، وتهلّل قلبى، وقفزت من مكانى وانطلقت نحو مصدر الصوت.. نحو الدير.. إلى القداس الإلهى وأنا مفعم بالسرور والراحة.

وهناك فى الدير، تهت بين ألحـان التـسبحـة.. وبخـور باكـر، وإنصهرت فى الجو السمائى، سجدت سجدات كثيرة، وصليت كثيراً ووقفت مغمض العينين، لاهج القلب، مرنماً يفيض قلبى بالتعزية.. ولما كان والداى قد أوصيانى ألا أترك الكنيسة قبل أن يسرّح الشعب، مكثت هناك حتى صرفنا الأب الكاهن..

وما انتهى القداس، حتى مضيت قاصداً الموضع الذى كانت فيه النار فلم أجدها ولم أجد أحداً إلى جوارها.. بل رأيت رماداً، ومن ثم فكرت فى أن آتى لأعتذر لجلالتكم فهلا قبلت عذرى!

قال الأمير فى سرعة : حدثنى عن إلهك.

فصمت روفين قليلاً وأخذ نفساً عميقاً ثم قال :

– هل سمعت عن آدم.

– نعم فى الأساطير.

– بل حقيقة.. أنه الجد الأول للبشرية جميعها.. لقد أخطأ هذا الجد.. و.. و..

ومات المسيح عنه.. أتدرى كيف مات ؟.. لقد مات مصلوباً عنى وعنك وعن كل الناس.. لقد صلبوه.. طعنوه وجرى دمه ليغسلنا من خطايانا..

والأمير لايمل حديث روفين، وروفين نفسه لايكف، أنه فرحٌ.. مجرد أن يحكى عن المسيح.. يكرز به.. ويشهد له..

والعبيد الأربعة خرجوا من عند الأمير ليرووا للباقين ماحدث.. وقالوا فيما قالوا : أنهم اضرموا النار وجلسوا إلى جوارها، وازداد وهج النار واشتدت حرارتها، ووقفوا يرقبون الطريق لعل ذلك الشقى الذى سيحرقونه يأتى.. ولكنه لم يأت.. والساعة تجاوزت الرابعة، وهو الموعد المتفق عليه.. وقلق العبيد ومرت ساعة وساعتين والنار فى أوج شدتها تصهر من يقترب منها وانتظروا حتى السادسة والنصف صباحاً وهم لايكفون عن إمداد النار بالوقود، وبدأ الملل واليأس يرقى إليهم، ثم صعد أحدهم على إحدى التلال القريبة يرقب الطريق، مالبث أن زفر زفرة قوية وأشار إليهم يطمئنهم أن الفريسة فى الطريق إليهم..

كان موقفاً تراجيدياً.. فهم حزانى غير راضين عما سيعملوه بأحد إخوتهم، ولكنهم مضطرون، وقد يكونوا هم البدائل إذا حدث وعصوا

الأمر، ولاسبيل إلى الاعتذار أو التهرب أو العصيان، ثم أن هذه ليست المرة الأولى التى يكلفون فيها بمثل هذا العمل.. ولابد أنهم رثوا لذلك الشاب الذى سيعدمونه حرقاً.

ثم ماهى إلا دقائق حتى لاح لهم عن قرب، ذلك المسكين، شاب طويل ، نحيف ، يترنح وهو يمشى، كانوا متأكدون أنه يمشى إلى حتفه، واقترب أكثر حتى صار بينه وبينهم حوالى عشرة أمتار، حين انطلقوا كالأسود الجائعة، وفزع هو، وحاول أن يتكلم.. أن يصرخ.. أن يشير بيديه، ولكنهم لكموه فى وجهه، حاول أن يقول أنه ليس هو بل شخص آخر، أنه ڤلاڤيان ليس روفين.. ولكن طول إنتظارهم جعلهم أكثر سرعة فى اتمام واجبهم، واحتبست الكلمات فى فمه وماتت على شفتيه، ففى سرعة البرق كانوا قد مددوه على بطنه واوثقوا يديه ورجليه.. وحاول أن يتخلص من القيد ولكن أحدهم عالجه بضربة - بآلة حديدية - على إم رأسه، فراح فى إغماءة وحملوه كالريشة ثم ألقوه فى الأتون.. وفى نصف ساعة كان قد انتهى كل شئ فأطفأوا النار وعادوا إلى أميرهم، يمنون أنفسهم بالهدايا.

والذى حدث أن ڤلاڤيان تقابل - عرضا - مع روفين فى الرابعة صباحاً بينما روفين يستعد للخروج من القصر، وأخبره أنه ماض إلى خارج المملكة ليحضر للأمير شيئاً من الجرن، وفهم ڤلاڤيان أن روفين إنما هو ماض إلى حتفه..

ومنى نفسه بأن يشبع نظره بحفل احتراق روفين، فاختار الساعة

السادسة بحيث يكون وقتها داخل الأتون، ومشى نحو النار إلى هلاكه.

ومنذ ذلك اليوم والأمير يستدعى إليه روفين ليكمل له الحديث الذى بدأه ولن ينتهى..

وبعد هذه الحادثة بحوالى العام يتم بناء الكنيسة الصغيرة - داخل المملكة - من الأخشاب وراهب يأتى من الدير كل أحد ليصلى القداس الإلهى..

حُبّ أعظم

هل سمعتم عن «إيهاب ب» ؟

إذاً فأنتم كذلك لا تعرفون الراهب افلوجيوس.

لا بأس فى ذلك فقد عزمت على أن أروى لكم ما حدث مع إيهاب هذا.

فبينما هو يخطط ويحاور ويناور، كان الرب يعمل بصورة خفية، من أجل تأمين مستقبله، وتحقيق مشيئته فيه.

ايهاب طالب بطب قصر العينى.

«وايناس» فى نفس الكلية بل فى نفس الـ Round وتعلقت نفس إيهاب بها، وأحبها من كل قلبه، وكثيراً ما منى نفسه بأن تشاركه حياته مستقبلاً، وفى ذلك البيت يستضيفا المسيح ويصنعا له عرشاً جميلاً فى قلبيهما قبل منزلهما، ليبارك ذلك البيت ويصبح له فيه نصيب الأسد، يملأ حياتهما ويقدس أفكارهما، ويتقبل منهما أولادهما هدية مرضية، ويصلا معاً عن طريق الجسد الواحد إلى الفكر الواحد والقلب الواحد لتحقيق الهدف الواحد، ألا وهو محبتها للمسيح. وبات يحلم بذلك ويتعجل الوقت لتحقيق هذه الأمنية.

فى الوقت ذاته، كانت (إيناس) تتردد على أحد أديرة الراهبات بمصر القديمة ، وتقضى بعض أجازاتها كخلوة روحية فيه، تجلس مع الأمهات تحكى لهن عن العثرات فى الكلية، وتشتكى من بعض الفتيات المستهترات، وعن غياب المسيح من الأسرة الجامعية، والعالم الشرير ومخافة الله التى قلّت فى القلوب.

وباتت تمنى نفسها بحياة تخلو مما لاتتمناه، وكيف ستحبس ذاتها

فى القلاية الصغيرة البسيطة، وكيف ستكون تلك القلاية أجمل وأوسع من شقة فاخرة يغريها بها شاب يتقدم للإرتباط بها..

وسوف تسهر فى القلاية كل ليلة حتى موعد التسبحة، وسوف يكون خروجها نادراً.. تقرأ وتصلى وتتأمل وتدرس، حيث ستكون الفرصة متاحة، لاسيما وأن ظروف الدراسة وكذلك ظروف سكن العائلة لايمكنانها من الإختلاء كثيراً بنفسها مع الله.

وكانت تقول لنفسها بين الحين والحين: متى يأتى ذلك اليوم الذى تنتهى فيه (سنة الامتياز) لكى أنطلق إلى الدير أمكث فيه ولا أتركه وأنعم فيه بالدفء الروحى، وأنهل من نبع الحكمة والفضيلة، وأترك العالم لأولئك الذين يستطيعون العيش فيه.

ولم يستطع إيهاب أن يفاتح إيناس فى رغبته، قبل نتيجة البكالوريوس ، حتى إذا ظهرت ونجح كليهما، تشجع وصارحها برغبته فى الارتباط بها.. وظهرت فرحتها بذلك ولم يقدر خجلها على إخفائها، ولكنها قالت كمن أعدت الإجابة مسبقاً : (أرجو أن تناقش هذا الأمر مع أب إعترافى) ثم دلته عليه فى إحدى كنائس شبرا. وهناك صارحه أب اعترافها بأنها تفكر منذ سنوات فى الرهبنة. وأنها تتردد على الدير منذ فترة بعيدة أيضاً، وأنه يبارك هذا القرار لاسيما وأن الأمهات هناك يشعرن بارتياح تجاه رغبتها هذه.

وصُدم، وعاد إلى بيته وأغلق على نفسه باب حجرته. وصلى باكياً إذ لم يكن يعرف ماذا يصنع، لاسيما وأنه قد علق أمان كثيرة على هذا

الأمـر، وهو أيضـاً وإن كـان يرغـب بقـوة فـى الفـوز بهـا، إلا أنه فى ذات الوقت لايريد الوقوف أمام رغبتها المقدسة لئلا يُلام ولئلا يُدان كذلك.

وصلى كـثـيـراً .. وتأثر.. واسـتـراح إلى فكرة أخـرى، ألا وهى أن يذهب إلى والدها ليتكلم مـعـه ويسمع رأيه فى هذا الأمـر. وهناك وجـده حزيناً. حائراً.. مكدود الفكر، لكونه لم يستطع أن يثنى ابنته عن عزمها، لقد حاول معها بشتى الطرق، وبإغراءات كثيرة.

وعرف كذلك إن كثيرين قبله تقدموا لها، ولكنها اعتذرت بحجة عدم تناسب الوقت. إلى أن صارحت أسرتها بعزمها على الالتحاق بالدير.

ومع ذلك فـقـد فـرح والدها عندمـا أحس أن «إيهـاب» يعـرض مساعدته فى هذا الشأن.

وأعاد الكرّة وحاول معها.. ولكنها كانت مسبية بفكر الرهبنة الذى اختمر فى ذهنها.. وكانت تتكلم عن الدير والحياة النسكية بطريقة (محمومة) أكثر مما لو كانت تتكلم عن شاب سوف تتزوجه.

ومرت شهور الامتياز شهر بعد آخر وقررت أن تولى ظهرها للعالم ميممة شطر الدير، واختارت صباح أحد الأيام لتجعله آخر يوم لها فى العالم، وانطلقت لتختفى عن صخب العالم وضجيجه فى الدير. وتأثر إيهاب جداً، وبات يفكر فيما حدث كلما خلا إلى نفسه، وحاول تعليل ذهابها إلى الدير (لتموت) هناك كما عبرت له إحدى الأمهات ذات مرة، وعاد ليسأل نفسه : ولماذا تنسلخ من العالم وهى مازالت غضة، كوردة

متفتحة على العالم، ولماذا تحرم ذاتها لذات كثيرة وخيرات متعددة..

ترى ماذا فى الدير، وفى الرهبنة أجمل من الزواج ومباهج العالم، أما كان يمكنها الجمع بين الزواج والمسيح.

وهدّه التفكير.. وانقطع أياماً عن الطعام والحديث مع الأخرين.. ثم هداه تفكيره إلى أنه سيحاول مقابلتها فى الدير والتحدث معها.. ليس ليثنيها عن عزمها، وإنما ليستوضح الأمر منها.

وهناك لم يستطع مقابلتها، بل نصحته الأم الرئيسة بعدم تكرار المحاولة، كذلك تحدثت معه عن خلاص نفسه واهتمامه بمستقبله الأبدى، وعدم التشويش على أفكار (إيناس) بل عليه أن يصلى لأجلها إن كان يحبها محبة حقيقية ويطلب لها من الرب ثباتها فى الرهبنة.

ولم يفكر فى الاقتران بسواها.. بل راح يسأل كل من يقابله من كهنة ورهبان عن رأيه فى هذا الأمر.. إلى أن نصحه أحد الرهبان بقضاء فترة خلوة بأحد الأديرة.. وتحدث مع الأباء هناك عن متاعبه وعثرته فيما حدث واستراح قليلاً، ووضحت أمامه بعض النقاط الغامضة، وهنئ بالليلة التى باتها هناك، وعاد مرة أخرى بعد شهرين إلى وادى النطرون. وجعل تردده يزداد.. فأصبح يرتاد الدير مرة كل أسبوع، وشعر بمحبة الأباء وحنوهم، وأحبهم هو بدوره، كذلك شغف ببستان الرهبان وسير الآباء.

وفى شهر مارس وخلال الصوم الكبير استطاع الحصول على أجازة مدتها ثمانية أيام، قضاها بالدير وعدّها أجمل ثمانية أيام فى حياته،

وأحس الأباء بأنه شاب مبارك، وإناء مقدس للعمل النسكى، كذلك أحس هو (بجنين رهبانى) يتحرك فى أحشائه، ونما هذا الجنين، وغذاه هو بالخلوات والقراءات، وصلى كثيراً لأجله وأخذ مشورة آباء كثيرين مختبرين.

وكفّ عن متابعة أخبار (إيناس)، بل لم يأبه كثيراً عند سماعه بخبر إرتحال أسرتها إلى مسكن آخر بأبى قرقاص، وإنما صلى ذات مرة لأجلها ليحفظها الرب ويخلص نفسها ويعدها للملكوت.

وغشى فكر الرهبنة حياته، وتحددت به كل آماله القريبة كقنطرة يعبر بها إلى الميناء الأبدى.

وزهد فى كل شئ..

وأخيراً قرر مع القائمين على الدير ومع أب اعترافه، الالتحاق بالدير، وأقبل على حياته الجديدة بفرح وشهية دائمة، وكان كلما تذكر قصته مع (إيناس) ضحك من نفسه وشكر الله الذى كان يقوده فى درب الخلاص والمجد، بل وشكر ذهابها إلى الدير واعتبره أحد أسباب رهبنته.. وأخيراً نسى أمرها كلّية.

وفى السنة الثانية لرهبنته، وبينما كان أمام (الفرن) يصنع الخبز، قيل له هوذا بعض أقاربك يسألون عنك، فلما إنتهى من إتمام عمله مضى إلى دار الضيافة ليلمح عن بعد، رجل وزوجته ومعهما طفلتهما الصغيرة، أتدرى من كانوا أولئك الضيوف؟

لقد فوجئ هناك بـ «إيناس» وزوجها اللبنانى (غسان زاهد)

وطفلتهما مارجريتا البالغة من العمر ثلاث سنوات!!!

وروت له ماحدث معها فى شجاعة وبساطة، فقد تركت الدير فى السنة الثانية لالتحاقها به، إذ اكتشفت مع الأمهات هناك، أن الرهبنة ليست طريقها، وأنها لم تصارح أب اعترافها بكل شئ، وأنها كانت مسبيّة بفكر الرهبنة.

ورأت أنه من غير الحكمة أن تضيع وقتها فى الدير دون ثمر، بل الأفضل لها أن تحيا حياة طبيعية فى العالم، وتثمر أكثر مما لو عاشت فى الدير متغصبّة، وسافرت مع زوجها إلى لبنان..

ومرت سنة واحدة على هذه الزيارة.

وعندما عادت لتزوره مرة أخرى مع زوجها وابنتها عندما كانوا فى زيارة للقاهرة، اعتذر الأب افلوجيوس عن مقابلتهم لأن ذلك اليوم كان من الأيام التى لايخرج فيها من قلايته.

ورأت هى بالتالى أنه من اللائق ألا تزعجه بالزيارة فيما بعد، واكتفت بأن تركت له بطاقة تحمل إسمها، ومن الخلف كتبت له ترجوه ألا يكف عن الصلاة لأجلها ولأجل مشاكلها الأسرية.. ولكى يحفظهم الرب ويقبل حياتهم ذبيحة حب مرضية أمامه.

وفى القلاية قرأ الأب افلوجيوس البطاقة ثم مزقها فى هدوء وقام ليصلى عنهم وعن الآخرين.

الطريق

حين أرادت الأخت (ماجى) أن تخلع عنها ثوب العالم، لتلبس ثوب العرس فى دير الراهبات ، رفضت أمها وبكت وتشنجت وأقسمت بكل صغير وكبير فى حياتها، ألا تسمح لها بشئ من ذلك مابقيت حية..

ولما كانت ماجى ووالدتها فى زيارة للدير.. حاولت الأم أثناسيا(١) الرئيسة هناك أن تهدئ ثورة الأم وتمهد الطريق لإبنتها للالتحاق بالدير.

ولكن الأم قالت، والدموع تمزّق كلماتها: لا لن أدعها تذهب وليس لى من يرعانى غيرها بعد أن انتقل والدها، ولا تطالبوننى أن أمضى لأعيش فى بيت ابنى، فإن أشد ما أكره هو أن أكون حماة!

ربتت الأم أثناسيا على ظهرها مطمئنة إياها، أن الذى يرعاها هو الله ـ ولكنها عادت تبكى.. ومعها بكت ماجى.

ولكن الله دبّر من يحذّر تلك الأم، من الوقوف فى طريق خلاص ابنتها وأن عليها أن تخضع لمشيئة الله، وقال لها أب اعترافها الذى كان فى زيارتها أن الله لن يتركها، بل هو فى الواقع يرعاها هى وابنتها فى آن..

ووافقت الأم راضية

ولم تسع (ماجى) الفرحة.. ولم تسع الدنيا فرحتها، فانتقلت فى نفس الأسبوع إلى الدير.

وانتقلت الأم بدورها إلى بيت إبنها، تشترك معهم فى أعمال المنزل

(١) أثناسيا : من الاسم « أثناسيوس » ومعناه خالد .

وترعى الطفلة (سنتان ونصف) والطفل الرضيع .. وذلك فى غياب ابنها وزوجته فى عملهما..

وحقيقة أنها لم تكن مستريحة تماماً، وإنما اعتادت تلك الحياة بمرور الوقت، ولكنها كانت تتذكر ابنتها بين الحين والحين فتبكى، وتسلم ذاتها إلى الحزن والبكاء لساعات، إلى أن يسكب الله العزاء فى قلبها فتكف.

ولعل تفكيرها الدائب فى ابنتها، وكيف تركت العالم بكل من فيه وكل ما فيه من أجل خلاص نفسها، جعلها هى الأخرى تفكر فى خلاصها ومن ثم بدأت تصلى وتقرأ فى الكتاب المقدس، بل أنها عرفت الطريق إلى خدمة فقراء الكنيسة.

أما (ماجى) فقد قبلوها بفرح فى الدير، وقصوا لها شعرها (الموت عن العالم) واعطوها إياه تحتفظ به فى قلايتها كتذكرة لها بموت الجسد (ومعروف أن مجد المرأة هو شعرها، ذلك الشئ الذى يحتل النصيب الأكبر بين اهتماماتها).

وعاشت هناك بالمسكنة مطيعة، محبة للسكون.. ومحبة لقلايتها، لا يفتر فمها عن التسبيح والصلاة خلال ساعات عملها فى (حلب البقر) عند شروق الشمس وعند مغيبها.

ولم تُر خارج القلاية، إلا فى وقت الخدمات الكنسية بالكنيسة، ووقت العمل فى مزرعة المواشى.

ويحكى عنها أنها لم تخرج مرة واحدة لمقابلة أحد من الضيوف،

حتى أولئك اللائى جئن يسألن عنها، عزفت فى إتضاع عن مقابلتهن أيضا، سوى المرتين اللتين تأتى فيهما والدتها كل عام مع شقيقها وزوجته وطفليهما..

وفى القلاية دأبت على حفظ ونسخ أقوال بعض الأباء ، مثل القديس يوحنا كليماكوس، ومار إفرام السريانى.

وقد حُسبت الراهبة أربسيما (ماجى) أنها أشد الراهبات فى الدير هدوءاً ومسكنة ورغم ما عرف عنها من حذاقتها فى الآداب النسكية، إلا أنها كانت تهرب من أى سؤال يأتيها من الأمهات اللائى يردن الانتفاع بفضائلها.

ومضت سنوات .. والراهبة المباركة تمضى من مجد إلى مجد، وكلما اشتدت حرب عدو الخير ضراوة، كلما ازدادت ثباتا ورسوخاً ملتجئة إلى الاسم الحلو الذى لربنا يسوع المسيح..

وأحبت الأم الرئيسة أن تحوطها بعناية خاصة، كغرس جديد يحتاج إلى من يرعاه ويسهر عليه، لكى تساعدها فى نموها فى الطريق، مدفوعة فى ذلك بمحبتها الشديدة لها، ولكن أربسيما لم تدع الأم توليها هذا الاهتمام الخاص، خوفاً من تعثّر بقية الأمهات، لاسيما الضعيفات منهن.

وقالت فى نفسها هناك من يستحق أكثر منى.. وقالت للأم: يكفينى صلواتك لأجلى وأنا واثقة أن الرب سيرحمنى بسببها.

ولكن حدث فى السنة السادسة لرهبنتها، ما يعد زلزالاً فى حياتها.

إذ طرق باب الدير طارق ذات مساء ليخبر الأم الرئيسة أن شقيق الأم أربسيما وزوجته قد انتقلا بالأمس إثر حادث مفجع على الطريق الزراعى.

كانت صدمة لأربسيما، ما من شك فى ذلك وغلبتها طبيعتها البشرية فى تلك الليلة، فبكت كما لم تبك من قبل ، والتفّ الأمهات حولها يعزينها بكلمات انجيلية وأقوال آبائية حلوة.. وهدأت.. ولم تترك الدير بالطبع لتشترك فى مراسم الدفن أو لتقديم العزاء أو استقباله من المعزيين، ولكنها فى الحقيقة كانت كسيرة القلب، تفكر فى مصير شقيقها وزوجته، وتارة تفكر فى طفليهما المسكينين، وتارة أخرى فى أمها العجوز التى تجاوزت الستين من عمرها.. وطمأنت نفسها أن الله سوف يدبر أمرهم ، ولكنها لم تكن تعرف كيف سيدبر أمرهم !

ولم تنم تلك الليلة، وصارت نهباً للأفكار طيلة أسبوع كامل.. وجاءتها الأم أثناسيا الرئيسة ومعها اثنتين من الراهبات يخففن عنها ويستأذننها فى المضى إلى منزلها بالمدينة لكى يقدمن العزاء لوالدتها، عنها وعن بقية الأمهات، وعندما عادت الأم الرئيسة، ذهبت إلى قلاية أربسيما قائلة لها أن كل شئ على مايرام، سوى تلك المشكلة التى تفرض نفسها الآن، وهى الطفلان (ثمانية أعوام وستة أعوام) ومن يرعاهما.. ولكن الله لن يتخلى عنهم جميعاً، هكذا قالت لها الأم الحنون.

وبعد أيام قليلة وصلت والدة أربسيما وبصحبتها الطفلين، وأسرعت أربسيما للقاءهم متماسكة متجلدة، ولكنها صدمت عندما رأت أمها تجلس فوق كرسى متحرك! حيث أصيبت بالشلل نتيجة ذلك الحادث المؤلم،

وتماسكت ثانية، ورحبت بهم كثيراً، وأمضت معهم النهار كله - على غير عادتها ، ولكن الأم فاجأت الكل بقولها، بتحدّى وفى نبرة قاسية : «شئ من اثنين.. إما اترك الطفلين لكم هنا، والله يدبر أمرى أنا وإما تأتى أريسيما معى ترعاهما حتى يكبرا..»!.

وفوجئ الكل.. وسادت فترة صمت كانت الأم أثناءها تبكى، ثم عادت الأمهات يعرضن البدائل. فقالت الأم الرئيسة: هل من أقارب لكم، يستطيعون إحتضانكم ؟ أجابت: الأقارب ليسوا من الدرجة الأولى، وأنا لا اسمح أن اترك احفادى ورائحة ابنى بين الأغراب.. كما لا أحب أن أصير عبئاً على أحد..

قالت راهبة : هل من مانع فى الحاقهما ببيت للأيتام؟ وهنا صرخت الأم.. وضربت صدرها بقوة يدها قائلة : كيف اترك لحمى ودمى يعيش فى مثل تلك الأماكن.. يجوعوا فيها إلى الحنان.. ومن ذا الذى يهتم بهما أكثر مناً ؟

قالت راهبة ثالثة : ولكنك تعرفين يا أمى، أن أريسيما قد صارت راهبة، ولا يجوز لها أن تترك الدير مرة أخرى وترجع إلى العالم.

فلجأت إلى الانجيل قائلة : ولكن الكتاب يقول عن الله «إنى أريد رحمة لا ذبيحة».

ثم لماذا تجبروننى على الكلام أكثر من ذلك، من أين لى أن أنفق على نفسى وعليهما، أما جاء دور (ماجى) لتهتم بنا مثلما اهتممنا بها قبلاً..

وصاحت الأم الرئيسة : الأمر بسيط للغاية، لك علينا أن يرسل لكم الدير ما يقوم بكل احتياجاتكم شهراً بشهر.

ولم تحتمل أربسيما أكثر من ذلك، فإستأذنت فى الخروج ومضت إلى قلايتها.. وهناك وقعت على وجهها أمام صورة المسيح المصلوب وانفجرت باكية وصلت قائلة :

«إلهى الحنون، ليس عندى ما أقوله لك الآن، ولكنك تعرف شقاوتى وما أصابنى بسبب خطاياى.. إرشدنى لما يجب أن أفعله، فأنا عبدتك وقد خرجت وجئت إلى هنا حباً لإسمك، وطمعاً فى رحمتك، وأنت تعرف أنه لا هدف لى سواك فإذا شئت أن أبقى هنا دبّر أمر والدتى، وإذا لم تشأ فأنا أسيرة لك..».

ثم قامت لوقتها، وغسلت وجهها وجلست لتقرأ فى الكتاب المقدس.

أما والدتها فقد أقنعتها الأمهات أن تعطيهن مهلة، ريثما يتفكرن فيما ينبغى أن يفعلن، فتركتهن وإنصرفت مع الطفلين.

وكان للدير أسقف قديس فيه روح الله، ومشهود له بالتقوى، هذا جاء إلى الدير فى ذلك الأسبوع وفى غير موعده المعتاد. قال لهن: جئت اليوم مسوقاً من الله بخصوص الأخت أربسيما، فإندهشن وسجدن له قائلات، وهذا ما يقلقنا الآن، وكنا فى احتياج إلى سماع صوت الله منك.

فنظر إليهن ثم قال :

أرى كمن رحمه الله، أن الرهبنة ليست أسواراً وطقساً وحسب، وإنما هى حياة داخلية سريّة، وكما أن الراهبة تحتاج لأن يحتضن جهادها

(دير) فإنها كذلك لا يكفيها مجرد وجودها فى الدير، وقد رأيت بنفسى.. وسمعتن أنتن كذلك ، عن نساء يعشن فى العالم عيشة الراهبات، فى الوقت الذى فيه بعض الراهبات يعشن داخل الدير عيشة أهل العالم. كذلك فقد تعلمنا جميعاً أن الطاعة أفضل وأسمى من النسك، لأن النسك قد يولد المجد الباطل، بينما تولد الطاعة الاتضاع، ونعلم أن الاتضاع خلص كثيرين بلا تعب.

أظن أنكن قد فهمتن الآن ما أود أن أقول ، فإنى أرى أن تترك أريسيما الدير، لترعى والدتها والطفلين، وحينما يشاء الله وتنتهى مهمتها يمكنها المجئ مرة أخرى إلى الدير. وقام الأب الأسقف وصلى معهن ثم خرج، وفى الطريق أخذ إليه الأم أريسيما التى كانت تبكى وعزاها بكلام كثير، فما عادت تحزن بسبب هذا الأمر.

وعادت أريسيما إلى بيتها، واستقبلتها أمها غير مصدقة.. كذلك تعلق فى رقبتها الطفلان، وبدأت والدتها فى الاعتذار لها، لكونها قد أحزنتها وجعلتها تترك الدير الذى تحبه.. وتترك الحياة التى اختارتها، ولكن أريسيما اجابت بشجاعة وفرح بأنها غير أسفة على ذلك طالما هى مشيئة الله، وأنها واثقة بأن الله سوف يباركها بسبب هذا العمل.

وبدأت فى الاهتمام بترتيب أثاث المنزل ونظافته.. واهتمت بالمطبخ وبحجرة الطفلين.

ففى الصباح كانت تستيقظ مبكرة، تصلى صلاة نصف الليل ثم التسبحة.. وحينئذ يكون الطفلان قد استيقظا استعداداً للذهاب إلى

المدرسة، فتغسل لهما وجهيهما وتمشط لهما شعرهما.. ثم تعدّ لهما الإفطار، وبينما هما يتناولان افطارهما تكون هى قد أعدت لهما حقيبتيهما فتخرج معهما تذهب بكل منهما إلى مدرسته، وفى طريق عودتها تشترى ما تحتاجه من طعام وشراب وأشياء أخرى.. ومرة أخرى فى المنزل تعد طعام الإفطار لوالدتها العجوز وتطعمها بيدها دون أن تأكل معها، وقد تركتها والدتها وشأنها فى هذا الأمر ولم تعترض على صومها حتى الثالثة بعد الظهر.

وبعد ذلك تدخل إلى حجرتها وترتدى زى الراهبة.. ثم تقف لتصلى ثم تجلس لتقرأ فى الكتاب المقدس وبعض سير الأباء، فإذا ما نالت متعتها فى الصلاة والقراءة، خلعت عنها زى الراهبة وخرجت لتعد طعام الغداء.. وإن كان هناك ملابس تحتاج إلى غسيل غسلتها، فإذا ما عاد الطفلان هيأت لهما الطعام.. وجلست معهما بعض الوقت تساعدهما فى استذكار دروسهما.

ويمضى الوقت .. وأريسيما تعتبر ماتقوم به من عمل، هو مقابل عملها فى الدير.. وكانت تتمم تدبيرها كاملاً دونما أى نقصان.

ولم تشترك أريسيما فى أى احتفال عائلى.. أو مجاملة تقضى بها التقاليد.. بل كانت تحبس نفسها طيلة اليوم فى منزلها، عدا صباح كل يوم حيث تقضى أمور البيت.. عدا المرات القليلة التى صحبت فيها والدتها إلى الطبيب أو إلى بعض الأماكن الأخرى. واعتادت الأم أن تعتذر لها.. واعتادت أريسيما أيضا أن تستعفى، وفى منزلها اعتادت بعض صديقاتها

القدامى زيارتها للسؤال عنها وتشجيعها ولكنها عودتهم على ألا تبقى معهم كثيراً خوفاً على وقتها وهروباً من الأحاديث غير النافعة.. ومن خطايا الإدانة..

والحق يقال أنها تعرضت كثيراً لبعض المضايقات، ولكن الحب المتأجج فى داخلها كعذراء عفيفة للمسيح، كان لها سنداً ضد هجمات الشرير.

واعتادت الأم أثناسيا الرئيسة زيارتها من وقت لآخر، مع بعض الأمهات كلما كان لهن مهمة فى المدينة، وكن يحملن لها من الدير بعض الفاكهة والكتب والهدايا، فكانت فرحتها لا تقدر بتلك الزيارات وتلك الهدايا، وكانت الأم تطمئنها فى كل مرة بأن الأمهات جميعاً يطلبن لأجلها لكى يؤازرها المسيح بنعمته لتكمل عملها كما يليق.

وكبر الطفل والطفلة، وزادت احتياجاتهما.. وبالتالى زاد المجهود الذى تبذله أرسيما معهما.. لاسيما تجاه ما يحملونه معهما لها من خبرات المدرسة والأصدقاء.. ولكنها بصبرها وقوة محبتها للمسيح.. استطاعت أن تربيهما تربية روحية، وظهر ذلك فى كلماتهما وتصرفاتهما داخل المنزل وخارجه، بل كانت بين الحين والآخر تأخذهما ومعهما والدتها ليقضيا يوما فى الدير.. (وتستطيع أن تتصور مقدار الفرح الذى يلحق بها وبأسرتها وببقية الأمهات من مثل تلك الزيارات).

وصار بيت أرسيما اشبه ما يكون بدير صغير، من فرط ما يقام فيه من تسابيح وصلوات، كما اعتاد الأب الأسقف أن يمر عليها فى منزلها بين الحين والآخر لكى يقبل اعترافها ويشجعها ويثبتها..

فى تلك الأثناء ، انتقلت والدتها.. ومن بعد انتقالها بعام واحد تقدّم شاب نبيل ليتخذ الفتاة زوجة له، وفرحت أرسيما وساعدها الدير فى أمر زواج الفتاة.. كذلك اسهمت فى هذا الزواج بعض مدخرات كانت والدتها لازالت تحتفظ بها إلى وقت نياحتها.

وبقى الطفل الآخر وقد أصبح شاباً مع (عمته) الراهبة التقية، ولكنه هو الآخر استطاع أن يجد عملاً براتب مجز واستقرت حياته..

وهنا صار الطريق ممهداً أمامها للعودة إلى الدير.. فأتى الأب الأسقف ومعه الأم الرئيسة وبعض الراهبات، حيث أخذوها بكرامة إلى الدير، وهناك استقبلوها استقبالاً حافلاً يليق بمجاهدة مباركة، اضاعت على الشيطان الفرصة وعادت منتصرة.

وكانت الفترة التى تركت فيها الدير حوالى خمسة عشر عاماً. وقد استطاعت منذ اليوم الأول أن تكمل حياتها بصورة طبيعية.. بل طلبت من الأم الرئيسة أن تعود إلى نفس عملها السابق فى حلب البقر رغم أنها قاربت على السابعة والثلاثين عاماً.. وأمام توسلاتها وافقت الأم..

غير أن الأفكار كانت تقلقها من آن لآخر، ولكن الله لأجل امانتها وصبرها، كان يقويها ويعزى قلبها.

وعاشت الأم أرسيما حتى الثمانين من عمرها، مثالاً فى المسكنة والغربة الحقيقية، حتى قيل عنها أنها الغرس الذى أعطى أكثر مما يجب..

وقد ردّت بصورة قاطعة على أولئك الذين يدعون، أن الرهبان، لم يكونوا ليصلحوا إلا للحياة فى الأديرة، وإنما جاءت رهبنتهم كضرورة

لعجزهم عن أن يحيوا حياة طبيعية كبقية الناس وأنهم دون تحمل المسئولية..

ولكن الراهب، إنسان له القدرة على الحياة فى أى مكان، ولكنه استحسن الحياة الرهبانية لأسباب يطول شرحها لأولئك المرتبطين بحب العالم وكراماته.

أُجَرَاءُ وَأُبَنَاء

راجى شاب فى الخامسة والعشرين من عمره، حاصل على ليسانس فى الحقوق وماجسيتير فى أثر البيئة على نوع الجريمة، أبواه مازالا على قيد الحياة.. وله أخت تدرس بالجامعة.. وأخ فى المرحلة الثانوية..

راجى يحب الرهبنة والرهبان والحياة النسكية.. ولكنه فى الوقت ذاته يكره أن يكون راهباً ! أى أنه لا يريد أن يكون له شكل الراهب .. فيضمّه مجمع رهبانى .. وإنما يودّ أن يحيا حياة رهبانية.. دون أن يُحسب مع الرهبان كواحد منهم.

فى المنزل كانت هناك مقدمات من جانبه.. وتلميحات ، أظن أنهم فهموا منها ما يرمى إليه راجى، ولكنهم كانوا يقابلون أحاديثه التلميحية بالصمت ثم الإنتقال إلى سوضوعات أخرى بعيدة..

ولكنه فعلها ! إذ ترك المنزل ومضى إلى أحد الأديرة وهناك تقابل مع رئيس الدير وافصح له عن رغبته فى أن يحيا بالدير وحسب ، ورجاه أن يلحقه بأى عمل كباقى العاملين بالدير، كذلك إن أمكن فليدبر له مكاناً بعيداً عن الضوضاء..

وبدا الطلب غريباً عجيباً فى بادئ الأمر بالنسبة لرئيس الدير، ولكنه جعل يفكر طويلاً قبل أن أجابه بالموافقة، ولكنه أيضا حذّره من بعض الأمور.. (الملل.. التعب.. الإهانة) ولكن راجى شاب عاقل، قال «إذا لم احتمل فسوف أترك الدير».. وأعود إلى بيتى وأتخذ عملاً وأكمل حياتى فى العالم.

ومن هناك أرسل إلى أسرته يعلمهم أنه فى أحد الأديرة ليطمئنهم.

في اليوم التالى، استدعاه رئيس الدير واسند إليه مهمة تقديم الطعام والشراب فى مبنى الضيوف الضخم، وما يتبع ذلك من أعمال نظافة فى المطبخ والمبنى..

كذلك فقد أعطاه مكاناً للسكنى، حجرة صغيرة بعيدة عن مساكن العمال وقلالى الرهبان وبها مرقد صغير وكرسى ولها طاقة فى الحائط.

وارتدى الجلباب (البنىّ) الذى أحضره معه، مع الانجيل والأبصلمودية والأجبية..

وفى الصباح باكراً، دقّ ناقوص تسبحة نصف الليل، فقام بنشاط، ومضى إلى الحمام فى آخر الطرقة حيث غسل وجهه وعاد إلى قلايته بحيوية واضحة آخذاً كتاب الابصلمودية متجهاً إلى الكنيسة.

سبّح معهم فى الأجزاء التى يحفظها.. وباقى الوقت اكتفى بالسماع محاولا أن يحفظ شيئا جديدا، ولكن ذلك لم يكن بالأمر اليسير ، وواصل حتى انتهى القداس الإلهى فتقدم للتناول.. ثم خرج مسرعاً إلى القلاية حيث استراح قليلا، ومن ثم اتجه إلى مكان عمله.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة، حين وصلت إلى المبنى أول مجموعة من الضيوف فى صحبة أحد الآباء، فجرى نحوه وتبارك منه ثم انحنى أمام الزائرين فى أدب شديد، ومضى ليعد المائدة. كان كل شئ مرتباً ونظيفاً. وتواتر الضيوف على المكان، ولكنه استطاع بنعمة المسيح، وتجلده وصبره أن يلاحق طلباتهم ويسدد احتياجاتهم جميعاً..

وبين الحين والآخر كان يختطف بعض الوقت، يسرع فيه إلى

قلايته يقرأ ويصلى، ثم يعود مسرعاً قبلما يزدحم المكان مرة أخرى.

فإذا ما انقطع سيل الضيوف من المكان عند حوالى الرابعة، اعاد ترتيب كل شئ فى موضعه.. واطمأن إلى نظافة المكان وترتيب كل ما فيه استعداداً ليوم جديد، ثم ينطلق من ثم إلى قلايته يغسل وجهه ويغير جلبابه لكى يمضى إلى الكنيسة لحضور تسبحة ورفع بخور عشية.. ثم إلى الحجرة مرة أخرى لكى يستريح قليلاً من الجهد الشاق الذى يبذله خلال اليوم، حتى يتسنى له أن يسهر قليلاً قبل أن ينام مرة أخرى استعداداً ليوم جديد.

وصار منظره مألوفاً عند الأباء فى الدير، وإن كان أحداً لا يعرف قصته وهو كذلك لم يحاول التقرب إلى أى شخص فى الدير سواء أكان راهباً أو عاملاً وإنما أحب أن يهتم بخلاص نفسه وأن يكون أميناً إلى أبعد حد..

ولكن بعض الآباء دفعتهم الشفقة، إلى محاولة العطف عليه ببعض المأكولات أو الملبوسات.. ولكنه كان يعتذر فى كل مرة بأدب شديد عن قبول أى شئ، إلا فى بعض مرات قبل ما قدّمه له البعض، بعد ضغط شديد، ولكنه اعطاه بدوره إلى بعض العمال فى الدير.

كذلك تعرّض لبعض المواقف المحرجة من جانب الضيوف، فقد حدث ذات مرة بينما كانت إحدى الأسر تغادر المكان، مرّ الإبن الأصغر (١٥ سنة) عليه فى المطبخ حيث مال قليلاً عليه ثم دسّ يده بشئ فى جيبه، فأسرع راجى ليخرج ما دسّه الفتى فإذا به جنيهان!

فوجئ.. وتمنع في حياء شديد.. ولكن الفتى أصرّ وهو يربت في حنان على ظهر راجي.. وصمت راجي، ولكن بعض قطرات من دموعه فرّت من عينيه.. وشكر الشاب النبيل على كرمه ولطفه.. ثم وضعهما في صندوق العطايا بالكنيسة في صباح اليوم التالي..

كذلك أعطته إحدى الفتيات كيساً به ساندويتشاً وتفاحة وعلبة عصير- فأخذها في صمت.. حيث اعطاها بدوره لواحدٍ من العمال..

ولم ينج كذلك من الأسئلة التي كانت توجهها له بعض الأسر عن اسمه وعن أسرته.. وهل تعلم أم لم يستطع أن يدخل المدارس!

بل عرض عليه أحدهم ذات يوم أن يأخذه للعمل معه في مزرعته بطريق القاهرة/ الاسكندرية الصحراوي، وأغراه بمبلغ شهري كبير يصل إلى مائتي جنيها في الشهر، ولكنه اعتذر بأنه سعيد في هذا العمل وأن الأجر الذي يتقاضاه هنا يكفيه ويزيد.

والحقيقة أنه كان يتقاضى أجراً قيمته جنيها ونصف في اليوم ولكنه تعرض لأفكار كثيرة في مساء ذلك اليوم فقد تذكر درجته العلمية.. ومستوى أسرته الاجتماعي.. والمستقبل الباهر الذي كان ينتظره في العالم.. وكيف أنه كان من الممكن له أن يعمل بالنيابة وتحت أمرته العديد من العاملين . عوض التعب الذي يتكبده هنا وكونه محسوباً كأحد العمال.. وكيف أن بعض العمال ضايقوه أكثر من مرة..

ولكنه انتبه ! وأسرع ليقرع صدره مراراً ويبكّت ذاته على هذا الجهل.. وتذكر قول أحد الأباء «هوذا الناس يموتون وتموت كراماتهم

معهم» ثم قال : وهل لى أن اشتهى شيئاً بعد أن وهبنى المسيح ذاته.. أننى أغنى من الكل وأوفر كرامة من كثيرين.

وبكى من شدّة التعزية.. وتمنّى أن يكمل حياته بلا كرامة غريباً صغيراً.. ولا ينكر أنه تعلّم من العمل ومن العمال، تعلم الصبر والبذل.. تعلم المحبة الأخوية.. تعلم الهدوء والاحتمال.. والاتضاع بالطاعة.

وعاد عدو الخير ليلقى بسهم آخر، فذكره بذلك الأب الذى وبخه منذ اسبوعين على أمر لا ذنب له فيه.. ولكن راجى رشم ذاته بعلامة الصليب وطرد تلك الأفكار قائلاً لقد قيل عن سيدى أنه ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه.. وقد كان - له المجد - هو السيد ومع ذلك كان يخدم ويغسل الأرجل ويتعب لأجل خلاص الآخرين.

وإزاء هذه الأفكار تمنى من قلبه أن يتسنى له حضور تلك الاجتماعات التى تقام للآباء فى الدير.. وانتهز أول فرصة للإجتماع من هذا النوع.. فأسرع يسأل رئيس الدير إن كان يمكنه الحضور.. ولكن الأب اعتذر له عن عدم إمكانية حضور (العلمانيين!) اجتماعات الأباء.. فاعتذر وصمت.

وفى الطريق إلى قلايته، بكت نفسه قائلاً كيف تحسب ذاتك مستحقاً لذلك.. وفى القلاية أسرع إلى الإنجيل يقرأ بنهم ويضع خطوطاً تحت بعض الأيات.. ثم عاد ليفكر أنه محتاج لتعلم الأدب الرهبانى، وكيفية التعامل مع الأفكار وخطر له خاطر فذهب إلى مكتبة الدير فى الصباح واشترى - من المال القليل الذى معه - كتاب بستان الرهبان.. واشترى كذلك كتاب خدمة الشماس.. وأما باقى المال فقد تصدّق به على

أحد العمال، عرف بطريق الصدفة أنه يعول أسرته بعد وفاة أبيه.

وحاول راجى خلال السنوات الثلاث الأولى أن يحفظ بقية تسبحة نصف الليل، وأعطاه الله فهما ووعياً واستطاع أن يقارب الإنتهاء من حفظها وقد ساعده فى ذلك، جهاز الكاسيت الذى اشتراه بأجر شهرين مع بعض الأشرطة المسجل عليها التسبحة بألحانها.. وبنفس الأسلوب استطاع أن يحفظ بقية الألحان والمردات.

وانتظمت حياة (راجى) فهو يعمل ويصلى ويسبح ويقرأ فى البستان والإنجيل.. وما بين يوم وآخر تعوّد على الخروج إلى البرية للصلاة والتأمل.

ويقول (راجى) أنه تعرّض لترك الدير ذات مرة بينما كان الدير يخلى من فيه من عمال بمناسبة أحد الأصوام التى يحبذ فيها الأباء الهدوء التام وخلو الدير من كل زائر ومن كل عامل.. ولكن الله دبر له من يشفع فيه لدى رئيس الدير فى أن يبقى لكى يهتم بالسرج التى تضاء ليلاً فى كل مرافق الدير..

وقد سألته إن كان قد طرد بالفعل من الدير ماذا كان سيصنع.. قال فى هدوء : (أبداً كنت سأمضى إلى مكان آخر ريثما يعود الدير إلى عادته بعد انقضاء فترة الصوم).

وحدث أن تكلم بعض الأباء مع الأب الرئيس بخصوصه، لكى يضمه إلى مجمع الدير ويلبسه الزى الرهبانى.. متعللين بأنه شخص مبارك.. واقترحوا عليه أن يقوم الدير بإعالة أسرة راجى إن كان يعمل

هو لإعالتها.. إذ أنه من الخسارة أن يعيش شاب كهذا فى العالم، أو بهذه الطريقة. وعلى الرغم من معرفة رئيس الدير مسبقاً بأن (راجى) لن يوافق إلا أنه وعدهم بعرض هذا الاقتراح عليه، واعتذر (راجى) بالطبع وشكر للكل محبتهم إذ هو سعيد على تلك الحال ولايودّ لها بديلاً.

وقد تعرض لحروب كثيرة فى صلواته.. وفى بقائه بالدير.. وأفكار كثيرة حاربته بخصوص مستقبله وبخصوص أسرته.. ولكنه جاهد.. وتعب وصبر.. فأعطاه الله من نعمه .. وفرّحه بثمر تعبه وعزى قلبه وأعطاه قدرة فائقة على احتمال الحروب وعلى محبة الطريق..

وسألنا الأب أكسيوس عن السبب الذى حدا (براجى) ليسلك ذلك السبيل ولم يدخل فيما نسميه بالقناة الشرعية للرهبنة.. قال:

راجى شخص يندر وجود مثله.. فهو هادئ .. له محبة فى قلبه للمسيح.. وللناس.. ولكل شئ.. والذى ساعده فى الطريق أنه معتدل وغير متشنّج.. ليست له أيّة آمال سوى أنه ينتظر الملكوت فى صبر ورجاء ثابت.. وقد عرف أن للرهبنة كرامة عند أهل العالم.. والراهب موضع تكريم منهم فآثر ألا يكون له وضع يجلب له المديح.

فقلنا للأب أكسيوس أما كان يمكنه أن يصير راهباً ويبتعد عن الناس وكراماتهم ومديحهم.

قال : كان ذلك ممكناً، ولكنه خشى أن يكتفى بكونه راهباً ويتكاسل قليلاً فى الجهاد.. هذا وقد قال لنفسه أنه لا يستحق أيضا هذا الزى المقدس.. ولا يريد أن يعرفه أحد.

قلنا : هذا حق فإنه ليس له شكل الراهب، فى حين أن له صفات الراهب القديس، كما أن المكان لا يقدس أحداً بينما الإنسان هو الذى يقدس المكان وهكذا يمكن لشخص مبارك مثل (راجى) أن يكون أكثر تأثيراً من عشرة أماكن مقدسة.

والحق يقال أن قلاية (راجى) (وأسميها قلاية) قد أصبحت من أقدس الأماكن فى الدير، كما صارت حياته وسلوكه مثار تبكيت لكثير من رهبان الدير، الذين تواتروا عليه يفرحون لمجرد رؤياه أو الحديث معه.. ولكنه مع ذلك، اعتاد من جانبه أن يتهرب ويختفى فى اتضاع..

كذلك لم يفكر فى زيارة أحد من الرهبان أو يتحدث إلى أحدهم.. ليس ذلك فحسب وإنما لم يكن يعرف قلاية أى أحد منهم بل كان يجهل أسماء معظمهم.

ولكن مقابل هذا أغناه الله بنعمته وسربله بمجده، إذ قيل «إن التعزيات البشرية تمنع التعزيات السمائية». وأحب (راجى) قول للقديس نيلوس وكتبه على لوحة وعلقها فى قلايته يقول «إذا لم يقل المرء(١) أنه لا يوجد فى هذا الكون غيرى أنا والله فلن يصادف نياحاً».

ومرت عليه تسعة أعوام وهو على هذه الحال.. عرف خلالها الطريق إلى ميامر مار اسحق.. والقديس يعقوب السروجى.. وحفظ أغلب أقوال الفيلوكاليا (باللغة الانجليزية).

وخلال هذه الفترة كان يستأذن الأب المسئول عنه فى العمل فى

---

(١) فى الأصل (الراهب) ولكنه استحى أن يكتبها هكذا.

اجازة لمدة يومين أو ثلاثة ـ شهريا ـ يقضيها فى عزلة تامة فى حجرته مع بعض الخبزات وحبات الزيتون.. وبعض الماء .

واختفى من الدير فجأة ! إذ لم يجدوه بعد إحدى خلواته هذه، فبحثوا عنه، وانتظروا عدة أيام، قبلما أتى ذات مساء إلى الدير يعتذر عن تأخره، ولكنهم عوضاً عن أن يعاتبوه انتشر الخبر فى الدير، والتفت حوله الأباء يقبلونه ويسألونه أين كان.. ولما لم يجد ما يجيب به .. كفوا عن السؤال.

وأسرع (راجى) فحلق ذقنه بعد أن طالت خلال هذه الفترة وعاد إلى حجرته ثم إلى عمله فى الصباح، بشوشاً لطيفاً يشرق وجهه ببهاء عجيب وملائكية، وقد عرف الأب أكسيوس أين كان راجى كل هذه الثمانية أيام ولكنه لم يقل لنا أى شئ وقتها.

ومرت سنوات وسنوات، وقارب عمره على الثانية والأربعين عاماً وكان يقلق أحيانا عندما يفكر فى المكان الذى سوف يدفن فيه عند نياحته، غير أنه انتهر نفسه بأن الجسد سوف يعود للتراب أينما دفن وأن ما ينبغى أن يشغل باله هو : أين تذهب روحه.. وكان ذلك الفكر يأتيه كلما دق ناقوس الدير يعلن عن نياحة أحد الأباء، فكان يطوّبه ويتمنّى لو كان هو مكانه..

وحدث ذات يوم إن مرّ (راجى) على قلاية الأب أكسيوس، ومن خارج الباب همس فى أذنه بشئ عاد أدراجه بعدها إلى حجرته.. فخرج خلفه الأب وطلب إلى الأب المسئول عن العمال أن يرسل آخر مكان (راجى) اليوم.

وعند الساعة الثانية بعد الظهر مضى الأب أكسيوس إلى حجرة راجى وفتحها بهدوء فوجده قد تنيح وبجانبه رسالة كتبها قبل نياحته قال فيها :

«شكراً لله على كل عطاياه التى لا يعبرّ عنها.. وشكراً لكل أبائى الذين احتملونى وآزرونى بصلواتهم وتشجيعهم.. شكراً لاخوتى (العمال) الذين تعلمت منهم أكثر ما تعلمت.. شكراً لكل من سيضيّع بعضاً من وقته الثمين فى تكفين هذا الجسد الذى صنع شروراً كثيرة.. صلوا لأجلى لكيما أجد رحمة عند الله عند خروج روحى..».

وخرج الأب أكسيوس واخبر رئيس الدير والآباء.. والسؤال الذى فرض نفسه على الكل اين سيدفن راجى.. وقد فاجأنا رئيس الدير بأنه سيدفن تحت مذبح الكنيسة الصغيرة لكى يكون بركة لكل المكان..

وناح الآباء عليه أكثر مما ناحوا على بعض من أخوتهم الذين تنيحوا قبله.. إستطاعوا أن يحصلوا على صورة فوتوغرافية له وأعدّوا منها نسخاً لهم وضعوها فى قلاليهم، كما تسابقوا فى الحصول على أى شئ من حجرته كبركة.. ولم يجدوا فيها سوى جلباباً آخر وقطعتين من الملابس الداخلية، ووجدوا فى الطاقة ثمانية كتب مابين كنسية ونسكيّة وفوق المكتب الخشبى البسيط وجدوا ستة جنيهات ونصف، ثم كوب ماء فارغ وصليب يد خشبى متآكل.

هوان ومجد

«حدث ذلك فى القرن الخامس ببرية سيناء»

.. فلما إزدحم الدير براغبى الموت عن العالم.. ومحبى الفقر الإختيارى اشتاق بعضهم إلى الإنفراد فى بعض المغارات.. ومن ثم بدأوا فى أن يتخذ كل منهم لنفسه مغارة تبعد عن الدير حوالى ميل واحد من جهات مختلفة..

وكان الراهب الشاب زكريا ينظر إلى أولئك الذين بدأوا فى الحياة فى الوحدة وكله شوق إلى أن يحذو حذوهم.. وكان بذلك الدير الكائن فى برية سيناء تسعة عشر شيخاً مملوءين بهاءا ولهم وجوه الملائكة، فكان زكريا يتعلم منهم ويسألهم فى أفكاره وكان يجد فرحاً وراحة بالحديث معهم، وهم بدورهم لم يمتنعوا عن إجابته إلى أسئلته واستفساراته.

فلما سألهم ذات يوم أن يباركوه ليتخذ له مغارة فى بطن الجبل كسائر الذين سبقوه.. باركوه قائلين: الذى عال أبينا يعقوب وحفظه فى غربته، هو يمسك بيدك ويرافقك فى كل أيام حياتك.

ونهضوا بنفس واحدة يشتركون معه فى إعداد المغارة، ولهم فى ذلك خبرات كثيرة لكونهم قد بنوا ذلك الدير منذ سبعة وعشرون عاماً وتكبدوا فى ذلك أتعاباً لاتقدر من أجل عظم محبتهم فى المسيح. ومحبتهم لأولئك الذين سيأتون ويعيشون معهم فى ذلك الدير.

واختاروا معه صخرة تبعد عن الدير مسافة سبعة أميال، أى حوالى أثنى عشر كيلو متراً، واشترك بعضهم فى عملية الحفر والبعض الآخر

يحمل الماء اللازم من الدير.. والبعض يتفقد العمال، بالطعام، ثم الشيخ العجوز «بترا» الذى تجاوز السبعين عاما من عمره، إذ أخذ على عاتقه أن يقطع بنفسه الخوص اللازم لإتمام هذا العمل.

فإذا ماكمل إعدادها، اجتمعوا معه وصلوا وباركوا الموضع قائلين: «أثمر وأكثر وليكن أعداؤك كالحصى الذى تطأه، وليكن الرب هو طعامك وشرابك ومشتهى نفسك» ثم ودعوه وعادوا إلى الدير مبتهجين بعد أن أوصوه أن يداوم الصلاة والطلبة عنهم جميعاً.

فأقام فى تلك المغارة فرحاً، وكان يذهب إلى الدير مرة كل أسبوع ليتزود بالخبز وبعض البقول والماء، وكان الآباء يرسلون معه راهباً شاباً ومعه حمار يحمل مؤونته إلى المغارة.

وحدث أنه تعلم صنع (الطواقى) ورأى أنه من الممكن أن يسلمها لأحد الخفراء الذين يمرون بمغارته كل بضعة أيام، لكى يبيعها له ثم يشترى من ثمنها بعض مايحتاج إليه الأب زكريا من خبز وبقول وغيرها.. وقد خصصّ باقى الثمن للفقراء..

وعرف الاعراب القريبين من هناك الطريق إلى المغارة، واعتاد كثيرون منهم المرور به للصلاة.. أو للتصدق.. وأحبوه.. وهو بدوره ازداد شفقة بهم فتشجع بعضهم وضرب خيامه على بعد ميل واحد منه، بل أنه مع مرور الوقت ازدادت عدد خيام الأعراب بالقرب من المغارة.. وحسبه أكثرهم أنه أبيهم!

واقتصر ذهابه إلى الدير على مرة واحد كل أربعين يوما، يشترك

فى القداس الإلهى ويتقرب من الأسرار المقدسة، ثم يتزود ببركة الآباء فى الدير ثم يعود أدراجه فى صباح اليوم التالى إلى مغارته..

وتردد اسمه على كل لسان فى ذلك المكان.. وقصده كثيرون للبركة والانتفاع.. بل يذكر أحدهم الأعجوبة التى حدثت معه، فقد تعرض لتجربة قاسية فمضى من فوره إلى مغارة الأب زكريا يبث عنده شكواه فإذا به يفاجئه بقوله «كيف تترك الأتن تذهب وحدها إلى شاطئ البحر! ودهش الاعرابى.. ولكن الأب عاجله قائلا إذهب حالا وستجدها فى المكان الذى سأصفه لك، وانطلق الرجل بصحبة بعض الرجال إلى المكان الذى أخبرهم عنه فوجدوها هناك، وكانت المسافة التى قطعوها تقدر بثلاثين كيلو متراً.

وشهدوا له بالفضل وبروح الوداعة الساكن فيه وحكى أحدهم أنه مضى ذات يوم إلى الأب زكريا. أحد البدو الساكنين على مسافة بعيدة منه بصحبة ابنته طالباً الصلاة لأجلها.. فلما صلى عليها، عاد إليها نطقها الذى فقدته منذ عام ونصف.

ولكنه مع ذلك كان يأبى أن يأخذ منهم هداياهم. أو يقبل مديحهم، بل كان يقول لهم : مجاناً أخذتم.. مجاناً أعطوا وكان يقصد بذلك أن الموهبة التى تؤخذ مجانا من الله تعطى بدورها مجاناً إلى المحتاج.

وحدث بينما كان يصلى ذات ليلة، وكان الليل قد تجاوز منتصفه بقليل، أن استرعى انتباهه منظراً غريباً ناحية الشباك الصغير - على شماله - إذ رأى من الخارج شكل إنسان له رأس حيوان قد برز منها قرنين قويين وعينين تقتدحان شرراً، كما كان كله مكسوا بشعر أبيض، وكان

يلطم وجهه بيديه، ثم مالبث أن صار يصرخ بطريقة هستيرية ويضرب بأقدام من حديد فى الأرض. فرشم المجاهد ذاته بعلامة الصليب(*)، وهنا صرّ الشيطان على أسنانه ثم تلاشى مثلما يتبدد الدخان.

وخاف القديس قليلاً.. ولكنه مالبث أن عاد وتشجع إذ راح يردد الاسم الحلو لربنا يسوع المسيح بلذة، وبذلك استمد قوة إلهية، وأكمل صلاته بفرح، ولكن تولد لديه إحساس قوى بأنه لابد فى الطريق إليه أن تجربة قاسية يجرها عليه عدو الخير.

وقد كان..

إذ حدث من بعد خمسة أيام، أن كان أحد الأعراب الشبان يسير إلى بعض شئونه ، فوجد فى الطريق خيمة ومال عليها ليروى ظمأه وهناك وجد فى الخيمة فتاة بمفردها، وتحركت الشهوة فى داخله ولم يقدر على أن يضبط نفسه، فأذلها وسقط معها فى الدنس. ثم عند إنصرافه توعدها بالقتل، إن هى قالت أنه هو الذى أفسد عفتها، وإنما عليها أن تقول أن زكريا المتوحد هو الذى غرر بها.

وجاء ذووها ورأوها تبكى فلما سألوها عن سبب بكاؤها قالت إن زكريا قد مر بخيمتها وإحتال عليها وأخطأ معها.

وغلى الدم فى عروق والدها، واجتمعت كل ميوله الرديئة فى آن، وتمثلت فى مخيلته صوراً كثيرة أهاجته، وتخيل ماقد حدث، وما يمكن أن يترتب عليه، ومايجره من عار، فأقسم بكل كبير وصغير أن ينتقمنّ لشرفه.

(*) اعتاد الآباء على سبيل الاتضاع أن يرشموا ذواتهم فقط أمام الخيالات الشريرة.

وأرسل فاستدعى رجال عائلته الأشداء، واستطاع أن يلهب قلوبهم بالغيرة الكاذبة وظل يثبت فى ضمائرهم سموم الانتقام، حتى صاروا كلهم مستعدين لقتله.

فى الطريق حيث كان يحمل الرجل سيفه وبصحبته الستة رجال الآخرين أعدوا الخطة.. فلما وصلوا إلى مغارة القديس طرقوا بابه فى عنف.

خرج الأب فى هدوء ليستجلى الأمر، ففوجئ بشرذمة من الرجال، ألهب الغضب وجوهم بنيرانه وقبل أن يرحب بهم أسرع الرجل ورفع يده بالسيف ليضربه به فإذا بيده تيبس (تشل) ويسقط السيف!

وارتعد الرجال.. ولم يفهم زكريا البار شئ مما يحدث، ولما حاول الاستفهام منهم كانوا قد حملوا الرجل على جمل كان معهم وانطلقوا مسرعين. وفى الطريق عادت يد الرجل إلى طبيعتها ولم يرجعوا إلى خيمتهم وإنما اتجهوا صوب الدير وهناك تقابلوا مع الأب رئيس الدير، وبثوا لديه شكوتهم المرة من سلوك المتوحد وهم الذين اعتادوا خدمته وبيع عمل يديه واحضار مايحتاجه، وكيف أنه أعثرهم فى الكنيسة وفى الآباء - ثم قالوا له أنهم سيتركون الأمر بين يديه ليعمل مايراه مناسباً.

وعزاهم الأب بكلام كثير، وأحسن إضافتهم ثم صرفهم هادئين. ولكنه أرسل فاستدعى الأب زكريا إلى الدير، فلما جاء اجتمع بعض الآباء به وخجلوا فى البداية من سؤاله عما حدث.. ولكن الأب الرئيس تشجع واستفسر منه عما سمع من الأعراب، فلم ينكر بل صمت، كعادة الآباء الذين يحتملون الهوان فى شكر بينما يهربون من الكرامة. وألحوا عليه فى

السؤال وازداد هو إصراراً على الاعتذار.. وطلب الصفح.. واعطاءه فرصة للتوبة.

وجلس الآباء يتشاورون فيما بينهم، بينما جلس هو مطرقاً إلى أسفل يبكى، ثم قطع بكاءه قائلا : افعلوا بى ماتريدون.. ولكن فقط لاتطردونى من هذا الموضع لأن فيه توبتى.

واستقر رأى أكثرهم فى النهاية على الاكتفاء. بإعفائه من ممارسة الكهنوت لمدة ثلاث سنوات. وقبل هو الحكم شاكراً راضياً وأردفوا قائلين له : من الآن أيضا يليق بك ألا تستقبل أحداً فى مغارتك أو تخرج للقاء أحد.. ونحن بدورنا سوف نرسل لك من الآباء من يتولى تسلم عمل يدك وامدادك بما تحتاج إليه.

ومن ثم رجع إلى مغارته متعزياً.. يصلى ويسبح ويشكر الله الذى أعطاه أن يشترك معه فى آلامه، وفتح له ينبوع تعزية جديد، ويدخل فى زمرة المستحقين لتحنن الله وكثرة رأفاته.

فى الأيام التى تلت تلك الأحداث كان المار بمغارته يمكنه أن يسمعه يصلى قائلا : «يا إلهى الحنون.. لقد أصابنى هذا كله بسبب كبريائى وسابق خطاياى ونجاساتى، فكيف احتملت أنت الذل والهوان من أجلى أنا الخاطئ، رغم أنك بلاخطية لم يكن هناك من يقف معك فى شدتك، مع أنها كانت لإذابة شدتنا، أما أنا فإنى خاطئ وقد غمرتنى باهتمامك وعظم خيراتك، ليتنى أفضح وأهان هنا، على أن تضمنى إلى حضنك هناك فى بيتك الأبدى، ليقال عنى مايقال، فلست أجعل سلامى فى أفواه الناس ولن أضع قلبى على كل الكلام.. بارك عملى وقدس

فكرى وأجعل شخصك أكلى وشربى وحياتى. وأقبل طلبتى لأجل أولئك الذين جلبوا على رحمتك .. بسبب افتراءاتهم على عبدك، باركهم وانهض قلوبهم بالتوبة ليكونوا لك »..

وكان يحضر إلى الدير مرة كل أسبوعين، يتبارك من الآباء ويصنع ميطانية لكل واحد طالبا الحل والصلاة عنه، ثم يقف فى آخر الصف كأصغر الموجودين، ثم بعد ذلك يترك عمل يديه لذلك الذى كلفه الدير ببيعها له، ويأخذ مايكفيه من الطعام والماء وينطلق إلى مغارته وحيداً رافضاً أن يصحبه آخر.

وخلال السنة التى تلت هذه الأحداث، كان إذا رآه ذلك الأعرابى عن بعد أنه يطلق عليه كلابه لتؤذيه.. ثم يشتمه ويسبه بأقبح الشتائم.. ولكن البار كان يحتمل كل ذلك فى شكر وصبر عجيبين.

وحدث أن أتى بعض الأعراب ذات يوم إلى الدير ومعهم شخص به روح نجس يطلبون إلى الآباء إقامة صلاة عنه لكى يفارقه الروح النجس، فسلمه الآباء بدورهم إلى شيخ فاضل لكى يصلى له، وعندما بدأ ذلك الأب فى الصلاة صرخ الروح النجس.. فتجمع آباء آخرون مع الأب المصلى، فإذا بالروح النجس يتكلم فى المريض معلنا - بغير إرادته - أنه هو الذى أخطأ مع ابنة الأعرابى وأن الأب زكريا برئ ! ثم خرج لتوّه من المريض بعد أن صرعه على الأرض.

فلما أفاق أعاد عليه الآباء الكلام الذى قاله الروح النجس، فاعترف بكل شئ ولم ينكر. كما أصر كذلك على الاعتراف لوالدها لينال بذلك جزاء شره المضاعف.

فلما ذهب إلى والدها وأخبره بكل شئ. تحير الرجل وارتعد وأسرع فجمع أفراد قبيلته الذين ذهبوا قبلا للانتقام من الأب زكريا، وتجمع كثيرون أيضا معهم واتجهوا جميعهم إلى مغارة الأب..

وهناك وجدوا مجموعة من الآباء الرهبان عنده فى المغارة، وسجد الرجل عند قدمى القديس الذى سجد له بدوره، واعتذر الاعرابى ولكن الأب زكريا طمأنه أن كل الأشياء للخير. وسألهم إن كان الشاب اعترف بالفعل وأنهم لم يفعلوا ذلك مجاملة له، ولكن الرجل الخاطئ كان معهم فاعترف للمرة الثالثة أمام القديس، وحينئذ طمأنهم الأب جميعا مرة أخرى بأنه غير متضايق وليست لديه أية كراهية لأحد منهم. وأخبرهم بقصة الشيطان الذى ظهر له فى ذات الأسبوع الذى اتهموه فيه بالزنا. ثم أخبرهم أيضا بأن هذه الضيقة قد جلبت عليه بركات كثيرة، وصرفهم هادئين البال منتفعين ومتزودين بالحكمة.

وطلب الآباء بدورهم الصفح.. ولكنه قال لهم : أنهم كان يجب عليهم أن يفعلوا ذلك من أجل منفعة الخطاة ولأجل سلام الدير وعثرة الناس. ومع ذلك طلب إليهم أن يحاللوه فى أن يترك المكان إلى موضع آخر يختاره هو ، فحزنوا وألحوا عليه فى أن يبقى معهم ولكنه أصر على الرحيل، وأسرع حيث ترك مغارته إلى موضع آخر لم يعرفه أحد منهم وعاش هناك بعيداً عن كل كرامة من المحتمل أن تأتيه نتيجة ماحدث، وذاق عربون بهاء القديسين ومجد ابن الله إلى أن تنيح بسلام. بركاته فلتكن معنا آمين.

عن كتاب أقوال الآباء الشيوخ (بتصرف) .

تضحية أب

ما أن دخل الراهب نوفير إلى الإسطبل، الكائن فى الركن الغربى البحرى من الدير بجوار الباب، حتى رمقه الحمار المربوط بالداخل، بنظرة توسّل وكأنه يرجوه أن يرحمه من ذلك العمل الثقيل والمملّ، والذى لم يتغير لسنوات طوال.

ولكن الراهب كان مضطراً، فهذا ترتيب الأب الرئيس، وهذا هو الاحتياج الذى لا بديل له، فقد اهتدى الآباء إلى طريقة يحصلون بها على مادة يستخدمونها فى البناء وفى (محارة) الحوائط، فكانوا يجمعون الجبس من الصحراء ويقومون بإحراقه فى الفرن ومن ثم يقومون بطحنه فى طاحونة خاصة.

دخل الراهب فى خطوات محسوبة (لتكرارها) وانحنى فوق الوتد، ليحل منه الحبل الممسك بالحمار، ولو خيروا الحمار، لاختار الأسر فى الوتد على العمل تحت النير، ربت الراهب على ظهره قائلاً (هيا يا مبروك)، وولّى ظهره له ثم سحبه فى هدوء إلى الخارج، بينما الحمار يتعثر فى مشيته وتتشبث حوافره فى الأرض، يتمنى كل الأيام آحاداً وكل الأوقات ليالٍ، ليعتق من هذا العمل.

وفى حجرة الطاحونة، شُدَّ الحمار إلى النير، بعد أن وضع ساتراً على عينيه (هكذا يفعلون لكى ينظر أمامه فقط) ثم لكزه بيده وكأنه يعطيه إشارة البدء، ويدور الحمار فى دوران بطئ، مديراً معه عارضة مثبتة فى قائم يدور هو الآخر ولكن حول نفسه، وحول العارضة يدور حجر طاحون صلد، ليطحن الجبس.

ويمضى الوقت وئيداً، ويدور الحمار، وتئز الحصى تحت الحجر، وتنتشر ذرات التراب البيضاء لتدخل إلى رئتى الراهب، ولتكسو ملابسه ووجهه بطبقة رقيقة بيضاء، بينما هو واقف يراقب سير العمل، وبين آن وآخر يعيد الحصى - الذى فرقه الحجر - فى صف واحد فى إنتظار أن يطحنه الحجر - وبين آن وآخر يتمتم بصلوات سهمية قصيرة..

وكلما أتم طحن شئ من الجبس ناعماً، عبأه فى أكياس، وأعده للعمال الذين سوف يستخدمونه فى أعمال البناء.

وتمضى الأيام.. ويتطرق الملل إلى الراهب نفسه، ويجلس ذات ليلة يحدث نفسه..

(.. وما الداعى لكل هذا ؟!

يقولون أن الهدف من العمل هو اقتناء الفضائل، ولكن الإرهاق يمنعنى من إتمام واجباتى الروحية، ويجعلنى أكثر تذمراً وأقل احتمالاً..)

ثم تحسّس كتفه الأيمن، مكان الرقعة التى مات الجلد فيها من فرط ماحمل عليها من قفف الجبس من وإلى الطاحونة، تلك الطاحونة التى قضى فى العمل فيها مايزيد على أربعة سنوات ونصف السنة، ثم الثياب التى تحتاج كل يوم إلى غسل.. والسعال الشديد الذى يعانى منه بسبب امتلاء رئتيه من ذرات الجبس.

وسرح بفكره.. وفى يقظته حلم حلماً.. فقد وجد الطاحونة وقد اختفت تماماً من بين أبنية الدير - ثم إذا فى مكانها أقيمت قلاية صحية ومريحة.. سكن هو فيها.. وصار يقرأ ويصلى ويرتل..

ثم لاحت له فكرة، لماذا لا يذهب إلى أب الدير، ويسأله أن يعفيه من العمل فى الطاحونة ؟ ولكنه عاد ليبتسم ساخراً من نفسه، فمن أين له بذلك، وليس له من الحجة ما يجعل الأب يجيبه إلى طلبه؟

وانتبه مرة أخرى فإذا الحمار قد تعثر فى سيره، فقام ليصلح له السرج، والنير، وبعد ذلك تراجع قليلاً حتى استند بمرفقه إلى الحائط، واستسلم مرة أخرى لملاطمة الأفكار.. ورأى ذاته يضرب بقدمه فى الأرض وهو يتمتم فى قنوط.. لابد من نهاية.. واليوم..

ففى الليل، تسلّل إلى الطاحونة (حيث كان الشيطان يرقص) وغاب داخلها دقائقاً، وانطلق بعدها فى خفة وهدوء إلى قلايته، ثم ماهى إلا دقائقٍ، حتى تعالت الأصوات، وارتفعت ألسنة اللهب، وتكاثف الدخان وسمعت قرقعة من الداخل.

وهب الرهبان من نومهم أو من خلوتهم، واندفعوا نحو مصدر الصوت والنار وسحب الدخان، وكثرت الحركة وزاد اللغط والصياح.. وحمل البعض ماءً فى بعض أوان فخارية مختلفة الأشكال والأحجام، والبعض الآخر حمل قففاً من الرمال.. وتمتم الشيوخ بصلوات.. استدراراً لمراحم الرب ولطفه.

وخمدت النار، ولكن بعد أن أتت على كل مايسمى خشباً داخل الطاحونة، القوائم والعوارض والأبواب والشبابيك، والنير والسرج والرفوف والسقف، كما لفحت النار بعض وجوه وأذرع الغيورين.. ونظر الأباء بعضهم إلى البعض الآخر فى دهشة وتساؤل، ولكن ارتفعت أيضاً عبارات الشكر من الأفواه، لأن الأمر لم يتجاوز ماحدث.

(٢)

فى قلاية الأب يعقوب، جلس الراهب نوفير يروى مافعل، وقد اختنقت عبراته، ولكن الأب الكبير هدأ من روعه، وأمره أن يلتزم الصمت تجاه ماحدث وأن يترك له الأمر كلية.

كان الأب يعقوب يعرف أن العقاب المناسب فى مثل تلك الحالة، هو الطرد من الدير لمن أقدم على مثل تلك الفعلة الشنعاء ولكن قلبه نبض حباً، وتأججت نار الأبوة الروحية بين جنباته، خاف على ابنه الروحى من الضياع، واليأس الذى يفغر فاه ليبتلعه خارج باب الدير.

وفكر طويلاً.. ثم قام من فوق الأريكة التى كان يجلس عليها، ودس رجليه فى النعل القديم، وانتصب يصلى طويلاً، قبلما قبّل (صورة السيد المسيح فى جسثيمانى) المعلقة خلف باب قلايته، ثم خرج إلى خارج، وقد باتت نيته على شئ.. وقرّ فى نفسه قراراً

أصبحت الطاحونة مسرحاً، يرتاده بين الحين والآخر، راهب أو اثنان، يعاينا ماحدث، والحوائط التى اتشحت بالسواد، والرائحة الخانقة التى أمسكت بتلابيب الحجرة، مع شئ من الضيق والدهشة.

وبالقرب من المكان، وقف الأب زكريا أمين الدير، وقد عقد كلتا يديه على رأس عصاه وأراح ذقنه فوقها، يفكر ملياً ، ولعلهم - الآباء وأمين الدير - كانوا يفكرون فى ذلك الوقت فى استشارة الأب يعقوب فى هذا الشأن، نظراً لحنكته ومحبته الدافقة، ولما هو معروف عنه من حكمة وخبرة ووقار.

حين فاجأهم جميعاً وهو يرتدى ملابساً كاريكاتورية ، ويضحك فى

جنون ضحكات بلهاء، ويشير إلى الطاحونة وهو يقول (هذه أولى إنجازاتى.. وسأوالى الجهاد تباعاً.. ثم ضحك مرة أخرى، كما يضحك السكارى..

والتفت الآباء وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، فما عهدوا فيه، إلاّ المشير الحكيم والرأى الراجح، وخط الرجعة عند كل خلاف !

عند ذلك تقدّم هو ، من الأب زكريا، وقال له فى بلاهة مصطنعة: خداع شياطين.. (ثم بصوت أعلى) ما جئنا لنطحن.. وننسى هدفنا.. الفضيلة والتوبة.. سأطهّر الدير، سأرغمكم على الامتثال للحق الرهبانى..

وأما الراهب نوڤير فقد جلس يبكى فى قلايته ولم يغادرها، ولم يتهمه أحد بشئ، وإن كانوا قد سألوه، ربما يكون قد ترك مصباحاً مضيئاً نسيه قبل أن يغادرها ، فأجابهم بالنفى.

وبعد تشاور كثير، وأخذ وعطاء، وشد وجذب، واختلاف ثم اتفاق، أقروا جميعاً وجوب أن يعالج الشيخ.. ولم تعد القضية قضية حجرة احترقت وانما بالأحرى قضية الأب يعقوب الذى راح عقله «حسب اعتقادهم» ولكن كيف وأين؟! واصطحب الأب زكريا معه اثنين من الآباء الرهبان، وتوجهوا إلى حيث توجد قلايته، وهناك فى القلاية ، لم يحتف بهم ولم يكترث، وهم بدورهم لم يبالوا بذلك، وإنما بعد تردد كثير.. قالوا له:

«أنت مرهق ومتعب فوق الطاقة.. وقد رأينا أنه من الأوفق لك أن تستريح فى مكان هادئ لفترة، وتجئ بعدها إلى الدير» .

ولم يناقشهم.. ولكنه لم يكن يحسب أن الأمر سيصل به إلى أن

يحملوه إلى مستشفى الأمراض العقلية! ورضى بذلك، وحملوه إلى هناك حيث تركوه ومضوا..

وعلى باب الدير، وقف جمع من الآباء يشيّعون الأب يعقوب بنظرات ملؤها التساؤل والشفقة، وعرض أحد أبنائه الروحيين متطوعاً أن يرافقه فى المكان الذى سيتركونه فيه، ولكنهم اعتذروا له، ونصحوه أن يحول هذه الرغبة إلى طلبة يقدمها عنه فى كل صلاة.

وفى أثناء كل ذلك، كان الأب يعقوب، يردد بصوت يكاد لا يسمع: عار المسيح غنى.. عار المسيح غنى..

(٣)

فى السراى الصفراء، تم استقبال الأب يعقوب صليب المسعودى، وقد تم تدوين اسمه فى السجل الذى يحوى نزلاء المستشفى، وتشخيص حالته بأنها (لوثة عقلية مفاجئة) وهناك وضعوه فى عنبر المستشفى مع خمسة آخرين، تحت المراقبة..

وفى كل التقارير التى دونت عنه ، جاء أنه شخص عادىِ لا يصدر عنه مايشكك فى سلامة عقله، ولكن إدارة المستشفى لم تر فى ذلك دليلاً قاطعاً على سلامته، أو مبرراً لتسريحه من المستشفى، بل استصوبوا التحفظ عليه لفترة.

وكان بين نزلاء هذا العنبر، موجّه سابق للغة الفرنسية، اعتاد هذا على ذرع أرضية العنبر جيئة وذهاباً ـ أغلب النهار ـ فى اتجاه قطرى، أى من الزاوية إلى الزاوية المقابلة لها، وهو يتمتم بكلمات فرنسية، فيما عدا

هذه الأوقات، كان يبدو عاقلاً صدوقاً حكيماً.

وعرف منه الأب يعقوب، بأنه كان مولعاً باللغة والأدب الفرنسى، وأن حادثاً مريراً حدث له فذهب بعقله، لدرجة أنه كان يصرخ بين آن وآخر بشكل مباغت..

ورأى الأب يعقوب فى نزلاء العنبر، النفس البشرية المفعمة تعباً ومرارة، وإن كان متأكداً بحكم خبرته وسنه، أن المجنون يحسب نفسه دائماً أعقل العقلاء، كما ينظر للباقين نظرة استخفاف، وبأنه (أى الأب يعقوب) مطالب بتسديد الخدمة لأولئك المساكين، فأحبهم وبادلوه حباً بحب، وأسروا إليه بمتاعبهم وأسرارهم، وهو خبير بالنفس البشرية ونزعاتها، والشر الدخيل عليها.

فأكد لهم فيما أكد، أنهم أشخاص فوق العادة، موهوبون يفكرون بإمعان فى كل شئ، ولا يحبون تجاوز أى موقف دون تعليق وتفاعل، وبأن المجتمع أساء فهمهم، أو فشل فى التعامل معهم.

وفى ذات مرة صرح لهم وكأنه ينصب شبكة المسيح.. «..كلنا مجانين، وكل إنسان به نسبة من الجنون، وإنما هناك من يحرص على إخفائه، وهناك أيضاً من يدعه يعلن عن نفسه فيه..» وحينئذ صاحوا يهتفون : يسقط القسر.. يسقط الفساد.. المجتمع يظلمنا.. يحيا..

وصار أباً لهم.. يحكى لهم، ويسمع منهم، ويتسع قلبه لهفواتهم ونزواتهم واذاهم فى بعض الأحايين، ولكن حدث أن أقسم له ذلك الموجه ، أنه ولابد أن يعلمه اللغة الفرنسية، ووافق الأب يعقوب، حقناً للشجار والخلاف، وثابر الأستاذ فى التدريس، ووجد الأب يعقوب ، أنه لا مناص

من الإصغاء والامتثال لتعليمات المدرس العلمية ونصائحه، وفى شهور قليلة استطاع أن يحرز تقدماً لا بأس به.

وازداد المرضى اقتراباً منه، وظهر تأثيره فيهم من خلال تصرّفاتهم، فقد قال لهم ذات مرة ما قاله الأب انطونيوس، من أنه يأتى وقت يجنّ فيه الناس جميعاً، وأما الذى لا يجدونه مثلهم (يعيش بتعقل)، فإنهم يرمونه بالجنون والبلاهه، وأنه ليس بالضرورة فى شئ، أن نفعل ما يرضى الناس، والناس لا يرضيهم شئ واحد، بل كلٍ له هواه ومنهجه، وإنما نفعل ما يرضى الروح القدس داخلنا، وإذا كان لكم تحفظ على ما أقول من أن الضمير يتأثر بعوامل كثيرة كالبيئة، وما نقرأه وما نسمعه، قلت لكم يحسن بنا أن نستشير ذوى الفضل والحكمة، وأن نكثر من القراءة.

فرمقوه بإعجاب ، وهزوا رؤوسهم حاثين إياه على الاستمرار بينما انتاب أحدهم ابتهاج طارئ، فرفع طبقاً بلاستيكياً به خضار ثم أسبل جفنيه، وراح يسكب ما فيه فوق أم رأسه، فى هدوء وحبور!!

وأردف الأب يقول.. غير أنه لابد وأن نعى جيداً، أنه لن تجرى الأمور وفق ما نشتهى، ولن نستطيع أن نصلح الكون كله دفعة واحدة، وبجرة قلم، ولكن الأمر يحتاج إلى تفكير بموضوعية، وأن يقوم كل منا بالواجب المنوط به فى أمانة، ومن المستحيل أن نحسب كل الناس مثلنا ذكاءً ومنهجاً، بل علينا أن نؤمن بالتفاوت.

حينئذ صاح أحدهم، ولكن يجب محاربة الانحلال ، بلا هوادة

وأجاب : نعم.. نعم.. ولكن بالحكمة لا بالقوة، فالقوة كما تعلمون هى سلاح ذو حدين.

ولكن آخراً قام وركل الأب يعقوب فى جنبه قائلاً : أنت «بياع كلام» ، فأجاب فى دعة قائلاً : أبداً وإنما أنا أهدى لكم ماتعلمته منكم. وأثناء ذلك كان العنبر يعج بنزلاء أتوا بتصريح من عنابرهم..

وتمضى الأيام، ويظهر تقدم ملحوظ على النزلاء ، فهم أكثر ميلاً إلى الرزانة، وأقل تهافتاً على الشجار والهرج، وصار أكثرهم مستعداً للخروج من المستشفى، ومدير المستشفى يقول لزائريه من أصدقائه، وهو يتحدث عن الأب يعقوب.. «جاء على أنه مريض، وإذا به طبيب..».

ومرة أخرى قال.. «أستطيع أن أوكد الآن، بما لايدع مجالاً للشك، أن هذا الأب افتعل ما جعلهم يحملوه إلينا، وأما أنا فقد تعلمت درساً لن أنساه ما حييت : أن لا آخذ بالوجوه..

(٤)

فوجئ مدير المستشفى ذات صباح، بالأب زكريا (أمين الدير) يحضر بصحبة أربعة من الآباء الرهبان يسألون كعادتهم (كلما جاءوا للزيارة) عن الأب يعقوب، فإذا به يبشرهم بأنه يمكنهم اصطحاب الأب يعقوب فى أى وقت منذ الآن، وأرسل فاستحضر الأب يعقوب لكى يزف إليه البشرى بالخروج ومعه ستة من النزلاء الآخرين، فإذا به يفاجأ الكل بقوله:

«.. هنا زى هناك.. ويمكن هنا أحسن..».

وكتب المدير فى التقرير : «أعتقد أن هذا الأب تظاهر بالجنون، بينما هو عاقل ومتزن، ويتمتع بقدر وافر من الحكمة واللباقة، وهدوء النفس، وعموماً فقد كان مقدمه بركة لنا ولجميع من بالسراى..» وحمله الآباء معهم، بعد أن شيّعهم العاملون بالمستشفى بالإكرام.. وبعضهم بالدموع.

وقال الآباء بالدير فيما بعد، إن تلميذ المسيح بركة إينما حل وشهادة قداسة لكل أحد، ويقدّس المكان الذى يحلّ فيه..

وكان مدير السراى يأتى إلى الدير بين آن وآخر، ليجلس مع الأب يعقوب يسمع له فى خشوع ويقبل يديه، وعندما سأله ذات مرة لماذا صنعت هكذا يا أبانا؟ ابتسم فى وقار ولم يجب..

+ + +

هذه لقطة من سيرة المغبوط القمص يعقوب صليب المسعودى.

* ولد حوالى عام ١٨٥٩ م فى قرية الشيخ مسعود بطهطا.
* دخل الدير للرهبنة فى ٤ طوبة سنة ١٦٠١ش الموافق ١٨٨٤م.
* رسم قساً فى ٩ هاتور سنة ١٦٠٤ش الموافق ١٨٨٧م.
* وقمصاً فى ١٤ بابة سنة ١٦١٣ش الموافق ١٨٩٦م.
* وتنيح فى ١٦ توت ١٦٥٣ش الموافق ٢٦ سبتمبر ١٩٣٦م.

وجدير بالملاحظة ـ أنه شقيق القمص عبد المسيح صليب المسعودى البرموسى (العلامة الشهير).

سردنا هذه الواقعة بتصرف، فى قالب قصصى معتمدين فى ذلك على التاريخ الحديث المدون فى الدير مع التقليد المتوارث من الآباء فى تاريخ الدير الحديث، بل يوجد من شيوخ الدير من شاهد ذلك الأب عياناً قبل نياحته.

ومازال الآباء حتى اليوم يذكرون هذه الواقعة بإعجاب شديد وتقدير كبير كدليل رائع على محبة الأب وتضحيته لأجل أولاده فإن كان المسيح وهو البار قد مات عن الخطاة فقد تعلم هذا الأب من سيده ولم يجد غضاضة فى أن يُعاقب بدلاً من ابنه، فى رضى وفرح.

بركة صلاته فلتكن معنا آمين.

محبة المسيح تحصرني

تخرج (ياسر) فى الخمسينات فى كلية الهندسة، والتحق بالعمل فى شركة أجنبيه بالإسكندرية، وقد تجاوز راتبه الشهرى آنذاك (المائة جنيه)، وكان وحيداً لأسرة موسرة لها أملاك واسعة وعدة أرصدة فى البنوك، وربما كان هذا هو السبب خلف اعتياده أن ينفق ببذخ ويحيا حياة أرستقراطية مترفة، وأما البعد الروحى له فقد كان باهتاً.. كانت له اهتمامات أخرى.

فقد ألف الحفلات والسهرات، يخرج فى الثامنة مساءً ليعود عند الفجر، وأما أفراد أسرته فقد كانوا لاهين، أحدهم عن الباقين - كان لكل منهم عالمه الذى يغوص فيه.

وعرف بعض الآباء الطريق إلى منزلهم، وزاروهم مرة واثنتين، ونصحوهم بالالتفات إلى خلاص نفوسهم والاهتمام بحياتهم الروحية، ووعدوهم (أى الأسرة)، خيراً، غير أن اهتمامات العالم عادت لتحوطهم وتحاصرهم من جديد.

فى ذات مساء تقابل ياسر مع أحد الآباء الرهبان، كان الراهب واقفاً على رصيف إحدى المحطات فى طريقه إلى «مستشفى ڤيكتوريا»، فرقّ قلبه له، وأوقف سيارته ودعاه ليركب معه ينقله إلى حيث يشاء، ولكن الراهب تمنع قليلاً فى حياء قبل أن يصعد إلى جانبه، ولم يقل طوال الطريق الذى استغرق نصف الساعة، سوى اسم المستشفى ، وحالما هبط الأب من السيارة، انطلق ياسر إلى حيث كان أصدقاؤه ينتظرونه، وأكمل ليلته كما اعتاد أن يقضيها.

في تلك الليلة، عندما لجأ إلى سريره لينام، داعبت مخيلته صورة الراهب، فتعجب.. وشرد بذهنه قليلاً، فتخيل لو أنه صار راهباً !!، ولكنه سرعان ما سخر من نفسه ضاحكاً، ولطم خده لطمة خفيفة، يعاتب بها نفسه.

كان أبعد ما يكون عن أن يترهب! لقد سمع عن الرهبان الكثير والكثير، فسمع أنهم يموتون ويدفنون بعيداً عن مدافن أسرهم وربما لا يدرى أهل الراهب بموته إلا بعد مدة طويلة (شئ مؤلم) وعرف أنهم يحيون داخل جدران أربع، لا نزهات ولا حفلات ولا أصوات طرب ومرح.. بل ذرف دمع.. وقرع صدر.. سجود دائم.. حزن دائم.. مسوح.. رماد.. نحيب، والشعر مخفى، والملابس سوداء، .. شئ يفوق الوصف.. تعب لاينتهى!

وانزعج وحاول طرد هذه الأفكار لينام.. فنام.

لقد كان يشترى ملابساً كاملة كل شهرين! حتى تكدّس صوان ملابسه بعشرات الأطقم، ما أن يرى شيئاً جديداً على جسد آخر، أو فى فترينات العرض، حتى يسارع باقتناء مثله، عدا العطور والمشغولات الذهبية وإسرافه فى الطعام والشراب، ولقد امتلأت حجرته الخاصة الفسيحة فى منزلهم بكل ما تتخيله وما لاتتخيله.

وترهب ياسر!!!

وفوجئنا جميعاً بذلك، ولم نجد مبرراً لهذا التغيير الطارئ، ولايمكن أن يقال أنه أعد ذاته لتلك الحياة، والدليل على ذلك أن كل شئ فى الحياة الديرية كان جديداً عليه.

فقد سأل هناك ـ فى اليوم الثانى أو اليوم الثالث لدخوله الدير ـ ماذا تعنى كلمة ميطانية ؟ وإذا صادفنى راهب فى الطريق فماذا أقول له، وماذا يقول الراهب لأخيه عندما يصافحه فى الكنيسة، إضافة إلى أسئلة كثيرة تتعلق بالبديهيات.

وقد تكّبد فى الرهبنة أتعاباً شديدة، لقد أسند إليه المسئولين فى الدير، أن يعمل فى تنظيف حمامات الدير وبعض مواضع أخرى، فكان يقضى شطراً كبيراً من يومه فى ذلك العمل، وشيئاً فشيئاً يبس جلد يديه وامتلأت ملابسه بالبقع واتسخ وجهه، لقد صرف ليلة كاملة حتى الثالثة صباحاً ـ حين دق ناقوس التسبحة ـ وهو يقوم بتفريغ خزان الحمامات (الترانش).

كانت نفسه تصعب عليه كثيراً فينتحى جانباً ليبكى بمرارة ولا يكف قبل أن يشيع الله الطمأنينة فى قلبه، لقد كان فى حياته السابقة مدللاً إلى حد غير مقبول، وعندما شاهدته أمه على حين غرة وهو فى ملابسه القذرة وبؤس حاله، بكت مشفقة عليه مما هو فيه. وقد قابل شفقتها بصمت مطبق وملامح هادئة وعينين مرخيتين.

فبعد أن كان يحيا فى بحبوحة من العيش فى منزل كبير عريق، تعمل فيه عدة خادمات وطباخ وسائق وعامل حديقة، الآن يحيا حياة العوز فقد كانت قلايته هى الأكثر بساطة بين قلالى الرهبان، وكنت تراه جالساً فيها فوق حصير بالٍ، يرتق جورباً أو يركب زراراً لثيابه، وكان مايزال فى الثامنة والعشرين من عمره.

أما أسرته والتى رُوّعت لخبر رهبنته، فقد كانت تحضر له بين

الحين والحين يزورونه حاملين معهم طعاماً شهياً أعدوه، وملابساً مناسبة وبعض الهدايا له، مع هبات أخرى للدير، إضافة إلى دموع غزيرة يسكبونها فى حضرته وهم جلوس معه.

وكان هو إزاء ذلك، متجلداً قوياً، يطلب إليهم فى اتضاع أن يصلوا عنه، ثم يوزع كل ما أحضروه من طعام وملابس وهدايا، مكتفياً بما يقدمه له الدير.

هذا وقد اتخذت الشياطين من هذا الفارق الشديد، بين حياته فى العالم وحياته فى الدير، مادة هامة وغزيرة وخطيرة، فى حربهم معه، فقد استطاعوا أن يجمعوا كل مواقف حياته الهانئة السهلة الناعمة منذ طفولته حتى تركه للعالم، وصاروا يوجهونها إليه كالسهام، بين الآن والآخر لكى يقلقوه. مختارين أشد الأوقات حرجاً وضعفاً بالنسبة له.

وأما هو فقد كان مسكيناً يتألم ويبكى، وينظر إلى صورة السيد المسيح، تلك الصورة التى يرى فيها السيد المسيح واضعاً الكتاب فى شماله ورافعاً سبابته اليمنى، ينظر إليها فى صمت ودونما كلام.. ثم يهدأ ويبتسم حالماً يخيل إليه أن الله يطمأنه بأنه معه.

لقد كان يخجل من كثرة الطلب إلى الله !.. يخجل من الإلحاح!.. فيكتفى بالنظر، أو بتقبيل الصورة فيسرى السلام بين جنباته.

وكان بعض من أصدقائه، وكلهم من طبقة الأغنياء، يأتونه بين آن وآخر فى سياراتهم الفارهة، ليس على سبيل الوفاء فقط، بما تقتضيه الصداقة، وإنما رغبة منهم كذلك فى الإطلال على تلك الحياة التى اختارها رفيقهم فجأة ودون مبرر مقبول فى نظرهم، وحقيقى أن مثل تلك

الزيارات كانت تحرك أوجاعه قليلاً، فى بدايتها إلا أنها فقدت سلطانها عليه بعد ذلك.

فى ذات مرة وبينما هو يجلس تحت أشعة الشمس يقرأ فى الكتاب المقدس، ويضع خطوطاً خفيفة، جاءه من أخبره بأن عمه قد وصل فى أمر هام، فلما انتحى به جانباً عرف منه خبر انتقال والده، وفزع.. وصمت طويلا، وتجلد لكى يخفى انفعالاته، غير أنها كانت أكبر من احتماله فبكى منتحباً.. ولما هدأ وعرض عليه عمه أن يرافقه ليخفف عن أمه وأختيه، اعتذر وتمنع فى جدية وحياء.

وظل شارداً قلقاً، إلى أن جاء عمه مرة أخرى بعد مرور أربعين يوماً، ولكن بصحبة والدته وأختيه فى هذه المرة، كانت آثار الحزن بادية على ملابسهم ووجوههم وأصواتهم، وقبل انصرافهم طلبوا إليه أن يصحبهم لإنهاء إجراءات الإرث، ولكنه رفض بشدة قائلاً «إن ميتاً لا يرث ميت» إمضوا واصنعوا ما يحلو لكم، لأنه لا رأى لى فى ذلك، بل إنى مستعد للإقرار بتحويل كافة حقوقى لكم، وحاولوا ثانية، ولكنهم أمام إصراره تركوه وشأنه.

واتجهوا إلى رئيس الدير، يعرضون عليه تقديم نصيبه إلى الدير، وكذلك سيارته التى كانت لاتزال موجودة، ولكن الأب الرئيس أبى ذلك بشدة.. وألحت الأسرة فلم يجنوا إلا مزيداً من الإصرار على الاعتذار مع مزيد من الشكر والدعاء.

ومرت شهور وسنوات.. وصار راهباً محبوباً.. نشيطاً.. مطيعاً، كان يُذكرّ الآباء ببنيامين الابن الأصغر لأبينا يعقوب.. يأتى فى هدوء

ويرحل فى هدوء.. لا يشعر أحد بوجوده ولا برحيله.. تماماً مثل النسيم.. مبهج فى حضورة ككوب الماء البارد فى قيظ الظهيرة..

ومع أنه لم يكن يفكر قط فى عامه المقبل أو غده، يعيش يوماً بيوم، إلا أنه صار هدفاً هاماً للشيطان.. الشيطان الذى يصطاد الضعفاء مثل صغار السمك.. بينما يقف طويلاً أمام سمكة كبيرة.. وهكذا تركزت عليه الحرب طوال الخمس سنوات التى قضاها فى الدير..

وهاجمته الأفكار الشريرة بلا هوادة.. فكر فى دراسته.. وفى عمله.. ثم فى الراتب الكبير الذى كان يتقاضاه، ثم فى الفتاة التى أملت يوماً ما أن ترتبط به.. فى الكازينو الذى اعتاد - لفترة طويلة - السهر فيه مع مجموعة من أصدقائه..

كان مايزال فى الثلاثين من عمره.. وعندما تذكّر ذلك انزعج حين تصور أنه سيحيا على تلك الحال إلى سن السبعين مثلاً..

وقال فى حرقة: إن لم يبن الرب داخلى بناءً مستمراً : فلن أستطيع المواصلة فى هذه البرية.

والحقيقة أن تلك الليلة، كانت من أقسى الليالى التى مرت به فى الدير، وقال ما قاله القديس موسى الأسود حين مر بمثل تلك الحرب (يارب أنت تعرف أنى أريد أن أخلص لكن الأفكار لاتتركنى..).

ونظر إلى الصورة المعلقة على الحائط الشرقى لقلايته، فلم يشعر بتلك المشاعر اللذيذة التى كانت تسرى فيه كلما نظر إليها، وزاده كآبة

على ذلك، السمـاء المكفهـرة فى الخـارج والريح الذى يزأر مـولولاً، والأمطار التى تهطل بغزارة فى ذلك الوقت المتأخر من الليل.

ووقف أمـام الصـورة، يبث إلى سـيده لواعج نفسـه، فلم ينل تلك الراحة التى اعتادها، فلما ازداد قصف الرعد فى الخارج عاد إلى مرقده واندس فى فراشه البالى وجلس مسنداً رأسه إلى راحتيه المشتبكتين خلفها.. وظن أنه سينام، ولكن النوم عصى عليه، فسحب كتاباً ليقرأ فيه، ولكنه سرعان ما اكتشف شروده فعاد وأغلقه ووضعه فى رفق بجانبه.

وجاءه فكر أن الشياطين تحاصر القلاية، وأنهم مستبسلون فى حربهم معه مصرين على صرعه.. فبكى.. ووجد راحة فى أن يبكى.. وعاد ينظر إلى الصورة مرة أخرى ثم قال فى زفرة محرقة (لماذا تتخلى عنى يارب؟!)..

وبينما هو يكفكف دموعه، إذا بخشخشة خلف الباب !، فاضطرب وازدادت ضربات قلبه.. وجمد مكانه لايبدِ حراكاً.. ثم إذا بالباب يفتح فى هدوء، وشخص طويل مهيب، يشع وجهه ضياءً، وملابسه بيضاء فوقها وشاح أحمر.

فخاف وحبس أنفاسه، وثبت عينيه على ذلك الشخص، فإذا به يتحرك.. ولقدميه حفيف كحفيف الشجر.. وكالنسيم الهادئ تحرك نحوه - ثم تقدم منه، فصار مبهور الأنفاس..

ووقف السيد المسيح إلى جواره وانحنى فوقه وهو لايستطيع حراكاً.. فربت على كتفيه فى حنان، ثم قال له بصوت عذب: «..

مالك تبكى.. أتراني قد تخليت عنك.. ثق إنى أنا معك..» .

وبنفس الهدوء عاد إلى الباب وخرج منه، ثم أغلقه برفق خلفه.

وانتبه إلى أن الشخص الذى كان معه داخل القلاية، هو هو السيد المسيح نفسه !!، فانفجر باكياً.. ليس دموع صغر النفس، وإنما دموع التعزية.. وقد غسلته دموعه فى تلك الليلة.. وشعر أنه تعمد من جديد ـ وهدأ ـ وهدأت كذلك الأمطار فى الخارج.. وسكنت الرياح.. وانتهى الرعد، وعادت السماء صافية..

ومنذ ذلك اليوم.. عاش هائماً على وجهه، يأكل أى شئ وينام فى أى مكان.. يعمل بلا كلل.. مقلاً فى الكلام.. شارداً حالماً.. منتظراً ذلك اللقاء.. بثقة.

الطريق والطريقة

قالت ونشيجها يمزّق كلماتها :

إسمى (....)

«.. أرجوكم لا تقاطعونى..»

ولدتُ فى إحدى المدن الساحلية.

حصلت على ليسانس الآداب، قسم اللغة الفرنسية، وكان ضمن دفعتى فى الكلية اثنتان من الطالبات وفدن أيضاً إلى القاهرة مثلى ربطتنا ببعضنا البعض علاقة روحية وطيدة، وكنا قد اتفقنا على أن نتجه إلى الرهبنة، حالما تتهيأ لنا الظروف، ويساعدنا الله فى التخلص من العقبات المألوفة للرهبنة.

وقد كان..

فقد التحق ثلاثتنا بأديرة ثلاثة (كما نُصحنا سابقاً) وذلك بعد مرور عام ونصف العام على تخرجنا، حيث كنا خلالها قد التحقنا بأعمال مرموقة.

أما أنا فقد رحبوا بى كثيراً فى الدير، وفرحوا بقدومى، لا سيما الأم الرئيسة والتى كانت أقرب إلى الملاك منها إلى الإنسان، وقد أمضيت فترة الاختبار والتى وصلت إلى ثلاث سنوات بخير.

كنت جدّ سعيدة بحياتى الرهبانية الجديدة، أحببت أخواتى، وهن بدورهن احببننى، وكان عددنا فى ذلك الوقت حوالى العشرين راهبة أكثرهن جامعيات.

وكنت أنا (فى حالى) كما يقولون، كنت أمينة فى تدبيرى الروحى، مخلصة فى عملى، محبة لقلايتى، بل إنى اعتدت فى بعض الأوقات على أن أقوم بأداء بعض خدمات للأمهات دون أن يشعرن بذلك، وأقوم ليلاً - والكل نيام - بتنظيف الحمامات وبعض مواضع أخرى فى الدير، ولما عرضت على الأم الرئيسة أن تسمح لى بأن أتولى غسل ثياب جميع الأمهات، اعتذرت لى وشكرتنى، وأفهمتنى فى لطف بأن ذلك غير لائق رهبانياً، ولكن يبدو أنها خشيت على من المجد الباطل وأنا مازلت مبتدئة فى الحياة الرهبانية.

ومضت حياتى هادئة.. سعيدة.. لا أشبع من السهر، ولا أرتوى من القراءة.. ولا أملّ الصلاة.

إلى أن كان يوم

حين جاء إلى الدير، شاب مهندس لإصلاح جهاز التدفئة فى عنبر الدواجن الذى أعمل فيه، فى ذلك اليوم لم يستمر إصلاح العطل أكثر من نصف الساعة، غادر بعدها الدير، ولكنه مع مغادرته، غادرنى أنا أيضاً شئ ما !.

فمنذ ذلك اليوم، وأستطيع أن أقول، أن حياتى إنقلبت رأساً على عقب، إذا صليت طاردتنى صورة شاب.. أى شاب، وإذا قرأت إكتشفت بعد نصف ساعة من القراءة أننى كنت شاردة!، وإذا نمت حلمت أحلاماً مختلفة.. وجديدة، نوع جديد علىّ من الأحلام.

«.. أرجوكم لا تسرعوا بالحكم علىّ، فلن تكونوا أقسى منى على نفسى..»

دموع.. ثم استطراد..

ورحت فى الأيام التالية لذلك، أستحضر فى ذهنى أسماء بعض من صديقاتى من الجامعة، اللائى تزوجن وأنجبن، وبعض منهن زرننى فى الدير، ولا أنكر أنهن فاضلات يقمن بدور إيجابى فى المجتمع ودون أن تنال إهتمامهن من علاقتهن بالمسيح، بل كان للمسيح فى حياتهن (نصيب الأسد) بل اعترف أن أكثرهن، كن يفقننى فى نواحٍ متعددة، ولكن منذ ذلك الحين تحولت محبتى لهن وتقديرى لهن إلى شكل من أشكال الغيرة.. وأحياناً الحسد، مع مقارنة كاملة ومستمرة بينى وبينهن وحياتى وحياتهن.

وازداد شرودى، ولاحظت الأم ذلك، ولم أكن قد صارحتها بعد، لظنى أنها فترة عصيبة وستمرّ، ولكن الأم بادرتنى بالحديث معى، بحنان أم وحنكة مدبرة، فهى أم بكل ما تحمل الكلمة من معانى ، بل هى لنا فى الدير كل شئ، الأم والأب والأخت، بل أحياناً والإبنة !

فصارحتها بما يعتمل فى صدرى، وأننى أكاد أهوى من علو شاهق، ولكن الأم طمأنتنى بكلام حلو، وقالت لى أنها فترة وستمر، وأشارت علىّ بمزيد من الصوم والصلاة والهروب من الفراغ، بل طلبت منى طلباً عجيباً وهو أن أدوّن ملاحظاتى على نفسى، كل يوم.. ربما قصدت بذلك أن أفرغ توتراتى ومشاعرى وأفكارى فى تلك المذكرات.

وحاولت.. ولكنى لم أحقق فى ذلك نجاحاً يُذكر.

وأحسست بعد ذلك، أننى أتقلّب فوق نار هادئة، وكثر خروجى من القلاية، وأصبحت أسترق السمع لأصوات الزائرين، كلما سنحت الفرصة بذلك، وأتسقط أخبارهم، وأحس براحة كبيرة فى وجودى بينهم، ومع كل

ذلك كنت فى الليالى أصرخ إلى الله بدموع حارقة، لا لكى ينقذنى من هذا التغيير الطارئ، وإنما لكى يدبر حياتى كما يشاء، لأننى أصبحت فى الحقيقة لا أدرى ماذا أصنع.. كنت أشك فى أننى دخلت إلى الرهبنة خلسة!.

وهكذا بدوت وكأنى قصبة تحركها الريح..

لم يكن يهمنى هل يليق بى أن أترك الدير أم لا، أو كيف سأعيش فى العالم إذا خرجت من الدير، ولكن أكثر ما كان يشغلنى، هو التأكد من جدوى استمرارى فى الحياة الديرية.

ولا أخفى عليكم أننى فزعت، عندما لاحظت أننى فى قلايتى بالدير، قد بدأت أن أسلك بطريقة غريبة، وهى الاهتمام بملابسى وشعرى، وأشياء أخرى تعد غريبة على الحياة الرهبانية، ولاسيما الراهبات.

بل كثيراً ما أطلقت لنفسى العنان فى التفكير فى الحياة الزوجية، فتخّيلت نفسى زوجة تعد الطعام لزوجها، ثم أم ترضع وليدها أو تمشط شعر صغيرتها.

مع كل ذلك، كنت أمينة فى اعترافاتى ، وكان أبى ينصحنى بالتحلى بالصبر، ويصلى معى ولأجلى، وأما الأم الرئيسة فقد كانت قلقة جداً علىّ، لا تألوا جهداً فى الاهتمام بى.

ولكنه لن يكن من السهل علىّ أن استمر على تلك الحال، ففى ذات صباح اتخذت قراراً خطيرا ! أخطر من القرار الذى نقلنى من العالم إلى الدير.

لقد قررت أن أترك الدير.. أن أعود أدراجى إلى العالم..

أن أتزوج.. أن أعيش حياتى وشبابى، وأمجد الله فى سلوكى (هكذا كان مضمون القرار).

ولن أطيل عليكم، فقد كان يوماً عصيباً بالنسبة لىّ، بل بالنسبة للأمهات جميعاً فى الدير، إذ تسللت خلسة دون أن أصافح أى منهن، حيث فُتح لى الباب، والبواب الطيب القلب يتمتم بوقار: (صلواتك يا أمنا).

يومها شعرت أننى أساق إلى موضع تنفيذ حكم بعد انتظار، آلمنى طوله!، واختلطت المشاعر داخلى، ما بين فرح غامر وحزن غامض، لم أكن فى حياتى فى حالة عدم إتزان مثلما كنت فى تلك الساعة، كنت مضطربة وخائفة من المجهول. غير أن الشعور الذى طفا على السطح فى ذلك اليوم هو شعورى بأننى أفلت من قبضة حديدية!

كانت محطة القطارات تبعد مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام، قطعتها فى دقائق معدودة، وفى المحطة واجهتنى مشكلة لم أكن أعمل لها حساب، شأن عدة مشاكل واجهتنى فى اليوم الأول لخروجى من الدير، هذه المشكلة هى ملابسى!! ماذا أصنع بها.. هل أدخل بها إلى البيت وكيف سأتخلى عنها بعد ذلك.. هل أستبدلها فى المحطة!! أم ماذا..

وعدت إلى البيت بعد خمس سنوات منذ تركته.

هل تعلموا كيف قابلت أمى هذا القرار؟

أمى التى بكت وتشنجت يوم ذهابى إلى الدير؟

أمى التى وقعت مغشياً عليها، وضعف بصرها بعد ذلك بسبب

رهبنتى ؟

أمى هذه .. صرخت حالما رأتنى، وبكت ولطمت خديها مراراً!

وأبى..

أبى الذى حاول مستميتاً أن يثنينى عن قرارى وقتها

أبى الذى إحتد فى مناقشته مع الأم الرئيسة لكى ترفض قبولى بالدير وتقنعنى بالعودة للعمل والزواج ؟

أبى هذا سلم علىّ بفتور وقطب ما بين حاجبيه !

وندمت انى لم أعمل بنصيحة الذين نصحونى بأن أنزل أولاً إلى بيت عمتى.

المهم أننى شرحت لهم - فى هدوء - وجهة نظرى، قلت لهم أننى مازلت فى مقتبل العمر، وليس من اللائق فى شئ أن يضيع عمرى كله وقد فقدت سبل الخلاص. ثم أن أحيا حياة زوجية هنا، هذا أفضل من أن أحيا فى الدير بلا ثمر، لقد كان جسدى فى الدير، بينما كان فكرى فى عش زوجية، لم أختره بعد !

ودخلت إلى حجرتى وحبستُ نفسى فيها مدة وصلت إلى إثنى عشر يوماً، كانت أمى خلالها تتردد كثيراً فى الإعلان عن عودتى من الدير ووجودى فى المنزل فقد كانت أمى من أهل الصعيد، ممن ينظرون إلى مثل تلك الأمور نظرة خاصة.

فى تلك الأثناء جرت إتصالات بين أبى وبين المكتب الذى كنت أعمل فيه بشأن إمكانية العودة إلى عملى.. وعدت إلى عملى فى مكتب الترجمة، فقد كان مديره يمت لنا بصلة قرابة.

حاولت فى البداية أن أبدو طبيعية، ولكن احساساً غريباً انتابنى وهو شعورى بأن زميلاتى فى المكتب يتهامسن علىّ ويتغامزن، وهن ينظرن إلىّ خلسة بين آن وآخر، وسواء أكان ذلك حقيقة أم مجرد إسقاط، فقد كرهتهن ، فما كان منهن إلا أن بادلننى كرهاً بكره.

وتركت المكتب، والتحقت بالعمل فى مكتب سياحة، فى وسط القاهرة، بعد أن حصلت على (كورسين) فى الإرشاد السياحى والترجمة الفورية، وعملت كمرشدة سياحية، وحلت مشكلة العمل.

بل أن شاباً تقدّم لخطبتى، فى العام الأول، ذلك بعد أن تعرّف علىّ على متن طائرة، ونحن فى طريقنا إلى (بروكسل) فى واحدة من عدة رحلات قمت بها بعد ذلك.

وفرحت، ورقص قلبى طرباً، وقلت أن حياتى سوف يكون لها معنى، وعدت إلى أسرتى أزف إليهم البشرى، فجاملونى بكلمات مبتورة!!.

ولكن ولشدّ ما كان أسفى، فقد كان هناك من تبرعّ وروى لذلك الشاب ظروفى، فأرسل يعتذر لأسباب أخرى واهية، دون أن يسمع تعليقى، وفهمت وإبتلعت الإهانة وصمت.

وتقدم غيره، إثنين وثلاثة غير أن السبب الذى دفع الأول إلى التراجع والتخلى عنى، دفع الباقين إلى اتخاذ نفس الموقف، وقد علق أحدهم قائلاً «.. إنسانة متذبذبة، كيف ائتمنها على بيتى وأولادى؟ ومن أدرانى، فقد أفاجأ ذات صباح بهروبها من البيت!..»

تصوروا..!

دموع.. تنهّد.. تجفيف الدموع..

وتحيرت وكتمت غيظي، وشعرت كذلك بأن أفراد أسرتى يعاملوننى فى شئ من الحساسية، لاسيما أختى التى تصغرنى بسبع سنوات، كانت تعاملنى بطريقة تجمع ما بين العطف والاحتقار والإستياء، وربما يرجع ذلك إلى أن أمى والتى إنحدرت من صعيد مصر، تحمل الكثير من مفاهيم الشرف والعار والتشكك والتفاؤل والتشاؤم.

وتجاوزت الثانية والثلاثين من عمرى وقطار العمر منطلقاً لا يهدأ وأنا ناجحة فى عملى، ودخلى كبير.. كبير جداً، وأصبح لى رصيد فى البنك، عدا الشقة التى استطعت الحصول عليها.

ولكن شعورى بأننى منبوذة، قد ازداد، مثل إنسانة مرتدّة عن الإيمان!، وبعد مدة من التفكير فهمت أن أمى كانت تتباهى بأننى راهبة ! وكان صديقاتها وقريباتها ينادينها بأم الراهبة، ويمتدحونها كثيراً لأنها أحسنت تربية أولادها والدليل الدامغ على ذلك هو رهبنتى !!، كما أن الصورة النادرة والتى كانت قد أخذت لى بزى الرهبنة، قد طبعت منها نسخاً كثيرة وزعتها على كثيرات عدا عدة نسخ زينت بها جدران شقتنا.

كل ذلك بالإضافة إلى أحاديثها التى لم تكن تنقطع، عنى وعن الدير وعن الراهبات.. والهدايا الكثيرة التى جلبتها من الدير ومازالت تحتفظ بها.

ووريت بؤسى لأب اعترافى، وقلت له فى صراحة أننى أأمل فى حياة زوجية هادئة، وأن الوقت يمضى وأنا خائفة، وهدأ أبى من روعى .. ووعظنى بكلام كثير حلو ومعزى، وقال لىّ أن القداسة ليست وقفاً على

فئة بذاتها حتى ولو كانوا رهباناً وأن الإنسان يستطيع أن يرضى الرب فى أى مكان بشرط أن يحفظ الأمانة... ثم وعدنى بأن يبحث لى عن شاب مناسب.

وجاء الشاب المناسب، أرمل له ابنان، ترددت كثيراً وأنا أخرج معه لأول مرة، ورحت أبحث عن طريقة مناسبة لكى أطلعه على قصتى، وحاولت أن أخفى ذلك أو على الأقل أرجئ ذلك لوقت آخر، ولكنى لم أستطع أن أكون مخادعة، ففى المقابلة الثانية بيننا صارحته بذلك فى تردد وحياء، وحالما سمع هو ذلك.. بهت.. وصمت، وفهمت ماذا يعنى صمته هذا، لعلكم كذلك فهمتم، فقد ذهب ولم يعد، على أن أكثر ما آلمنى هو التعليق الذى قاله أمام إحدى صديقاتى، لقد تشكك فى الزواج من راهبة لئلا تصبّ عليه اللعنة!.

فلما وصل سنى إلى الخامسة والثلاثين، قررت أن أجازف وأقبل أى زوج ولو من خارج مصر، من البلاد التى أسافر إليها، منتفعة فى ذلك بالتذاكر التى تمنحنى إياها الشركة، ووجدت هذا الزوج فى (كوبنهاجن) وكأنه كان ينتظرنى هناك، وفى الزيارة التالية إتفقنا على كل شئ، أن يأتى مصر ، ونتزوج هنا ومن ثم نسافر لنحيا هناك فى الدانمرك.

وعدت إلى مصر، وأنا أشعر أن قدمى فى الأرض بينما رأسى تلامس السماء، ونسيت ماضىَّ وقلت أن اللعنات التى كانت تطاردنى قد تحولت إلى بركات وأن الله قد نظر إلى صبرى، وسيعوضنى عن كل ما فاتنى وكل ما عانيته من حرمان وانتظار، وفرحت بالأكثر لأننى سأبتعد

عن مصر بكل ما فيها من ذكريات مؤلمة.. وأهرب من ملاحقات التقاليد ونير الأفكار الراسخة فى أذهان الناس تجاه ظروفى.

وإشترك معى أفراد أسرتى فى تتويج فرحتى، ربما لشعورهم بطول تعبى وإنتظارى، أو لفرحتهم بسبب قرب تخففهم من عبئى عليهم، وسرحت بخيالى فى العالم الجديد الذى ينتظرنى، وقلت وداعاً للحزن والكبت، وذهبت إلى (الشوبنج سنتر) ألقى نظرة على ما قد أحتاجه.

فلما عدت إلى منزلى وجدت هناك رسالة تنتظرنى، أرسلها مجهول، كانت الرسالة والتى كتبت بالإنجليزية تقول «.. إحذرى فإن الشاب المزمع أن يتخذك زوجة له، هو رجل متزوج وله ثلاثة أطفال تركهم مع زوجته فى (بون) منذ عامين متخلياً عنهم..» ويبدو أن التوقيع كان توقيع الزوجة نفسها!.

وصدمت وحاولت أن أبكى فلم أستطع، وعرفوا فى منزلى فحوى الرسالة، فأنزعجوا هم أيضا، ولكنهم شجعونى وطلبوا إلىّ أن أشكر الله أن أمر هذا الشاب قد تكشف قبل الزواج.

وجلست متهالكة.. أفكر وأغوص فى الماضى، وأسترجع كل ما مر بى، وإسترحت، واعتبرت هذا بمثابة عتاب لى من الله، على نكثى للعهد الذى قطعته معه على نفسى، ليس عهد البتولية فحسب ، وإنما أن أحيا له بكليّتى.

وفى غمرة شعورى بالذنب ، أرسلتُ إلى الأم الرئيسة فى دير الراهبات الذى كنت فيه راهبة، أسألها إن كنت أستطيع العودة إلى الدير

ومواصلة مسيرتى الرهبانية من جديد، وانتظرت طويلاً قبلما ردت علىّ تعتذر لى فى لطف شديد عن عدم إمكانية ذلك، والأسباب كثيرة، غير أنها إقترحت علىّ، إذا كنت قد غضضت الطرف عن فكرة الزواج، أن ألتحق بأى عمل رعوى بأى كنيسة، مثل بيوت الأرامل والأيتام والمسنات.

وراقت لى الفكرة.. علّى أهدأ وأشعر بالراحة، ووافق أب إعترافى، فتركت عملى وتوجهت إلى أحد الآباء الأساقفة أرسلنى إليه أب اعترافى ، وتقدمت إليه مستعدة للقيام بأية خدمة، على أن أحصل على مكان هادئ أسكن فيه، ورحب الأب الأسقف.

واشتركت فى خدمات كثيرة بين افتقاد الأيتام والأرامل والمسنات، إلى تنظيم رحلات للفتيات، غير أنه لم يكن يؤلمنى سوى تلك الرحلات المتجهة إلى الأديرة.

أذكر أن إحدى الفتيات وكانت فى الحادية والعشرين من عمرها، سألتنى عن رأيى فى أن تترهب، ووجدت نفسى آخذ نفساً عميقاً، وكأنى اجتذب به العشرين عاماً الأخيرة بعد خروجى من الدير، وجمعت كل ما فىّ من حب ومن مرارة ومن تجربة وخبرة، وقلت لها: «أن تترهبى.. هذا حسن، وأما أن تستمرى وتثبتى فى الطريق الرهبانى.. فهذا أحسن، ولكن أن تحفظى الأمانة أينما كنت فهذا هو كل شئ..».

وازدادت الأسئلة التى توجه إلىّ، سواء أكان ذلك فى الاجتماعات التى أقوم بالخدمة فيها، أم فى الافتقاد، وحوصرت جيداً..

إلى أن سألنى طفل برئ فى الثامنة من عمره : «هل أنت حقاً راهبة ؟ ولماذا لا تلبسين مثل الراهبات اللائى رأيتهن فى الدير ولماذا لا تعيشين معهن هناك ؟».

والحقيقة أننى استطعت بحيلة بسيطة، الإفلات منه وتحويل نظره واهتمامه إلى موضوع آخر، ولكنى لم احتمل أكثر من ذلك، فقد كان سؤاله هذا هو القشة التى قسمت ظهر البعير (كما يقولون) فعدت إلى منزلى سراً، وأغلقت باب حجرتى علىّ، لا أخرج إلا نادراً، لا أقابل أحداً ولا أتحدث مع أحد.

وها أنا جالسة.. أجتر فى آلامى وأحزانى.. وبين الوقت والآخر أنظر إلى الوراء فتنتابنى إرتجافة ويهتصر الألم قلبى.. وأتساءل:

هل تسرعت فى الرهبنة.. وهل كان لزاماً علىّ أن أكمل حياتى فيها، مهما كانت النتائج ؟

لست أعلم.. أنا متحيرة...

الراهبة في معسكر النازي

مقـــدمة

انتبه الشيطان فى بداية القرن الرابع، إلى أمر غاية فى الخطورة، فـقـد فوجئ بأنه تسبّب فى (تصدير) مئات الآلاف من الشهداء، إلى السماء، وذلك كنتيجة للاضطهاد الذى أثاره على الكنيسة، عبر ثلاث قرون !، وهى النتيجة التى جاءت عكسية، لما كان يأمله من الاضطهاد، وهو إجهاض المسيحية، والقضاء عليها فى مهدها.

ومن ثم فقد قام بإيقاف الإضطهاد!!، حين صدر مرسوم التسامح الدينى من قبل الملك قسطنطين فى سنة ٣١٣م، ومن هنا بدأت الكنيسة فى المعاناة من الشقاقات التى دّبت بين أبناء الكنيسة الواحدة، فظهرت البدع والهرطقات وأطل آريوس وغيره برؤوسهم من الجحور!.

كانت الكنيسة أقوى ما كانت، عندما كانت دماء الشهداء ترويها، فقد كان كل رجل أو إمرأة تقبل على الاستشهاد، يترك رسالة هامة ذات طابع إسخاطى (أخروى) للمجتمع الذى كان الشهيد يحيا فيه.

وتكرر نفس ماحدث فى القرن الرابع، ولكن فى روسيا وفى بدايات هذا القرن العشرين، حين أثار الشيوعيون على المسيحيين إضطهاداً عنيفاً، فأفرخت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، عدداً هائلاً من الشهداء، لكل منهم قصة إستشهاد، غاية فى التأثير والقوة من ناحية، والغرابة والعجب من ناحية أخرى، فقد كانوا يسخرون من الموت ويستهزءون بمضطهديهم، حتى الأطفال ، أعطاهم الروح القدس، الشجاعة والقوة لإستعذاب الألم وتحدى الموت.

هذه قصة إستشهاد رائعة، لأم راهبة، تشرفت بنوال بركة الإستشهاد فى إحدى معسكرات الإعتقال بفرنسا فى عام ١٩٤٥م.

الخلفية التى نشأت عليها الأم ماريا :

ولدت أليزابيث (هذا هو إسمها قبل الرهبنة) فى ديسمبر ١٨٩١م، من أسرة تمتلك مساحات كبيرة من الحقول والمزارع، فى وقت كان فيه عامة الشعب يرزحون تحت ثقل الفقر، ويعانون من البؤس والشقاء، محرومين من ضروريات الحياة، فقد كان أولئك الفلاحين يعملون فى مزارع الأغنياء، وكان الأخيرون يعاملونهم معاملة فيها كثير من الإزدراء والتحقير، فيهبونهم أقلّ الطعام واللباس، فى حين أسكنوهم فى أكواخ حقيرة، إضافة إلى إرهاقهم بما لا طاقة لهم به فى العمل، وعند أقل خطأ كان ينتظرهم عقاب قاسى.

فى ظل هذه الظروف السيئة من قهر وجوع وبرد ، لقى عشرات الألوف الموت فى كل عام، بينما الأغنياء يحيون بطريقة مبالغ فيها(١)، أثارت حقد عامة الشعب، فأحسوا بالقهر والقسر، مما دفع الكثير منهم إلى التفكير الدائب فى الثورة، للإطاحة بالقيصر وحاشيته، فى حين عمل البوليس السرى من جهته على مطاردتهم وقتل المئات منهم ونفى عشرات الألوف إلى سيبريا .

وأما اليزابيث، والتى كانت قد تربت تربية مسيحية فى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، وبالرغم من ثراء عائلتها، فقد كانت متعاطفة مع الفقراء الذين حولها، وحاولت أن يكون لها دور بناء وإيجابى ، بما

---

(١) كان القيصر مثلاً، فى شم النسيم يهدى أولاده البيض المصنوع من الذهب والمرصع بالأحجار الكريمة، والمحشو باللعب الفضية الصغيرة، وكانت الأسرة المالكة تسكن فى أعظم خمس قصور فى روسيا، حيث يحتوى كل قصر منها على أكثر من ألف غرفة .

يتناسب مع طبيعتها وإمكانياتها، مثل العطف عليهم، بأن تهبهم بعضاً من طعامها وملابسها، وكانت برقتها تشيع الأمل والرجاء فيمن حولها.

إن مجرد الرغبة فى عمل المحبة، أمر يسر قلب الله، حتى القليل الذى نقدمه، يستسمنه الله، شريطة أن يكون قد قدم بفرح. وقدم من الأعواز، لا من البقايا.

تلقت أليزابيث تعليمها الأساسى فى منزلها، شأنها فى ذلك شأن الأغنياء فى زمانها، الذين كانوا يجلبون المدرسين إلى منازلهم لتعليمهم، وفى سن الثامنة عشر إتجهت إلى جامعة القديس بيتر سبرج Petersburg ، حيث تقابلت هناك مع بعض الطلبة الذين يخططون للثورة.

الثورة الإشتراكية :

ربما تكون أليزابيث قد ساورها الفكر فى الإنضمام إليهم، غير أنها فكرت بطريقة عملية، تناسب طبيعتها، فقد اتجهت إلى تعليم الأميين من الفقراء وذلك فى فصول مسائية، حيث لجأ إليها الفقراء والفلاحون آنذاك فى بعض المصانع خارج المدينة.

كذلك فقد قامت أليزابيث بنظم بعض القصائد الشعرية، تطمئن بها الفقراء والمتألمين، من شعبها، وقد أتاح لها تعرّفها ببعض كتاب وشعراء عصرها، بتنمية هذه الموهبة فصدر لها كتابان.

فى سنة ١٩١٧م قام الفلاحون والعمال الروسيون، بقيادة لينين

وتروسكاى Lenin and Trotsky ، بالإنقلاب الذى أطاح بالقيصر وحُكم القياصرة فى البلاد، ومن ثم بدأت الثورة الإشتراكية الشهيرة، وفى البداية شعر الناس.. كرد فعل أولّى للثورة - بالحرية ولكن قليلاً قليلاً اكتشف الجميع أن الوضع مازال كما كان من قبل، من حيث الفقر والعرى والقحط والقهر، مما دلّ على وجود خطأ ما ! فقد استُبدل الحكام المستبدون بآخرين أكثر استبداداً، ومن ثم فقد مات الآلاف من الجوع ، وقبض على عشرات الألوف، وكان مصيرهم القتل والنفى.

هذه هى الظروف التى ولدت فيها الأم ماريا (أليزابيث) وعاشت فيها سنى شبابها، ويبدو أنها أحست أكثر بتفاهة العالم وأنه لا شئ ثابت فيه ولا أحد، ولكن الحقيقة الواحدة الوحيدة الثابتة وغير القابلة للتغيّر أو التطوّر، هى الله (الحق = الحقيقة) ولذلك فقد آثرت أن تربط مصيرها به لتضمن أبديتها وسعادتها.

رهبنتها :

تركت أليزابيث روسيا، واتجهت إلى باريس حيث تعرفت فى الكنيسة هناك، إلى بعض الفتيات اللائى عزفن عن الزواج وآثرن البتولية، ومن ثم فقد قامت أليزابيث بالاشتراك معهن، فى تأسيس جماعة رهبانية صغيرة أسمينها «Religious order» (الرهبنة الأخوية) حيث عشن حياة بسيطة، وعملن على كسب قوتهم من العمل اليدوى، على أن يقضين بقية الوقت فى الصلاة والتأمل، وأن يقمن بمساعدة الآخرين، وذلك بقدر ما تسمح به طبيعتهن وإمكانياتهن، وبحسب التقليد السائد فقد

أستبدل اسمها إلى الراهبة ماريا «Mother Maria» كان ذلك فى سنة ١٩٣٢م(١).

ومنذ ذلك الحين، وقد انحصر اهتمامها فى محبة الفقراء، فكانت تتردد على أماكن سكناهم فى باريس، فعملت على عيادة مرضاهم، وإعانة المحتاجين، بقدر ما تسمح به ذات يدها، وتعلم أطفالهم، بل كثيراً ما كانت تغسل الأرضيات وتنظف منازلهم، من ثم صارت الشخصية الخادمة الباذلة فى صمت وحب وفرح، الفلاحين الفقراء عبروا عن ذلك كثيراً بقولهم (أننا أبداً لن ننساها).

أما عن حياتها الشخصية ، فقد اكتفت بالثياب السوداء الرثة، وحول رأسها إرتدت الشال البسيط حسب عادتهن، وكانت تلبس حذاء من النوع الرجالى، المتهرئ، ولكنها كانت سعيدة بحياتها، يمتلئ قلبها بالشكر والرضى.

ولم يكن لديها الكثير لتقدمه للفقراء، ولكنها أعطتهم محبتها ولطفها وكلماتها الرقيقة المشجعة، وعندما تيسرت لها بعض الأموال القليلة من بعض الغيورين، قامت على الفور بإنشاء مستشفى صغير لتعول فيه المرضى والأيتام، يساعدها فى ذلك بعض الأمهات الأخريات، وبالرغم من التعب والمجهود المضنى الذى كانت تبذله، كانت سعيدة بأن ترسم البهجة على وجوه الآخرين، هى عبرت عن ذلك بقولها (فرحتى وقمة سعادتى هى راحة وسعادة الآخرين)(٢).

---

(١) بالطبع لم تلتحق أليزابيث بأحد أديرة الكاثوليك ولكنها عاشت مع بعض الفتيات الأرثوذكسيات حياة رهبانية داخل إطار خاص بهن.

(٢) هناك نوعان من الرهبنة، إحداها الرهبنة العابدة، والتى يلتزم فيها الراهب قلايته حيث يتحدد دوره تجاه العالم، فى الصلاة لأجله، والثانية الرهبنة الخادمة وهى التى يضطلع فيها الراهب بالقيام ببعض الأعمال التطوعية مثل التدريس وخدمة المرضى ورعاية المحتاجين، ويغلب هذا الاتجاه على معظم رهبنات الغرب.

حب بلا حدود :

عندما سقطت فرنسا فى يد النازيين بعد نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٠م، تعرض اليهود الذين فيها للإضطهاد العنيف، وتهدّدهم خطر الفناء الشامل، ومن ثم رأت الأم ماريا فى ذلك فرصة لمساعدتهم بشتى الطرق المتاحة. فإن المحبة المسيحية لا تعرف حدوداً ولا تفرق بين شخص وآخر، فالمحتاج والمريض هو إنسان وحسب، بغض النظر عن جنسيته ومعتقده، إنه رمز البشرية المعذبة المحتاجة.

فاللّه يعطى الكل بسخاء، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين (مت٥:٤٥)، حتى أولئك الذين ينكرون وجوده، فعطية الله قائمة على أساس تحننه لا على أساس احتياج الإنسان أو إستحقاقه أو طلبه!!!.

اضطهاد اليهود :

اعتقد هتلر ومعه القادة النازيين Hetler and Nazins، أن الشعب الألمانى هو شعب متميز وسيد لكل الشعوب، فقالوا أنهم مخلوقون لحكم العالم لآلاف السنين، وأنهم سيدمرون أولاً كل من يقف فى طريقهم ثم يحكمون مثل الآلهة، ومن ثم فقد اعتبروا أن بقية الناس من الأجناس الأخرى، يجب أن يكونوا عبيداً لهم، بل اعتبروهم جماعة من الفئران، ويتضمن هذا كل المعوقين جسدياً وذهنياً، والمجانين ذوى الأمراض المستعصية، وأكثر من كل هؤلاء وأولئك اليهود، كأنهم أعداء العالم، فبنوا لهم المعتقلات فى كل أنحاء أوربا، وطاردوهم فى كل مكان وزجوا بهم

فى السجون وحظائر المواشى دون طعام أو ماء، وفى النهاية كانوا يساقون إلى الموت بطرق وحشية، رغبة منهم فى إفناء اليهود من العالم، وأطلقوا على هذه السياسة (الحل النهائي لمشكلة اليهود).

إن بشاعة المعتقلات كانت أشبه بالأساطير، من فرط ما كان يجرى فيها من ممارسات يأباها الدين والعقل، فقد مات ملايين من الأطفال والنساء المسجونين، بسبب الجوع والبرد والتعذيب البشع عن طريق الجلد أو التعرض للتمزق بين أنياب الكلاب البوليسية المتوحشة والمدربة على القتل، آخرون ماتوا شنقاً وآخرون ماتوا رمياً بالرصاص، وبالغاز السام فى عنابر الموت التى أنشئت خصيصاً لذلك، وأيا كانت طريقة الموت فالنهاية واحدة لكل الجثث وهى الحرق فى أفران كبيرة محهزة لذلك.

حوالى ستة ملايين ماتوا فى تلك الأفران ، وملايين آخرين من جنسيات أخرى، قتلوا لمجرد مساعدتهم لليهود أو لمجرد الاشتباه فى ذلك! أو لمخالفتهم لأوامر الفوهرر هتلر.

القبض على الأم ماريا :

هذه هى الظروف التى دفعت الأم ماريا، بأن تغامر بمساعدة اليهود المساكين، فحين أعلنت السلطات النازية مطاردة اليهود فى باريس، قررت أن تجعل من المستشفى الصغير الذى أنشأته، ملجأ لأولئك المطاردين، وحاولت أن تجعل هذا العمل فى غاية السرية، ولكن عدو

الخير أهاج عليهم المضطهدين، ففى ظل التضييق الشديد للسلطات النازية، والنشاط غير العادى للمخابرات الألمانية، فيما يسمى بفريق الجستابو المخيف The dreaded Gestapo ، تعرضت للخطر.

فإنكشف أمر المخبأ (المستشفى) الذى إلتجأ إليه أعداد غفيرة من اليهود البائسين، فتم القبض على كل من فيه وعلى رأسهم الأم ماريا، حيث أرسلت فوراً إلى معسكر الإعتقال المسمى راڤنز براك Ravens-bruck ، وذلك دون محاكمة، وبالتالى فقد حرمت من الحق الشرعى فى التعبير عن الرأى والدفاع عن النفس(١)، وكان ذلك المعسكر من أسوأ المعتقلات الموجودة فى ذلك الوقت.

الحياة فى معسكر راڤنز براك Ravensbruck

الإحساس العام الذى ينتاب كل من يدخل هذا المعسكر، هو الموت الرابض فى أركانه وأروقته، متربص بنزلائه، بحد أقصى شهرين أو ثلاثة على قيد الحياة فى المعسكر، كان المعسكر محاطاً بسياج مزدوج من السلك الشائك، تقوم على حراسته كلاب بوليسية وحشية مدربة على القتل، وبين مئة متر وأخرى أقيم برج للحراسة والمراقبة، محاط بمدافع ورشاشات، لكى يصبح حتى مجرد التفكير فى الهرب أمر مستبعد بل مستحيل.

أما طعام النزلاء فقد كان قليل من الشوربة (المائعة) مع كسرة صغيرة من الخبز (فى الغالب كانت عفنة) وفى مقابل ذلك كان يلزم

(١) الدولة التى يهان فيها الحق، مآلها إلى الفشل والتخلف (المترجم) .

المعتقلين، بالعمل لساعات طويلة فى المناجم المظلمة، منذ الصباح الباكر وحتى مغيب الشمس، ومع إستمرار هذا المجهود لعدة أسابيع، كان أكثرهم يسقطون موتى بسبب الإعياء الشديد. والبعض الآخر كان يعمل فى قطع الأشجار من الغابات، ليمدوا حراسهم بوقود التدفئة!!

غير أن أصعب الأعمال وأبشعها هى حفر خنادق كبيرة فى الجبال بعمق وإتساع كبيرين، حتى إذا إنتهوا من حفرها يتم تكديسها بآلاف من المعتقلين الآخرين، دون تفريق فى ذلك بين أطفال رضع فى أحضان أمهاتهم أو شيوخ، حيث يجبرونهم على القفز داخل الخندق، ليقوم فريق آخر من المعتقلين المساكين بردم الخندق عليهم ليموتوا أحياء[1] وكان إختيار المحكوم عليهم بالموت، يتم بطريقة عشوائية.

وهكذا كان الحال بالنسبة للذين حكم عليهم بالموت خنقاً بالغاز السام، ففى الصباح ينادى الحراس على بعض الأسماء، ويوهمونهم بأنهم ماضون إلى الحمام للإغتسال (حيث يظن المعتقلون البؤساء أنه نوع من الترفيه أو التخفيف بسبب حرمانهم من الإستحمام لشهور طويلة) ولكنهم كانوا يروعون عندما يكتشفون بأن تلك الحمامات، ما هى إلا غرف إعدام بالغاز السام، فعندما تمتلئ الحجرة (العنبر) عن آخرها، يتم إغلاقها بإحكام ومن ثم يطلقون فيها ذلك الغاز الرهيب فيلقون حتفهم فى دقائق معدودات. وبعد ذلك تحرق الجثث فى أفران كبيرة، وبسبب إستمرار إحراق الجثث كانت هناك غمامة كثيفة سوداء تغطى سماء المعسكر.

هذا هو المكان الذى أرسلت إليه الأم ماريا.

---

(١) فى أغلب الأحوال كان المعتقلون الذين يقومون بردم الخندق يؤمرون بحفر غيره ومن ثم يلقون ذات المصير، مما كان يشكل عبئاً نفسياً لا طاقة لأحد بإحتماله، المترجم.

شهادتها للمسيح داخل معسكر الإعتقال :

عملت الأم ماريا مع المعتقلين ، وعانت معهم وحاولت التخفيف عنهم، ولتعطيهم مثالاً صادقاً فى الصبر على الضيقات فى شكر، محاولة بث روح الرجاء فيهم، وجذب أنظارهم إلى الأبدية.

كانت لديها القدرة على أن تحيا فى فرح، وتشيع جواً من البهجة فى المعتقل، حتى الحراس العتاة الذين خلت قلوبهم من أى شفقة، أحبتهم وصادقتهم، كما أحبت اليهود وصادقتهم حتى قادتها محبتها لهم إلى ذلك المكان الموحش فى إنتظار الموت، ومن ناحيتهم فإن الحراس أنفسهم أحبوها وأجلوها رغم وحشيتهم، وبقدر استطاعتهم كانوا يحاولون مساعدتها، فقد كانوا يعطونها نصيباً أوفر من الطعام، بالرغم من مخالفة ذلك للوائح وقتئذ، وهى بدورها كانت تقاسم المعتقلين فى ذلك الطعام، وكذلك فقد عاونها الحراس إلى حدود ما، فى الإختلاء للصلاة بمفردها.

وعن محبتها للحراس تقول الأم ماريا (يسوع المسيح أحبنى بلا حدود فمات من أجلى، أفما يليق بى أن أعيش له).

أمّا الحراس أنفسهم فقد عبّروا عن تأثرهم بها فى قول أحدهم (كانت معروفة لنا بالأم الراهبة الروسية الرائعة، ولم نكن نريد لها أن تموت، إن موتها كان خطأ منا، نحن آسفون عليه).

مرت سنوات والأم ماريا، تزداد روحها ابتهاجاً، فى حين يعجز جسدها الهزيل ويذبل أكثر، حتى صارت أشبه بهيكل عظمى تستره ملابس بالية، ويوخزه الكثير من القروح، فى الوقت الذى فيه كانت أسنانها آخذة فى التساقط، وإذ لم يكن لها حذاء يقيها من البرد، فقد لفت

قدميها فى قطعتين من الخيش.

أحد المعتقلون الذين نجوا من الموت، يقول عنها (كانت قديسة، الجلوس معها كان عبارة عن جلوس مع الرب يسوع، هذا ما يجب على كل مسيحى أن يعمله).

استشهادها :

هناك ثلاثة دوافع رئيسية، توفرت فى كل شخص مقدم على الاستشهاد، وبدون أحدها، لم يكن أحد ليستطيع الإقدام بفرح وشجاعة وسلام، على الموت فى شتى صوره ومايرافقه من آلام رهيبة تفوق الوصف والاحتمال فى أكثر الأحوال :

١ - ألا يكون مغلوباً من شهوة ما .

٢ - ألا يكون مرتبطاً بأحد ما أو شئ ما (أكثر من الله أو بدلاً من الله).

٣ - أن تكون عينه مفتوحة على الأبدية (مترقباً لها).

وهذا يفسر لنا فى بساطة كيف أقدمت الأم ماريا على الإستشهاد على النحو الذى سنورده.

فقد حدث ذات صباح، وبينما كان بعض النسوة والفتيات يتهيأن لدخول ذلك الحمام الرهيب، حمام الموت، الذى كان يبدو من الخارج مثل الحمامات العامة، حتى لايشعر المساقون إلى حتفهم فيه، بالخطر فتحدث منهم البلبلة ويتعطل عمل الحراس!

فى ذلك الصباح سرت إشاعة سريعة بين المعتقلات بأن هناك خطر ما ينتظرهن.. فى ذلك الحمام المزعوم، ومن ثم فقد أخذت صبيّة صغيرة فى الصراخ والتشنّج، ثم البكاء الهستيرى، مما كان يهدد بإشاعة جو من الفوضى وإفزاع بقية السجينات اللائى كن فى العادة يدخلن فى هدوء إلى حمام الموت، حيث يفاجئن فقط هناك بشبح الموت عقب إغلاق الأبواب وبدء تسرب الغاز السام.

ولكن إثنين من الحراس إنقضا كالوحوش الكاسرة نحوها، إلا أن الأم ماريا، كانت أسرع حين قامت بإحتضان الصبية وبدأت فى تهدئتها وملاطفتها.

غير أن العمل على تهدئة سجينة (لاسيما إذا كانت حديثة السن) مقبلة على عقوبة إضافية، أو الإعدام، لهو أمر غاية فى الصعوبة، وإن كانت مثل هذه المحاولات تحدث دائماً، ولكن المفاجأة الرائعة وغير المتوقعة، هى تلك التى أعلنتها الأم ماريا للصبية : (لاتخافى.. أنا سآتى إلى الداخل معك..) قالتها بصوت يشبه خرير المياه الكثيرة، مجسدة بها حب الفادى للبشر مستعدة بها لبذل حياتها..

وبالفعل فقد دخلت معها إلى ذلك الحمام، وهناك إحتضنتها بقوة، وعندما أغلق الحراس الأبواب بإحكام من الخارج وبدأ الغاز السام فى التسرب كانتا قد صارتا جسداً واحداً، واستشهدتا معاً والحراس الذين أغلقوا الأبواب شهدوا كيف كان يكسو وجهها بهجة وسعادة غامرة وهى فى مواجهة الموت.

البعض قالوا أنها ماتت بدلاً من تلك الفتاة، وهو أمر كان مسموحاً

به فى أغلب المعسكرات النازية، ولاسيما إذا كان المطلوب هو التخلص من عدد معين من المعتقلين، بغض النظر عن الشخصيات[1]، ولكن سواء أكانت قد ماتت عنها، أو ماتت معها، فالأمر سيّان، فالمهم أن حياتها لم تكن ثمينة عندها وأنها قدمت حياتها وقابلت الموت بفرح وشجاعة.

ولم تمضى سوى أيام وانتهت الحرب العالمية بهزيمة النازى بعد أن قبلت السماء ذبيحة الراهبة.. وحياتها..

دير البرموس

يونيو ١٩٩٥

(١) مثلما حدث مع الأب ألكسندر الذى مات بدلاً من شخص آخر (فى غضون الإضطهاد النازى) وكان ذلك الشخص مايزال حياً إلى وقت قريب(المترجم) .

راهبات دير شاموردينو Shamordino

فى سجن سولوفكى Solovki

وهذه قصة أخرى لبعض من الراهبات ، قبض عليهن الشيوعيون وزجوا بهن فى إحدى معسكرات التعذيب، حيث كان يتحتم عليهن الاشتراك فى أعمال شاقة لاتتناسب مع إمكانياتهن وطبيعتهن.. وقد استطعن أن يشهدن للمسيح هناك ولم يرضخن، رغم ماتعرضن له من آلام وضيق.

ففى صيف سنة ١٩٢٩م أحضر إلى سلوڤاكيا، ثلاثون من الراهبات، ينتمى أغلبهن إلى دير شاموردينو، ولم يسمح المسئولون فى المعسكر، بأن ينزلن فى سجن النساء، ولكنهم وضعوهن فى سجن منفرد.

ولما راح الحراس يطابقون بياناتهن على ماهو مدرج بقائمة الإعتقال التى جئن بها، رفضت الراهبات الإدلاء بالبيانات الخاصة بهن، مثل بيانات عائلاتهن وأعمارهم وأماكن سكناهم، وبعد صراع مع الحراس وتهديد وضرب، تم عزل كل منهن فى مكان منفرد، حيث تعرضن للجوع والعطش.

ولكن الراهبات لم يتأثرن، إنما على العكس من ذلك كن على قدر كافٍ من الشجاعة، إذ رفضن العمل بالسخرة (أعمال التسخير).

وبعد أيام وصل أحد الأطباء(١) إلى المعسكر قادماً من سجن تاجانكا حيث يعمل هناك، يصحبه طبيب آخر(٢) يعمل فى نفس معسكر

---

(١) هو الدكتور زيزيلنكو Dr. Zhizhlenko طبيب سجن تاجانكا Taganka فى موسكو، قبل الرهبنة سراً، بل أصبح فيما بعد أسقفاً باسم مكسيم.

(٢) هو طبيب قبل المسيح سراً وكان يعمل فى المعسكر.

سلوفاكيا، حيث أمرهما القادة هناك بتوقيع الكشف الطبى على الراهبات، لمعرفة مدى قدرتهن على العمل بالسخرة.

وقد قدم الطبيبان تقريراً يفيد بأنه لا قدرة للراهبات على العمل فى مثل تلك الأعمال الصعبة، وهكذا وجدت الجهات الإدارية نفسها (ولأول مرة) فى حرج شديد، لأن التصرف المعتاد مع أولئك الذين يرفضون العمل بالسخرة هو التعرض للتعذيب، ربما حتى الموت، إذ كان المتمردون يرسلون للنفى إلى جزيرة أنزرسك، التى لم يعد منها أحد حياً أبداً !

ومما يثير العجب أن أولئك الراهبات لم يرسلن إلى هناك، وعندما وجّه الطبيبان المذكوران هذا السؤال إلى مدير القطاع الطبى فى المعسكر أمرهم الالتزام بالصمت(١).

حين دخل الطبيبان إلى المعسكر حيث توجد الراهبات، شد انتباههما الرصانة غير العادية للراهبات وسلامهن وتماسكهن، وهن فى ملابسهن الرهبانية البالية والمرقعة والنظيفة !، كان هناك حوالى ثلاثين منهن، ويمكن تقدير عمر كل منهن بحوالى الثلاثين، كانت وجوههن ملائكية، فرح فى الحزن، حتى حزنهن كان حزناً مجيداً !! ، أما اتضاعهن فقد كان يشف جمالاً روحياً يستثير الشعور بالندم العميق (على أسرهن) والإجلال لهن.

يقول الدكتور المكلف بالمسئولية الطبية عنهن فى المعسكر:

---

(١) يبدو أنه كان مسيحياً فى السر، وهو الذى أوحى إلى الطبيبين بإعفاء الراهبات من العمل بالسخرة.

أن الطبيب المكلف والمنتدب من قبل القطاع الطبى فى المعسكر والذى كان يرافقهن طلب أن يخرج لكى لايسبب لهن أى مضايقة، وبقيت أنا وحدى معهن.

– يوم سعيد يا ماتوشكى Matushki قلت هذا وانحنيت أمامهن.

وفى هدوء أجبننى بإنحناء أكثر حتى الوسط.

– أنا طبيب، أرسلت لأفحصكن.

(أصوات كثيرة قاطعتنى).

– نحن بخير ولسنا فى حاجة لكى تفحصنا.

– أنا مؤمن، مسيحى أرثوذكسى، وأنا هنا فى المعسكر كسجين بسبب انتمائى للكنيسة.

(فقلن معاً):

– المجد لله.

ثم أردفت قائلاً: أننى أفهم سبب إضرابكن عن العمل، وأننى سوف أصنفكن ضمن فئة غير القادرين على العمل، وإلا فان إدارة المعسكر سوف ترسلكن إلى عمل أصعب، ولكنهن أفهمننى أنهن لن يعملن، سواء أكان العمل سهلاً أم صعباً، فسألتهن فى دهشة:

– لماذا ؟

– لأننا لا نريد أن نعمل لنظام ضد المسيح.

فسألتهن ـ وأنا مضطرب ـ عن السبب فى ذلك، ثم أفهمتهن أنه فى سولوفكى هنا، كثير من الأساقفة والكهنة وكل منهم يعمل على قدر قوته، وعلى سبيل المثال فإن أسقف (ڤياتكا Vyatka) يعمل كعامل مكتبة فى

مصنع للحبال، وفى قسم الفضلات يقوم كثير من الكهنة بالعمل فى نسج الشباك، وفى أيام الجمع كانوا يعملون ٢٤ ساعة ينتهوا من حصتهم، حتى يتسنى لهم الاستفادة بليلة السبت ويوم الأحد فى الصلاة والتسبيح، ولكن الراهبات مع ذلك رددْنَ بأنهن لن يعملن لنظام ضد المسيح، فهدأت من روعهن قائلاً أننى وبدون فحص سوف أصنفهن ضمن غير القادرات على العمل البدنى الشاق، فقلن :

سامحنا.. لا.. نحن فى غير احتياج إلى مثل هذا التقرير، فإننا سوف نقول للمسئولين أن التقرير غير سليم وأننا قادرات على العمل ولكننا لا نريد، لأن هذا العمل هو لنظام ضد المسيح وأننا لن نعمل ولو إضطررنا إلى تقبّل الموت.

إنهم لن يقتلونكن ولكنهم سوف يعذبونكن حتى الموت (تمت هذا فى همس وبوجع قلب، لأن الخطر فوق الرؤوس).

فقالت واحدة من الراهبات الله سوف يساعدنا على تحمل العذاب أيضاً وعند ذلك طفرت الدموع من عينى وإنحنيت أمامهن فى هدوء، بل إنى أردت أن أنحنى لهن إلى الأرض وأقبل أقدامهن.

فى خلال أسبوع من ذلك الوقت، دخل المسئول عن القسم الصحى، إلى مكتب الأطباء، وأثناء حديثه معنا ألمح إلينا أنهم قد تعبوا مع هؤلاء الراهبات، وإنهم اتفقوا معهن أخيراً على العمل فى الحياكة والترقيع، للسجن الرئيسى، ولكن تحت شروط (وضعتها الراهبات) أن يكن مع بعضهن البعض، وأن يسمح لهن بالترتيل أثناء العمل (وقد وافق قائد المعسكر بالفعل على طلبهن).

وقد عشن فى عزلة عن الجميع حسب رغبتهن، حتى عنا نحن الأطباء، الذين لهم حرية التنقل وعمل صداقات كثيرة بحكم عملنا الإنسانى، فقد ظللنا فترة طويلة لا نعرف عنهن شيئاً ولم يحتجن أى معونة طبية منا.

غير أنه قد تيسر لنا معرفة الفصل الأخير من مأساتهن!! ففى إحدى القوافل من الأسرى الآتين إلى سلوقكى، جاء كاهن، أصبح الأب الروحى لبعضهن، وبالرغم من صعوبة الاتصال بين الكاهن والراهبات، طبقاً لظروف وقوانين المعسكر، إلاّ أن الراهبات إستطعن بطريقة ما الاتصال به لطلب الإرشاد والمعونة.

كانت تساؤلاتهن منحصرة فى الآتى (ها قد أتين إلى المعسكر لنعانى، وها نحن نعمل فى هدوء ونرنل معاً ونصلى ونشعر بالمتعة والفرح، ولكن ترى هل أصبنا فى قبول العمل لغير حساب المسيح ؟ أم يجب علينا أن نعتزل مثل هذا العمل أيضاً ؟).

أما الأب الروحى، فقد أوحى إليهن بأنه من اللائق الامتناع عن العمل، وهكذا فقد تركن العمل بشجاعة وهدوء، ولما بحثت إدارة المعسكر عن السبب فى هذا التغيير الطارئ، توصلت إلى حقيقة ما حدث، ومن ثم فقد أطلقوا النار على الكاهن فمات شهيداً للمسيح، وعندئذ صرّحت الراهبات بأنه ما من أحد الآن يستطيع أن يعفينا من قرار الإمتناع عن العمل.

أما إدارة المعسكر والتى مارست فى الحقيقة الكثير من الصبر وضبط النفس تجاه هاته الراهبات، فقد قامت بعزلهن الواحدة عن

الآخرى، إلى أماكن غير معروفة، وعبثاً حاول البعض تتبع أخبارهن فقد اختفين دون أثر.

ولكن وبعد سنوات استطعنا أن نستقى بعض المعلومات عن نهاية حياتهن عن طريق سجين أمريكى فى معسكر آخر، حيث ألقى لنا بعض الضوء على أخبار بعضهن.

اللآلىء الثلاثة

(معجزة راهبات شاموردينو Shamordino)

روى السجين الأمريكى - وكان الحديث قد تحول بين الجلوس إلى أمور الدين - فقال سمعت عن حدث عجيب يقولون عنه معجزة !، حدثت لتوها فى ڤركوتا، رواها لى بعض الجنود بلهفة وعجب شديدين، أثبتا بلاشك ، أنه حتى الستار الحديدى لم يقدر أن يبعد الله عن البلاد وعن عقول وقلوب الشعب.

ففى شهر نوفمبر من عام ١٩٥٠م أى بعد وصولنا إلى المعسكر بأيام، وصلت ثلاث راهبات محكوم عليهن بالأشغال الشاقة، جدير بالذكر أن آلاف السجينات اللائى فى فركوتا، لم يعملن فى المناجم ولكن كى يعملن الأعمال البسيطة، وأما الراهبات فقد أسند إليهن العمل فى ورشة تصنيع الطوب، المستخدم فى أعمال الإنشاءات فى كل القطب الشمالى التابع لروسيا.

ولكن الراهبات الثلاث رفضن العمل، وقلن للمشرف على المصنع، أنهن يعتبرن العمل للنظام الشيوعى عمل للشيطان، فى حين أنهن

خادمات للمسيح، ولذلك فلن يعملن ، برغم أى تهديد أو عقاب فبعد أن تم تجريدهن من زى الرهبنة[1] أصبح سلاحهن هو الإيمان وحده وأصبحن مستعدات لمواجهة أى شئ للحفاظ على نذرهن.

كان العقاب أن يأكلن كسرة خبز وشورية فاسدة، وقد استمر هذا العقاب لعدة أيام، ومع استمرارهن فى رفض العمل، كان ينتظرهن عقاب أشد، فقد أشتد غضب القائد، بسبب طول عنادهن، حيث خشى من تأثير ذلك على بقية السجينات.

وعليه فقد أمر بأن توضع كل منهن فى سترة من الخيش، وعلى أن تقيد أيديهن إلى الخلف وكذلك أقدامهن، ثم قام الحراس بشد اليدين إلى القدمين بقسوة، حتى أصبحت أرجلهن مرفوعة للخلف وأكتافهن مرفوعة ومشدودة للخلف أيضاً، فى وضع مؤلم للغاية.

تألمت الراهبات جداً، ولكن فى صمت، حيث لم يخرج منهن أية كلمة تذمر أو احتجاج، ولكن القائد وقد ازداد غيظه إبان هذا الاحتمال الصامت، عمل على زيادة ألمهن، فقد أمر أن يصب الماء عليهن، حتى إنكمش الخيش فإزداد ألمهن جداً، حتى أغمى عليهن فنمن فى هدوء ! بعد ذلك تم حل القيود، فلما تنبهن تم تقييدهن ثانية وفى هذه المرة أغمى عليهن، وكان ذلك بركة من الله حتى لايشعرن بالألم، وقد ظللن لمدة ساعتين هكذا حتى كادت الدورة الدموية أن تتوقف عند أطرافهن من شدة القيود، ولما كدن يسلمن الروح تم حل قيودهن.

---

(١) الراهب منذ رهبنته يعتبر ملابسه جزءاً منه لايفرط فيها ويتعامل معها بكثير من الحرص والقدسية.. ينام بها وإذ وقع منها شئ على الأرض تلقفه بسرعة وأعاد تقديسه برشمه ثلاث مرات (المترجم).

ولكن النظام الشيوعى أراد عبيداً للعمل، لا هياكلاً عظمية، فقد تم نقلهن كل هذه المسافة إلى فركوتا ليبحثوا عن الفحم فى المناجم، لا ليُقتلن هناك، فى حالة واحدة كان يتم التخلص من السجينات، ذلك عندما يقل إنتاجهن[١] ومن هنا فقد أراد القائد أن يعذبهن حتى يعملن.

وأخيراً قرر القائد قتلهن، إن هن أصررن على عدم العمل، فقد أسند لهن عمل ما فى العراء، ولكن الراهبات رفضن ذلك أيضاً، ومن ثم فقد أخذن إلى نتوء على جبل جليدى، حيث تركن هناك مقيدات، فى الجو القطبى القارص طوال اليوم.

وعند غروب الشمس شوهدن راكعات، فذهب الحراس متوقعين أن يجدوهن متجمدات ولكن يا لدهشتهم إذ وجدوهن سالمات يصلين راكعات.

بعد ذلك أمر القائد أن يؤخذ منهن القفازات والقبعات، على أن يتركن لمدة يوم آخر فى العراء، وقد قضت الراهبات ذلك اليوم أيضاً، راكعات يصلين فى هدوء ودفء، مع أن السجينات اللائى يعملن فى المعسكر يشتكين من شدة البرد، وقد توقع الحراس تجمد الراهبات، لكنهم اندهشوا عندما اكتشفوا أنهن سالمات تماماً، وتكرر ذلك لمدة يومين فى درجات حرارة تحت الصفر بكثير، وفى اليوم الثالث أخذوا منهن الوشاحات، ولكنهن مع ذلك عدن سالمات أيضاً.

عندئذ تأكد الجميع أن الله قد صنع معجزة مع الراهبات الثلاثة،

---

(١) هكذا يرى الملحدون أن الإنسان هو فحم فى قاطرة التاريخ حسب تعبير كارل ماركس (المترجم).

فقد ذاع صيتهن فى جميع المعسكرات وكان لا حديث للناس سوى الراهبات الثلاثة، حتى الحراس المتشددين من معسكرات أخرى كانوا يأتون إلى المنطقة الواقع بها مصنع الطوب لكى يشاهدوا الراهبات ويتباركوا منهن، بالقرب من جبل الثلج.

من هنا بدأت بقية السجينات، فى الصلاة ورشم علامة الصليب، قبل البدء فى العمل، إقتداءاً بالراهبات الثلاث، وقد أدرك القائد بعد ذلك ومعه بقية الحراس أن هناك قوة ليست أرضية تحمى الراهبات وتحافظ عليهن ولذلك تم رفع العقوبات عنهن، وتركوهن للصلاة والعبادة فقط ، وكن يحضرن لأنفسهن الطعام وكذلك الملابس، ومع أنهن كن سجينات كانت لهن حرية العبادة ولا أحد فى الاتحاد السوفييتى فى ذلك الوقت، كان له نفس الحرية.

وعندما تركت ڤركوتا بعدها بأربع سنوات (يقول الطبيب الذى روى المعجزة) كانت الراهبات مازلن فى المعسكر، دون أن يعملن ليوم واحد فى مصنع الطوب، وقد بذلن الكثير من الجهد فى تثبيت الإيمان فى قلوب وعقول الآلاف من المساجين والحراس.

يقول الطبيب نفسه، بعد ذلك بسنوات، عندما كانت تتاح لى الفرصة للتحدث مع الشيوعيون الأكثر تشدداً عن أمور الدين، كلهم بدون إستثناء ذكروا معجزة الراهبات الثلاثة.

فكرة

بعد أن قضى ساعات ساهماً شارداً.. تقدم بخطوات بطيئة نحو أبيه ثم قال فى توسّل :

- بابا

قال أبوه وهو لايزال يدفن رأسه فى الجريدة:

- نعم حبيبى

فشدّ الطفل الذى لم يتجاوز السادسة ـ الجريدة من يد أبيه وألقاها جانباً، فأخذه أبوه بين ذراعيه وطبع قبلة حانية على جبهته ثم كرر قائلاً:

- نعم حبيبى

- أريد أن أكون راهباً

أجاب الأب بغير اكتراث :

- عندما تكبر يمكنك ذلك

- أنا كبير

- عندما تكبر أكثر وتصبح طبيباً أو مهندساً يمكنك عندئذ أن تصير راهباً

- أكبر هناك

- كل الرهبان كبروا هنا أولاً ثم ذهبوا إلى الدير

ضرب قدمه فى الأرض فى عناد قائلاً :

- (ماليش دعوة)

وشعر الأب بابنه جاداً فى رغبته فاستهوته المواصلة فقال :

- ألا تحب أن تكون مهندساً ؟

- أحب أن أكون راهباً

- هل رأيت الأب تكلا ونحن فى الدير اليوم ؟

هز رأسه إلى أسفل بالإيجاب

- كان طبيباً

- ولكنه يصنع الخبز فى الدير.. أعطى كلينا أنا ومايكل خبزتين.

- فى الدير لا يقبلون الصغار

- لماذا؟

تمتمت الأم الجالسة عن بعد، فى سرور وراحت تتابع باهتمام صامتة ، واستطرد الأب قائلاً :

- فى الدير سوف يقصون لك شعرك

- سوف أغطى رأسى.. كلهم مغطون رؤوسهم

- وفى الدير لن تستطيع أن تلبس البنطلونات الشورت والقمصان الملونة والأحذية الكوتشى التى تحبها.

- سألبس مثلهم ... انهم لايلبسون الشورتات.

- ماما لن تكون معك

وثبتت الأم وجهها على طفلها لترى رد فعله وتسمع جوابه.. إنه وحيدها وفلذة كبدها.. واختار رداً عفوياً ولكنه دبلوماسياً فقال:

– ستأتى لزيارتى معك

– وأصدقاءك الذين يطلبونك كثيراً فى التليفون وتقابلهم فى المدرسة والكنيسة

– سأصادق الرهبان

– لا شوكولاته هناك ولا جاتوه.. فول ، عدس، خبز يابس

فهز كتفيه فى غير مبالاة واستطرد الأب :

– كما أنه لا يوجد هناك لحوم..

فأجاب بأسى :

– ولا دجاج ؟!

وفرح الأب الذى كان قد تصبب عرقاً.. وظن أنه قد وجد العقبة الكؤود لإرغامه على الهزيمة وإنهاء الحديث فقال :

– طبعاً لا دجاج هناك.. ولا أرانب وأنت تحب الدجاج (قالها فى إغراء) أليس كذلك؟ وجاءت إجابة الطفل كالصفعة فقال :

– لا أحب الدجاج .أحب أن أكون راهباً

وعاد الأب ليواصل الكفاح..

– هل يضربك المدرس فى المدرسة ؟

فهز رأسه نفياً

– هل يخطف منك أحد ساندويتشاتك ؟

– لا

- هل نُضايقك أنا وأمك ؟

وقبل أن يجيب نادت عليه الأم فلم يستجب، أغرته بأنها تحفظ له هدية اشترتها له، فضرب الأرض بقدمه، ثم وهو يهمّ بالبكاء:

- أريد أن أكون راهباً

وهمس الأب ناحية الأم:

- من يدرى !

ثم ا ستطرد ناحية طفله قائلاً :

- سوف أخذك مرة أخرى إلى الدير ونستأذن الأب الكبير هناك.

فرد فى سرعة وعيناه تلمعان ببريق النصر :

- وافق، قلت له ووافق..

- ولكنه لم يقل لى.

- قال سنسميك أبانوب.. وأعطانى صورة.. أنا أحب أبانوب.

وقامت الأم فى هدوء وأخذته لتذهب به إلى حجرته، ولكن جسده الصغير تقلّص بين ذراعيها، وبحركة عصبية تخلّص منها وقفز ثانية إلى جوار أبيه وفى مواجهتها، ولما لم يجد الأب مناص من المواصلة استطرد مكملاً :

- ألا تخاف من الجلوس وحدك فى الدير ؟

ضرب بقبضته الصغيرة على ركبة والده وهو يقول فى عناد.

- لا

- إذاً ماذا تحب أن نحضر لك عندما نأتى أنا وأمك لزيارتك؟

فرفع عينيه نحو سقف الحجرة.. وفكر قليلاً ومازال أصبعه على شفته السفلى ثم قال :

– لا شئ

واستدارت الأم الناحية الأخرى لتمسح قطرات من الدمع طفرت من عينيها.. ثم وكأنما لم تعد تحتمل المزيد قالت له :

– هل تأتى معى غداً ؟ إنى ذاهبة إلى هناك.

فتهلل وجهه الصغير فزاد بذلك ملائكية، ووجدت بذلك السبيل لحمله إلى فراشه قائلة :

– إذاً عليك أن تستريح الآن لنبكر فى الصباح .

وما لبث أن غط فى نوم عميق، وأحلام الطفولة السعيدة تضفى على وجهه سيماء البراءة.

وفى الغدّ كان يتشاجر شجاره الطفولى المعتاد مع أمه حول ما سيحمله معه من سندويتشات إلى المدرسة!

واليوم.. هو طبيب متزوج وله ثلاثة أطفال ويعمل فى بلد إفريقى أظن أنها الكاميرون!

صَانع القربَان

- ١ -

كان بشوشاً وكان لطيفاً معطاءا، نذكره جيداً حين كنا أطفالاً دون العاشرة بينما تخطى هو الثلاثين من العمر، إنه (عمو يوسف) كما كنا نطلق عليه في تلك القرية النائيةَ في وسط صعيد مصر.

كنا نحبُه.. وكان يعطف علينا إمّا بقليل من الحلوى أو تلك القطع النقدية الصغيرة التي كان يحتفظ بها في جيبه، وكنّا نحن نشاكسه أيضا وهو جالس فى وداعة أمام حجرة القربان عقب القداس، عندما كنّا نسأله أسئلة بريئة كان يبتسم ويلاطفنا، والآن أتذكّر أنه فى كل مرّة كان يشرد قليلاً بذهنه قبل أن يصرفنا عنه بلطف.

وكان أبى ناظراً للكنيسة (وهى أثرية على اسم السيدة العذراء) وبين آن وآخر وحين كنا نجلس إليه بعد العشاء، كان يروى لنا شيئاً عن ذلك القرابنى الجديد الذي جاء يعمل كخادم فى الكنيسة، كيف أنه رفض أن يتقاضى أجراً .. وكيف إكتفي بالطعام الذى يقدّم له، وبتلك الحصيرة المتهرّئة لينام عليها بجوار (بيت لحم).

واعتاد أن يدخل إلى حجرته عقب السابعة مساءا ولا يُرى إلاّ عند الصباح بعد أن يكون قد قام في نصف الليل ليخبز القربان، ويدخل (طبق الحمل) فى مكانه أمام الهيكل ثم يرتب المذبح ويعمر القارورة ويصلح الشمعدانين اللذين فوق المذبح ويملأ إبريق الماء الفخاري ودرج البخور وكل ما يحتاجه الكاهن، وهو ماهر جداً في جعل الكنيسة وما يحيط بها، فى غاية الحسن والبهاء، فقد غرس بعض الورود والشجيرات حول الكنيسة.. وكنا نلعب كثيراً بجواره، وكنا نهابه بقدر ما كنا نحبه..

كانت في عينه نظرة شفقة وحب وسرّ عميق، وكان من بيننا ونحن أطفال جورج وهو ابن كاهن الكنيسة، وكان (عم يوسف) يخصّ جورج باهتمام أكبر إذ كان معلّقا برعايته، مثل مرافقته إلى المدرسة ، والعودة به عند الظهر إلى بيته ثانية، وكنا نراه في بعض الأحيان يجلس إلى جواره أمام حجرته في الكنيسة، يراجع معه بعض دروسه، وكان يوسف يعرف القراءة والكتابة، وكنا نلمحه في بعض الأحيان يقرأ على شمعة وباب حجرته مفتوحاً.

وأذكر أن بعض الصبية ضايقوه ذات صباح، إذ راحوا يهتفون في سذاجة بما يضايقه ويهينه، وقد رأيته في ذلك الصباح وهو يشخص إليهم بعينين منكسرتين ثم يتراجع بهدوء إلى الخلف حتى يدخل حجرته ويسحب بابها وراءه في هدوء، وما أن أغلق الباب حتى قذف أحدهم الباب بحجر كبير، ثم هرول الجميع ضاحكين، وفي المساء وجدته بشوشاً كعادته، وقد زالت من قسمات وجهه عبوسة ذلك الصباح.

وعندما تجاوز سنّه الخامسة والثلاثين، أشفق الكاهن على وحدة يوسف ومسكنته، فعرض عليه تزويجه من إحدى العاملات بمصنعِ النسيج، ولكن يوسف أعتذر في أدب جمّ، بأنه لايفكر في الزواج، ظن الكاهن وقتها أن المانع هو ضيق ذات اليد، فطمأنه بأنه سيتكفّل بنفقات هذا الزواج، ولكنه أعتذر مراراً.

قال إن أهله في إحدى محافظات الوجه البحري، حاولوا مراراً تزويجه من قبل، ولكنه أحبّ أن يحيا وحيداً ، قال الكاهن:

– فلماذا لم تترهب في أحد الأديرة ؟

- أنا لا أستحق.. إنىّ شرير..

وتأثّر الكاهن، ومنذ ذلك الحين حاول توفير حجرة صحيّة له، يؤثثها له، ولكنه إعتذر أيضا مكتفياً بتلك الحجرة البسيطة التي تشبه الكوخ، واكتفي أيضا بالقروش القليلة التى تعود عليه من الأطباق الخوص التى يصنعها فى أوقات فراغه.

وأحبه أهالي القرية، واعتبروه بركة، وكانوا يراقبونه فى ارتياح، وهو يسير بين آن وآخر يحمل شيئاً إلى بيت الكاهن، أو وهو يرافق جورج ابن الأب الكاهن إلى مدرسته، أو إلى خاله فى الحي الغربي من القرية، كان طويل القامة، نحيفاً، هادئاً، وثابتا فى خطواته.. رأسه مطرق إلى أسفل قليلاً ، ينتعل في قدمه نعلاً بسيطاً.. ويعتمر طاقية بنيّة اللون وكانت له لحية خفيفة جداً .

وفى ذات مرة فوجئ يوسف عند منتصف الليل، بأن القربان لم يختمر.. فلم تكن الخميرة نشطة بالقدر الكافي، فإن خبزه على ذلك النحو، فسيخرج من الفرن وهو أشبه مايكون بالفطائر لا القربان، ولم يكن الوقت يتّسع لعمل قربان آخر، وتحيرّ فى نفسه وتضايق وأوشك أن يضطرب ويفقد سلامه، وفي النهاية لم يكن من مفرّ من وضعه في الفرن كما هو.. وخرج القربان بشكل سيئ.. وباكراً جاء الأب الكاهن ومعه الشمّاس ، فتلقاه يوسف بالترحيب، وتردّد قليلاً قبل أن يعتذر له بأن القربان اليوم ليس على مايرام.

وتغيرت ملامح الكاهن وزمجر وراح يعاتبه على إهماله بكلمات قاسية ولكزه بيده غاضباً، وراح يوسف يعتذر بعبارات كثيرة ويطلب

الحل والصفح فتركه الكاهن مستاءاً، والحقيقة أنها لم تكن عادة الكاهن فى مثل تلك المواقف ولكن مزاجه لم يكن على مايرام في ذلك الصباح.

وطفرت الدموع من عينيه ولكنه تماسك وعالجها بسرعة، انتهى القداس وخرج الكاهن من الكنيسة فتلقاه يوسف ببشاشة، ولكن الكاهن لم يعتذر له، وكأنّه عامل بالكنيسة لا يستحق أو يليق أن يعتذر له الكاهن، ولكنه تظاهر فقط بأنه قد نسى الأمر والتفت إلى أعماله، إذ تحدث مع يوسف فى شأن آخر.

وكبر جورج (ابن الكاهن) شيئاً فشيئاً، وألحقه أبوه بالكلية الإكليريكية أملاً فى أن يساعده مستقبلاً فى أعباء الكهنوت والخدمة، وكان شاباً مشهوداً له بالفطنة والذكاء إتضاع القلب وكان الكل يحبونه أيضاً، وكثيراً ما كان يوسف ينتظره على محطة القطار عند زياراته للقرية ليحمل عنه حقيبته وليصحبه إلى منزله، وكان جورج يحمل ليوسف ـ كلّما جاء إلى القرية ـ هدية لطيفة من البندر، مرة شالاً وأخرى طاقية أو علبة من الحلوى.

وتقدم الكاهن فى السن وشاخ واحتاج إلى أن يطلب من الأسقف أن يرسم له أبنه كاهناً معه ـ وكان قد تخرج منذ ثلاث سنوات ـ وفى إحدى الليالي المبهجة حضر الأب الأسقف ليبيت ليلته فى القرية وبصحبته بعض الكهنة والأراخنة، ليقيم فى الصباح ذلك الشاب الفاضل كاهناً، وسعدت البلدة لذلك. ومن ثمّ بدأ يشترك مع أبيه فى حمل أثقال الخدمة، وبدأ فى حملة افتقادات واسعة محاولاً أن ينهض بالكنيسة وأنشطتها.

واستمرّ يوسف فى عمله المعتاد، من صنع القربان إلى تنظيف

الكنيسة وملحقاتها من مرافق مختلفة، مع قضاء بعض أمور الكنيسة ممّا يكلّفه به الأب الكاهن، ويقول الذين تردّدوا على كنائس أخرى أنهم لم يروا، أفضل وأروع من القربان الذي يصنعه يوسف، كان دقيقاً فى عمله، مهتمّاً بالعودة إلى حجرته بعد انتهاء أعماله، ولم يزر إنساناً فى بيته، حتّى بيت الكاهن لم يدخله مطلقاً وإنما يقف على الباب يسلّم شيئاً أو ليأخذ شيئاً، وبالتالي لم يزره أحد في حجرته ولم تكن له دالّة مع أحد.

وأمّا أكثر الناس تعقّلاً ، فقد رأى فيه إنساناً يؤثر العزلة والهدوء، بينما اعتبره الآخرون شخصاً يعانى من الانطواء، فى حين حسده البعض وكرهه البعض الآخر واشتكى عليه بعض الأشرار فى القرية.

ويحكى والدي في تأثر بالغ وحزن شديد، كيف حاول هو نفسه ذات مرة أن يطرد يوسف من مكانه بسبب بعض التوسّعات التى كان يرغب إجرائها في الكنيسة، فحمل يوسف عدّة كتب كانت له مع بعض حوائجه ووقف بجوار الحجرة من الخارج مسكيناً لا يدرى ماذا يصنع، ولكن بعض المحبين توسلوا إلى الكاهن الذى قرر تأجيل تلك التعديلات إلى حين آخر ومن ثم فقد أعاده إلى موضعه، ولفترة كان يوسف كلما رأى والدى، ينظر إليه فى مرارة !

عندما مرض الأب الكاهن الكبير، لزم منزله لا يخرج إلا نادرا، واعتلت صحته، وفيما أوصى أبنه، أوصاه بيوسف ذلك القربانى الطيب الذى رافقهما فى رحلة طويلة وأصبح مسئولا منهما بعد مرور عشرين عاما منذ وصوله إلى القرية.

وتنيح الكاهن العجوز...

واهتم الكاهن الصغير بشئون كنيسته الصغيرة، وحاول الاهتمام

أكثر بيوسف، فكرر محاولة والده تزويجه، فكرر بدوره الرفض مع إبداء شعوره بالامتنان، وقام بعمل تعديلات كثيرة على مرافق الكنيسة وبالتالي فقد عرض عليه أن ينتقل إلى المبنى الملحق بالكنيسة، فاعتذر أيضا بطلف وحياء، متمسكا بذلك المكان الذي بدأ فيه منذ خمسة وعشرين عاماً.

وتقدمت به الأيام وناهز الستين من العمر، ومايزال مسئولا عن صنع القربان وإسراج القناديل فى الكنيسة وتنظيفها وترتيبها، وكذلك الحديقة التي أصبحت بقعة جميلة تزينها الورود المتعددة الألوان وأصص الزرع المنسقة بيد فنان مرهف الحس، مع قضاء بعض احتياجات الكنيسة واحتياجات الكاهن.

ولكنه لم يخرج من البلدة طوال تلك المدة.. حتى عندما ألمّ به ألم فى كليتيه ونصَحه البعض ممن يؤمّون عيادات الأطباء فى المدن بالذهاب إلى طبيب. اكتفى بتناول بعض المشروبات المفيدة للكلى وتخطى آلامها..

ويروي لنا معلم الكنيسة، أنه كثيرا ما كان يسمع يوسف يردد بعض الألحان الطويلة، فيسأله متعجبا ولكن يوسف كان يرد مستخفا بنفسه، وبأنه كان يحفظ الكثير منها لاسيما وهو حديث السن ولكنه أصبح وقد نسي أغلبها.

وفى ذات مساء فوجئ الأب الكاهن بطرق على الباب، ولما فتح الباب فوجئ بيوسف يقف في حياء على بعد من الباب، غير أنه كان في صورة بهية، لم يره عليها مطلقا من قبل خلال ثلاثين سنة مرت عليه

معه، فقد كانت ثيابه نظيفة.. ووجهه يلمع وقد دس قدميه في حذاء جديد..

ودهش الكاهن، فهى المرة الأولى التي يأتي فيها إلى بيته دون أن يطلبه، فدعاه إلى الدخول، فتردد قليلاً قبل أن يدخل فى حياء شديد، إذ كانت هذه هى المرة الأولى أيضا التى يدخل فيها داخل البيت، وجلس فى وقار أمام الكاهن الذي دعاه للجلوس.. وبعد فترة من الصمت تخللتها بضع كلمات متفرقة وتقليدية، قال يوسف :

- جئت إليك اللية في أمر هام.

- خيرا...

- نعم، فأنت تعرف كم لي من السنين هنا وأنا معكم.

- بالطبع فأنت معنا منذ مايزيد عن الثلاثين أو الأربعين عاما.

- كيف كنت أخدم الكل بفرح وأتمم عملي بقدر ما أستطيعه من أمانة محاولا ألا أقصر في شئ.

- نعم.. ولكن ماهو الأمر.. ماذا تقصد...

- إنني أشعر بقرب رحيلي.

فقال الكاهن مداعبا :

- أنت ماتزال شبابا.. أطال الله فى حياتك.. أنت بركة لنا ياعم يوسف..

- عفوا.. بل إني خاطئ ومسكين، ولكن لي طلب عندك أرجو ألا تردني عنه أو تتعجب له.

- إذا كان فى استطاعتي فلن أتردد في تحقيقه لك.

- أود أن تسمح لي بأن أصلى القداس غدا.

وتخيل الكاهن أن يوسف يود التقدم للتناول، ولهذا يطلب إعفاءه من بعض الالتزامات، أو ربما يحتاج إلى «حلّ» ، فقال له :

- طبعا وبكل سرور، يمكنك التناول غدا - محالل مبارك!-

- كلا يا أبى.. بل أريد أن أخدم القداس.. أرفع أنا الذبيحة..

ودهش الكاهن.. وصدمته المفاجأة وظن لأول وهلة أن الرجل قد أصابه مس من الجنون، وتمعّن فيه طويلاً ، وسرح بفكره، وتذكّر بعض المواقف التى شعر فيها بغموض الرجل الجالس الآن أمامه، وبأن سرٌ ما يكتنف حياته، فقال :

- ماذا تقصد ؟!

- أعنى ماقلت، ثم بلهجة فيها من الجديّة أكثر ممّا فيها من التوسّل:

أريد أن أكون الكاهن غداً.. إنّى راحل.. ولهذا أودّ أن أودّع المذبح.

وازدادت دهشة الكاهن وهم بّأن يعيد الرجل إلى صوابه، فأنتهره بلطف، غير أن الرجل استطرد فقال :

- نعم يا أبى.. إنه السرّ الكبير الذى كنت أحتفظ به طيلة هذه السنين وأنا بينكم، ولم أبح به لوالدك.. ولم أكن أنوي الافصاح عنه لأحد، لولا أن الوقت قد حان.

وهنا شعر الكاهن بالخوف، فكلمات الرجل تنذر بمفاجأة خطيرة، وبدأ يظهر عليه القلق، فقال مضطربا :

- وما هو هذا السر ؟

– نعم يا أبى ، **فأنا راهب قس وقمص**

وعقدت الدهشة لسان الكاهن، وقفز من جلسته، ووقف مشدوها لا يصدق وتفرس طويلا فى الرجل الذى أعاد ما قال، فى هدوء وثقة وثبات : كلمة كلمة...

وهنا تهاوى الكاهن فى مقعده وهو يتصبّب عرقا، وطلب إليه بتوسل أن يقص عليه قصته، وما الذي دفعه إلى هذا السلوك الغريب، وأردف طلبه بوابل من الاعتذارات عن كل ما صدر عنه مما ضايق الرجل.. فلم يخل الأمر طوال تلك السنين، من انتهار بين آن وآخر.. إلى تجاهل غير مقصود.. فان أفضل معاملة تلقاها يوسف، هو معاملة غير قاسية لعامل طيب مخلص.

- ٢ -

قال الرجل:

منذ ثلاثين عاما، كنت قد التحقت بدير (......) وكان لى هناك قلاية لطيفة عشت فيها ثماني سنوات، فقد دخلت إلى هناك وسني لايتجاوز الرابعة والعشرين، وعشت في سعادة غامرة، كان معي فى الدير ثلاثة من الرهبان كانوا من مدينتي وكنت أتعزى بهم.. وكان عملي بالدير هو تصنيع الطوب الرملي والذي كان له عندنا في الدير، ماكينة بدائية الصنع، وكنا نستخدم الطوب في بناء بعض القلالى والمرافق ، ثم اتضح إن المبانى المقامة بمثل ذلك الطوب، غير صحية مطلقا، فقررنا فى الدير قطع الحجارة من الجبل لاستخدامها بدلا من الطوب.

صمت الرجل قليلا .. فراح الكاهن يحثه على مواصلة الحديث.

- كان المحجر الذى سنقطع منه الحجارة يبعد عن الدير مسافة كيلو مترين، ولم تكن إمكانيات الدير تسمح باستئجار قاطعي الأحجار، فكنت أبدأ عملي في التاسعة صباحا لأقوم بعمل حفرة فى الأرض الحجرية على بعد متر واحد من الحافة، ومن ثم أضع فى الحفرة وتدا خشبيا ضخما ونقوم بالضغط عليه قبل أن نشبعه بالماء ونتركه ليوم كامل، وحينئذ يزداد حجم الوتد فيضغط على الحجر فيحدث به شرخا طويلا فنقوم بتقطيع هذه الشريحة إلى قطع مناسبة وبعد ذلك نضعها فوق العربة الكارو.

والعربة لها قصة طريفة..

وهنا دخلت زوجة الكاهن وهى ترتجف من الخوف وفى يدها صينية الشاي وبعض الحلوى، فقد سمعت الحديث بكامله، وأشار إليها الكاهن لتجلس فجلست تستمع ومازال آثار دموعها على خديها..

ثم أردف الرجل..

نعم.. قلت لك أن الدير لم يكن به عمال، وكانت العربة الكارو ذو العجلتين يجرها حمار، وكنا قد مهدنا الطريق من المحجر حتى باب الدير، فبعدما أضع الحجارة فوق العربة، أوجه الحمار ناحية الدير، فيجر العربة إلى هناك حيث ينتظرها أب آخر يفرغ حمولتها ثم يفعل الشئ ذاته إذ يوجه الحمار ناحية المحجر وهكذا.. وكنا نحب الحمار ونشفق عليه ونلاطفه كثيرا ونطعمه بقدر مانستطيع، ولم نكن نعتبره مجرد حيوان

أعجم، بسبب أنه صار يفهمنا جيدا ونفهمه كذلك.

وكنت أعمل حتى الرابعة بعد الظهر فيما عدا يوم الأحد من كل أسبوع.

- من كان يبنى لكم إذن؟

- كان من بيننا اثنين من الرهبان ملمان بحرفة البناء، كلما رأياني يلومانني برفق ودعابة.

- حجارتك ليست مستوية

فأرد معتذرا

- الاستقامة من عند الرب.

وكنت فى يوم الأحد من كل أسبوع، أخرج إلى البرية، ومعي عصا طويلة تعينني فى السير فوق الرمال.. واستمر في السير حول الدير لساعتين أو ثلاثة..

وفي السنتين الأخيرتين لى هناك، كنت قد تشجعت فى أن أسير بعيدا عن الدير لمدة أطول، وفى ذات يوم استأذنت أبى رئيس الدير فى أن أتغيب يوم الاثنين عن العمل ووافق لعلمه أن ذلك إنما من أجل رغبتى فى الهدوء والخلوة، وطلب إلىّ أن أصلى عنه، ولكن أين ذهبت فى هذين اليومين ؟ لقد سرت من صباح الأحد بعد القداس الإلهي، وبعدت عن الدير حوالى أربعين كيلو مترا، وعندما مالت الشمس للمغيب، واضطررت للمبيت فى الصحراء، نمت فى ظل صخرة كبيرة بعد أن رشمت ذاتى بعلامة الصليب ورسمت دائرة حولي.

وصمت الرجل وشرد طويلاً قبل أن ينتبه على صوت الكاهن وزوجته يحثانه على المواصلة.. وكان الكاهن عندئذ يتخيل الرجل فى ملابسه الرهبانية !!

أردف الرجل قائلا :

بكرت فى الصباح لأواصل سيرى، وتلذذت بذلك، وأحسست بالغربة عن الدير وأخوتى تجذبني نحو الله وتهبني الهدوء الذى أنشده وتجعل ذلك الخط الذي يربطني بالله سليما غير منقطع، **فلم أعد إلى الدير!!** سرت هائما على وجهى لمدة شهرين من الزمان، ومن ثم وبعد صلاة طويلة، قررت **ألا أعود ثانية إلى الدير**.

- فأين ذهبت ؟ (قال الكاهن بينما زوجته الطيبة تجلس إلى جانبه خائفة).

- نزلت بكوخ أحد الأعراب الذى احتفى بي وترك لي كوخه ليسكن هو في كوخ آخر بالقرب منه، وعملت معه في رعى الأغنام لمدة شهرين، أرسلت خلالها إلى أبى الروحي عن طريق البريد استأذنه في أن أكمل حياتى على هذا النحو، أو على نحو مشابه، وقلت له أن يرسل لي رده بأسمى العلمانى (يوسف) وأملاني الاعرابى عنوانا لأقاربه فى المدينة، طلبت من أبى أن يرسل لى عليه وهنا قاطعه الكاهن

- ماذا كان اسمك فى الدير ؟

- توماس.. كان اسمى القمص توماس

- اكمل من فضلك..

- وصلنى خطاب أبى الروحي وكان مكتوبا فيه عبارة واحدة

(تشدد وتشجع والرب معك) وكاد قلبي يطير من الفرح وأحسست بلذة الحرية، واتساع الأفق أمامي وكأن أبواب غنى مجد الله قد انفتحت ولم يعد هناك من مانع لكي آخذ وأغترف.

واشتهيت أن أتناول من الأسرار المقدسة، وسألت ذلك الأعرابي عن أقرب كنيسة فأشار إلى كنيسة هذه البلدة، حيث تبلغ المسافة من الكوخ إليها حوالي خمسة عشر كيلو متراً، فجئت إلى هذه القرية وبالطبع فقد كانت ملابسى عادية وقد لبست طاقية مثل التي ألبسها الآن فلم يكن هناك أي فارق بيني وبين أي رجل أخر سوى هذه اللحية وهى صغيرة جداً كما ترون.

وفى يوم من الأيام التى جئت فيها لأتناول ، تأخر القداس فى البداية طويلاً، وعرفت - بطريقة عابرة - أن السبب فى ذلك يرجع إلى تأخر عمل القربان، فقد ترك القيّم البلدة غاضباً وليس من يحل محله وبنفس كفاءته.

وهنا هز الكاهن رأسه وتمتم ببعض كلمات مؤمناً بكلام الرجل.

وتوجهت لفوري إلى والدك نيح الله نفسه، وعرضت عليه القيام بتلك المهمة، وسألني هل تعرف فقلت له نعم فقد كنت اصنعه في قريتي، ويمكنك أن تجربنى وتختبر صدق قولى غداً فوافق لاسيما وأنه لم يكن هناك من بديل وقتها، ففرح حينئذ ووافق، وقمت بصنع القربان ليومين متتاليين، سر به الأب أيما سرور، وطلب إليّ أن أحيا معهم وأعطاني هذه الحجرة بعينها، ومن ساعتها عشت على هذا النحو ولم اكشف سرى لأى شخص حتى هذا اليوم..

- ٣ -

الموكب

ما أن انتهى الرجل من كلامه ، حتى وقف الكاهن وصافحه كما يتصافح الكهنة، طلب الحل منه ثم دخل إلى الداخل ليعود سريعاً وهو يحمل ثياباً كهنوتية ليسلمها للرجل ولكن الرجل قال انه يحتفظ بملابسه الكهنوتية والرهبانية.. إنها ماتزال معه في صندوق يضعه في حجرته ، فقال الكاهن.

– انزل الآن يا أبى إلى حجرتك ودعني أنا الليلة أصنع لك القربان، اسمح لي مرة واحدة نتبادل الأدوار.

– أبداً إن هذا لن يكون مطلقاً .. فإني أتمم عملي حتى النهاية..

– إذن قل لي"انك حاللتنى يا أبى توماس وسامحتني.

– من أجل ماذا ؟

– فلربما قد أسأت إليك عفواً أو عمداً .

– لم يحدث شئ من هذا، فقد كنتم لطفاء معي، وإن كنتم قد أسأتم إلى عفواً فلا يحسب عليكم، وإن عمداً فلكم العذر لأنكم لم تعرفونني ، كما إنى أنا الذي اخترت هذا المسلك.

وهنا قال الكاهن كمن يصدر أمراً ويقرّ قراراً :

– تصلى قدسك غداً، وسأقوم أنا بالترتيب اللازم.. والآن تفضل إلى حجرتك ما دمت مصراً على صنع القربان حتى فى هذه الليلة النادرة والحاسمة.

كانت الساعة عند ذلك قد تجاوزت السادسة مساءاً، حين خرج الكاهن يطوف بيوت تلك القرية وهو يلهث وتتلاحق أنفاسه.. تعالوا.. انظروا تلك الأعجوبة.. يا من هنا ويا من هناك.. اسمعوا وتعجبوا وتحيروا كما يحلو لكم، كيف أن صانع القربان هو راهب كاهن.

يوسف راهب.. يوسف كـاهن.. هيـا يا من ازدريتم به ويامن أهنتموه، هيا نالوا الصفح منه.. وإلتمسوا صلاته.

وتقاطر الناس على الكاهن، يتساءلون فى دهشة بالغة.. والكاهن يروى القصة.. ويعود فيرويها بتفاصيل أكثر، وصرخت بعض النسوة وبكت أخريات، كان مشهداً مؤثراً.. وعرف الجميع أنه سيصلى قداس الغد لم تنم القرية فى تلك الليلة، فقد راح الرجال يستعيدون كل ما كان قد دار بينهم وبين يوسف ففرح كل من كان قد احسن إليه وأحبه ولاطفه، بينما ندم كل من أساء إليه أو حتى احتقره فيما بينه وبين نفسه، كذلك فقد راح الرجال يسترجعون كلماته وتعليقاته..

أسرع بعضهم إلى الكنيسة في تلك الليلة ليروا يوسف ولكنه كان قد انتهى من صنع القربان وأغلق حجرته ولم يفتحها ولم يستجب للطرق على الباب، فقد كان يعرف أنهم إنما سيحضرون ليستطلعوا الأمر منه، ويمطرونه بوابل من الأسئلة حول قصته.

واجتمع كثير من النساء، كل جماعة منهن في منزل إحداهن، يتسامرن ويتهامسن ويروون قصصاً كثيراً من نسج خيالهن عن يوسف وعما سوف يحدث فى الغد.. الخ

فى الصباح الباكر قام الأب توماس بخبز القربان وادخله إلى الكنيسة قبل وصول مرتل الكنيسة (المعلم) وطلائع الشعب، وكان مرتدياً الملابس السوداء، وعلى رأسه طاقية سوداء تحتها الشريط الذي كان يلبسه الرهبان حتى الستينات، وهكذا بدا في هيئة مختلفة.

وحضر المعلم.. وبدأ في ترديد بعض مقاطع من نهاية التسبحة اليومية وبعد ذلك جلس فى ركن (الدكة) يتمتم بعض صلوات.. ثم قال ـ علّ أحد الموجودين يرد عليه ـ ألم يحضر الأب بعد.

ورد صوت من داخل الهيكل، سنبدأ الآن يا معلم ، فتعجب المعلم لأن الصوت القادم ليس صوت الكاهن الذي يعرفه، وإنما هو صوت غريب، وتخيل لأول وهلة، أنه واحد من الأباء الكهنة الذين يدعوهم للصلاة بدلاً منه حين يضطر هو للسفر.. أو بسبب مرض يلم به، غير أن الصوت لم يكن غريباً تماماً.. فأطرق بسمعه ـ ثم قال :

– من ؟!! من قدسك ؟!

– أنا يا معلم.

فهتف المعلم :

– يوسف .. عمو يوسف.. أهلاً .. وأجاب يوسف:

– لا يا معلم بل أنا الكاهن الذى سيصلى، فصمت المعلم قليلا ثم قال :

– ماذا تقصد.. ماذا تعنى؟!

– أعنى ما قلت.. هيا لنبدأ

وهم المعلم أن يصرخ محتجاً، وهنا دخل الكاهن وأخذ المعلم بلطف

من يده وهمس فى أذنه : إصمت.. إنه راهب.. إنه كاهن.. فصرخ المعلم بصوت مكتوم وبطريقته اللطيفة

– ويّ

(كان المعلم قد نام فى بيته مبكراً وكان يحيا في منزله وحيداً بعد وفاة زوجته وسفر إبنيه إلى المدينة، وبالتالى فلم يعرف ماحدث بالأمس) وخرج على الفور، وراح يتمتم ببعض كلمات ليعود بعدها، فيجد الأب توماس قد بدأ في رفع بخور باكر. كان صوته جميلاً رخيماً معزياً ملائكياً، وقد صلى النصف الأول من القداس للقديس غريغوريوس أما النصف الثاني فقد صلاه للقديس باسيليوس (نصفه غريغورى والآخر باسيلى) ورتل الشمامسة خلفه الأسبسمس الآدام والواطس، وبعد إنتهاء القداس تقدم جميع الشعب للتناول وكانوا حوالى ثلاثمائة فرد، وهو العدد الذى نادراً ما يلتئم في القداس الإلهي، في تلك القرية الصغيرة.

وبعد القداس :

وقف فى وقار وريث وأناة يوزع لقمة البركة (الأولوجية) وتقاطر الناس عليه يطلبون صلواته ويستفسرون منه، والبعض يطلب السماح والحل لما قد يكون قد ضايقه منهم وراحت الأمهات يرفعن أصواتهن يطلبن البركة والبعض رفعن أطفالهن وقدمنهم إليه ليباركهم فكان يرشم جباههم بإشارة الصليب، أمطروه بأسئلة كثيرة جداً، غير أنه لم يجب، ولم يفتح فاه بل كان ينظر إلى الجميع فى شفقة وحب.

وفى بعض أركان الكنيسة وقف البعض ينظر إليه باكياً، فلما انتهى هو من توزيع البركة، وكان كاهن الكنيسة برفقته دخل معه إلى الهيكل ثم جذب الأب توماس ستر الهيكل ليفصل بين الكنيسة والهيكل، وبعد

قليل خرج برفقة الكاهن واستأذن الناس الذين كانوا مايزالون في الكنيسة، في أن يمضى إلى حجرته ليستريح قليلاً، وبعد ساعتين تنيح في حجرته.

+ + +

واليوم لايتذكر أهل البلدة أين دفن هذا الأب وأين قبره، البعض يقول أن جسده لايزال تحت أرض تلك الحجرة التى كان يعيش فيها، والبعض الآخر يقولون: لا، بل دفن فى الكنيسة مع بقية أجساد الآباء الكهنة الذين دفنوا هناك.

هذه واقعة حقيقية جرت أحداثها في النصف الأول من هذا القرن، رواها لى أحد شيوخ الدير نقلاً عن راهب من الدير الذى ترهبن فيه ذلك الأب، وقد عرضتها هنا بشئ من التصرف.

دير البراموس فى مايو ١٩٩٧

المحتـــــال

لم يكن راهباً.. كلا، ولكنه انتحل صفة راهب. تردد بين أعمال مختلفة ولكنه لم يوفق فى أى منها، واختفى من بلدته تماماً ليظهر فى بلدة أخرى تبعد جداً عن قريته، واختار لنفسه كوخاً يقع فى منتصف الطريق من محطة القطار حتى القرية.

واتخذ هيئة راهب، وفى بداية تعرفه على الناس، وقف أمام الكوخ فى حياء مصطنع، فلما مر به بعض من الناس، نادى على أحدهم وانتحى به جانباً، ثم أعطاه بعض المال ليشترى له به شيئاً من الخبز والخضر، فأحضره له فى مساء اليوم ذاته فشكره كثيراً فى وقار كثير مع بعض الدعوات غير التقليدية، وعرض عليه ذلك الشخص أن يقضى له حوائجه، كلما اتسع الوقت لذلك، فتمنع قليلاً قبل أن يظهر فرحه ورضاه بذلك.

وأحبه وصار صديقه...

فى البداية سأله كثيراً عن السبب فى مجيئه إلى ذلك المكان، ولماذا يسكن هذا الكوخ؟، فلم يجب بشئ وآثر الصمت، فاحترم مشاعره.

وسمع الناس به مع مرور الوقت تساءلوا عن هويته، وراحوا يمسحون كوخه بأنظارهم كلما مروا من قدامه، وبين آن وآخر كان يخرج ليسأل بعض المارة عن الوقت.. أو عن الشخص الذى يخدمه، وعرض عليه آخرون الاشتراك فى احتياجاته، واستجاب بحياء مصطنع لبعض منهم.

وفى إحدى مسامراته مع البعض عرف منهم عرضاً، أن زوجة أحدهم لاتنجب وأن لهذا الأمر أثراً كبيراً فى تعاسة تلك الأسرة مما قد يهدد استمرار الزواج، وتجاهل ذلك.. وكأنه لم يسمع شيئاً.

ومن بعد عدة أيام أرسل بيد ذاك الذى يخدمه شيئاً صغيراً ليسلمه للرجل الذى حرم من النسل، كان ذلك الشئ هو ورقه صغيرة طويت بطريقة خاصة، وطلب منه أن يحرقها ثم يضع رمادها فى كوب ماء تشربه زوجته وستنجب ولداً تسميه (.....) وفعل الرجل وأنجبت زوجته طفلاً أسمته على اسم ذلك المحتال، تكريماً له !!

وانتشرت الأخبار بين الناس، ونسبوا إليه من المعجزات والأشفية مالم يحدث مطلقاً ، فينظرون إليه نظرتهم لقديس أنعم الله به على قريتهم ويتوافد عليه الناس ومعهم الهدايا والمال، وتسأله إحداهن:

– هل يعود زوجى من الجبهة ؟

– يعود.. (ثم بعد صمت قصير) ولكن بعد فترة.. الزوج بعد فترة . يعود.

وتسأله أخرى: هل تلد البقرة ؟ وينظر إليها طويلاً دون أن يجيب... فتقفل راجعة من عنده وهى متشائمة .

وتقاطر عليه الناس من كل جهة يسألونه فى أمور مختلفة، فها هوذا (رامى) يطلب إليه أن يفتح له الكتاب علّ الإمتحان يجئ من الموضع الذى يفتحه عنده.. وهوذا بعض التجار وبعض الحرفيين والمزارعين.. وهو يجيب بإجابات مختلفة حسبما تنزلق الكلمات على

لسانه، فيصيب بعض الكلام ويخفق الآخر.. وعندما يراجعه البعض في عدم تحقق نبؤته، يرجع ذلك إلى خطايا وشرور السائل!!

ويصدّق نفسه.. يكذب ويبالغ كثيراً حتى يصدق أنه عالم بالغيب!! وتتهمه بعض الأصوات بالاحتيال والخداع، فتهب أصواتاً أخرى لتدافع عن قداسة الرجل ومصداقيته، فأحاط به السذج والجهال وتزداد سطوة الرجل.

ويسمع به بعض اللصوص فيهاجمونه ليلاً، ويصيبونه بجرح بسيط قبل أن يستولوا على المال الذى عنده ويفروا هاربين، ويسمع بهذا بعض الذين يترددون عليه من القرى المجاورة، فيقوموا ببناء حجرة له من الطوب ويجعلون لها باباً من الخشب!!.. ويستنفر فى البداية من السكن فيها، قبل أن يوافق مسروراً فى أعماقه، فقد تثبتت مكانته بينهم وقداسته قد شاعت، ومن ثم فقد وجد من يهتم بإعاشته وينقل إليه ألواناً من الطعام والشراب والفاكهة والهدايا، بل ويدافع عنه!!

وأصبح يمتهن ذلك النوع الحقير من العمل، بدلاً من أن يعمل فى مهنة شريفة، يبذل جهداً وعرقاً فى سبيل الحصول على قوته، ولكنه رأى فى ذلك مالاً يأتى بسهولة وكرامة بغير وجه وورعاً لايكلفه إلا بعض النفاق، فراح يخدع الناس ويتظاهر بالقداسة، فاستفحل أمره وتزايدت سطوته.

وسأله أحد السكان ذات مرة عما يجب عليه أن يفعله تجاه جيرانه الذين يزعجونه ويتربصون به.

فصمت طويلاً قبل أن يوصف له وصفة غبية، قال له ضع هذه الورقة فى كوب ماء مدة ساعتين وبعد ذلك رش الماء على حائط جيرانك وبجوار الباب.

ولمحه جيرانه وهو يفعل ذلك فثارت ثورتهم وجذبوه إلى الداخل وراحوا يضربونه حتى كادوا أن يحطّموا أضلاعه، وأما الورقة التى أخذها من المحتال فقد كانت فارغة وبيضاء!!

واختلف الناس بخصوص رأيهم فيه وبعض المثقفين الشبان بدأوا فى محاورته ومعارضته، ولكن ذويهم راحوا يحذرونهم من مغبة معاداته، خوفا عليهم من الأذى فقد يغضب عليهم!! بل أن بعض البسطاء من الأمهات، رحن يعتذرن له عما بدر من أبنائهن تجاهه، وقال لهن :

- كلنا خطاه.. الله يغفر للكل.. أنا أصلى لأجلهم..

ولم يقل ذلك إلا ليزداد كرامة وتبجيلاً فى أعينهن فيقولون عنه أنه قديس ومتسامح حتى مع أعدائه...

وخاف على مكانه... وخاف على مكانته.. وراح يفكر فى حيلة كبيرة يجذب بها انتباههم ويجمعهم حوله.. فيأمر فيهم وينهى.. فقد فاجأهم ذات صباح، وهو يقف أمام باب الحجرة يصرخ بأعلى صوته :

- من لم يتب فليتب.. ومن هو شرير فليتعظ.. قولوا لنسائكم وأولادكم.. استعدوا.. لقد راحت أيام المرح واللعب.. لينظر كل منكم إلى نفسه وإلى حاله.. عند تمام الشهر ينتهى العالم ويأتى المسيح!!!

وذعر الناس وتقاطروا عليه يلتمسون مزيداً من التفاصيل ويمطرونه

بوابل من الأسئلة والاستفسارات، وبدا هو جامد الوجه، جاد القسمات، يقول بثقة وبالحرف الواحد

– عند نهاية الشهر ينتهى العالم.. وتنقلب الدنيا ويأتى المسيح واختلطت أصوات سامعيه وسألوه ؟

– كيف .. فى أى ساعة .. لماذا...

فأعاد ما قاله كلمة كلمة :

– عند نهاية الشهر ينتهى العالم.. تنقلب الدنيا ويأتى المسيح.

وانتاب الناس قشعريرة وخوف ورعب لا قبل لهم بمثله، وتوقف الكل عن أعمالهم ولزموا ديارهم، وكست وجوه الناس مسحة من الكآبة، حتى الأطفال شعروا بالخوف، فتوقفوا عن اللعب والتصقوا بأمهاتهم.

قال إميل لأمه :

– حقاً يا أمى يأتى المسيح ـ هل سيهدم بيتنا ـ وأين نذهب.. هل ألعب.. وآكل الشكولاته...

فنظرت الأم بحسرة والدموع تترقرق فى عينيها، فأعاد سؤالها، وحينئذ ضمته بقوة إلى صدرها وبكت فخاف وبكى هو الآخر...

وتوقفت الأعمال فى البلدة، فقد ترك المزارعون زراعاتهم وجلسوا فى بيوتهم إلى جوار زوجاتهم وأطفالهم، وأمتنع التلاميذ عن الذهاب إلى مدارسهم، وأغلق الباعه حوانيتهم، وتوقفت النساء عن إعداد الطعام وأكتفوا فى المنازل بالخبز وبعض الجبن والبقول، قالوا :

– لماذا نطبخ ونعمل ونزرع ونغسل.. إنها أيام وينتهى كل شئ...

والعجيب أن تلك الأخبار لم تجعل الناس يتوبون عن خطاياهم، بل لقد شغلتهم عن التوبة !! لقد شغلوا فقط بما سيتركونه.. وفكروا فى الرعب الذى سيحل عليهم فى ذلك اليوم وكيف سيموتون... الخ

وسمع الأب الكاهن فى القرية القريبة والتى بها الكنيسة حيث يذهبون للصلاة، وتضايق، وبعد قداس يوم الأحد، وكانت الكنيسة قد امتلأت عن آخرها بالمصلين، قال الكاهن :

- إن فكر الكنيسة الذى تسلمته من السيد المسيح هو أنه لايقدر أحد أن يعرف اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها المسيح، بالتالى فعلينا أن نكون مستعدين دوماً لملاقاة المسيح، وقد لاينتهى العالم فى زمننا هذا ولكن كل من يموت منا فسوف يلتقى بالمسيح هناك والأمر فى الحالتين واحد، ولذلك أرجو أن تعتبروا نهاية العالم كل يوم فتتخلّصون من السلبيات فى حياتكم وتنتهى الخصومات من بينكم وتجتهدون فى تقديم التوبة عن خطاياكم..

أما إعطاء مواعيد لمجئ المسيح، فمن شأنه أن يجعل الناس يتبلدون متى جاء الموعد المحدد ولم يأتى المسيح، كما أن قلقكم هذا وتعبكم إنما يدل على عدم استعدادكم لأبديتكم.. انصرفوا الآن إلى دياركم وعودوا إلى أعمالكم وحوانيتكم وزراعتكم والأطفال إلى مدارسهم.. إن مخافة الموت ترعب الرجل الناقص كما يقول الكتاب المقدس وقاطعه أحدهم :

- هل يكذب إذاً من قال لنا ذلك ؟

- لا أقدر أن أتهم إنساناً ولكن أرجو أن تحتاطوا دائماً وتسلكون

بتعقل ولاتضطربوا لأى خبر.. ولاتسعوا إلى معرفة الغيب إنما عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح واجتهدوا ثم ثقوا بعد ذلك فى عناية الله بكم ومحبته لكم، فإن كل من يجعل ثقته فى الله واتكاله عليه، يقيم الله من نفسه عائلاً وضامناً له ومسئولاً عنه ثم باركهم وصرفهم بسلام.

وصلت أخبار توعية الكاهن بالشعب إلى مسامع ذلك المحتال ، فصار فى ضيق وتخبّط.. فها هوذا الأيام تمر واحداً تلو الآخر، وانقسم الناس إلى عدة فرق.. والبعض صدّق النبوة الكاذبة فخرج من القرية قبل الموعد بيومين يمشى فى المدينة بلا هدف.. ويسأل الناس هناك.. هل سمعتم بأن المسيح قادم يوم السبت.. فيندهشون ومنهم من يستفسر منه ومنهم من يتجاهل قوله وينصرف عنه، ويرى الحياة فى المدينة تسير كما كانت دائماً.. فيتشكّك ويتعجّب.. والبعض الآخر تبلدت مشاعره.. وأصبح فى غير مبالاة أو اكتراث، والبعض الثالث.. يتردد على الراهب يراجعه فيما أعلن، فيؤكد لهم من جديد ما قاله.. ويتخذ هيئة الواعظ والنبى الذى يتحسّر على الشعب وينذر بالكارثة.

ولم تثمر هذه النبوة ثماراً روحية..

واقترب اليوم الموعود، والناس ما بين مصدق ومكذّب، ولزم الناس بيوتهم عشية ذلك اليوم، والتصق أفراد الأسرة بعضهم بالبعض الآخر، وراحوا يتمتمون بكلمات توسل المرعوب، وساد سكون رهيب فى تلك القرية ولم ينم أحد طوال الليل ، حتى إذا ما تخطّت الساعة منتصف الليل راح الناس يتوقعون الكارثة بين لحظة وأخرى.. ومر نصف اليوم بسلام ومازال الناس يتوقعون انفجاراً هائلاً، ودوت فرقعة

صغيرة خارج أحد المنازل فصدرت عن أفراده صرخة مدوية سمعت فى البيوت التى حوله فتجاوب صراخ سكانه .. ثم ما لبث الصوت أن تلاشى ليحل محله ذلك الصمت الرهيب - حتى إذا ما حل المساء سرت فى الأبدان بعض الطمأنينة، غير أنه كان ما يزال باقياً من اليوم أربع ساعات قضوها متأرجحين ما بين الراحة والذعر.

+ + +

وراح هو يسترجع سنين حياته منذ كان طفلاً والتعاسة التى استقبل بها طفولته والخلافات المستمرة فيما بينه وبين والديه من جهة، وبين كل من والده والدته من جهة أخرى ، إنه يتذكر الآن الليالى التى قضاها مطروداً من بيته والليالى التى مرت عليه دون طعام ، والحرمان الذى ذاقه، وكيف أنه ترك تعليمه واتجه إلى العمل فلم يستمر فى عمل واحد أكثر من أسابيع معدودة، وكان أصحاب تلك الأعمال يعذبونه كثيراً، ومنهم من اتهمه بالسرقة وسلمه إلى الشرطة التى أودعته فى مؤسسة الأحداث لمدة عامين، خرج بعدها ليتلكأ فى الطرقات يلتمس قوته فى مهانة وذلة.

كان كل مطمعه أن يصير غنياً ومشهوراً غير أن ذلك لم يكن له ما يؤهله إليه من علم أو كفاءة أو حتى قوة جسدية، حقيقى أنه كان بديناً وطويل القامة لكنه كان مترهلا من ذلك النوع الذى يميل إلى الاسترخاء ، إلى أن سمع عن أحد النساك الذى يحيا فى مغارة بالجبل وكيف يحبه الناس ويوقرونه وينظرون إليه بكثير من الإحترام والوقار، بسبب قداسته الحقيقية.

فحسنت فى عينه الفكرة، وجاء إلى هذا المكان ونجح كثيراً فى خداع الناس، غير أن شيئاً ما كان ينغّص عليه حياته، وهو شعوره الدفين بأنه كاذب.. وليس له الحق فى هذه الكرامة وتلك الهدايا والأموال .. وعجز عن أن يواجهه نفسه وينصرف إلى العمل الشريف، ولكنه سريعاً ما يطرد عنه أفكار التبكيت ليهنأ بمجاملات الناس وحبهم.

وها هو اليوم متورط فيما لم يحسب له حساب من قبل . فقد شاء الله أن يفضحه للناس ويكشف سره، وقد قارب ذلك اليوم من المجيء.. وعذبته الأفكار ولم يستطع الهرب من المكان.. فإلى أين يذهب.. وقنط.. واظلّمت الدنيا فى عينه.. ولم يسع إلى التوبة واصلاح حاله.. فقرر التخلص من حياته.. فتناول السم فى عشية ذلك اليوم.

ومر اليوم بسلام وتنفس الناس الصعداء، غير أنهم خرجوا من بيوتهم فى الصباح واجتمعوا جمعاً غفيراً وهم مصممون على مواجهة ذلك المضل، وبالفعل فقد اتجهوا إلى حجرته على الطريق، ولشدة ما كانت دهشتهم عندما اكتشفوا هناك أنه قتيل فى حجرته!!

وانتشر الخبر كالبرق بين الآخرين ، وتقاطر الناس إلى هناك وأُبلغ البوليس فجاء ثم تبعته النيابة، وبدأت التحقيقات.. واستدعى الطبيب الشرعى، الذى أثبت أن الوفاة جاءت نتيجة الانتحار. وقرروا دفن الجثة هناك فى نفس الحجرة بعد أن رفض أى من الأهالى دفنها فى مقبرة عائلية أو مقابر الصدقة ومن ثم فقد وضعت الحراسة على المكان الذى دفن فيه ولمدة ثلاثة أشهر.

ولقد قرر التخلص من حياته، لأنه لم يكن قادراً على مواجهة الناس، متى جاء ذلك اليوم الذى حدده لنهاية العالم دون أن يحدث شئ

فقتل نفسه، وهدأت مشاعر الناس بعد أن ثبت لهم كذبه وتحقق لهم خداعه.

واليوم يشيع بعض من مريديه - ويصرون على قولهم - بأن قديسهم (ذلك المحتال) قد صلى بحرارة إلى الله لكى ينقذ العالم ويهب البشرية فرصة أخرى علّهم يتوبون وفى مقابل ذلك يموت هو بدلاً من الناس ليهبهم فرصة التوبة !!!

وهكذا استمر مخادعاً حتى بعد موته .

دير البراموس/ مارس ١٩٩٧

الفهـرس

القصـة	الصفحة
إنطلاق	٩
غريب	٢٣
علامة على الطريق	٤٥
فقراء ولكن	٦١
التجارة بالحب	٩٣
عند الغروب	١٠٥
نعم حرب يا راهب	١١٥
دعوة إلى وليمة	١٣٥
وأحفظك حيثما تذهب	١٤٣
حب أعظم	١٦٥
الطريق	١٧٣
اجراء وأبناء	١٨٧
هوان ومجد	١٩٩
تضحية أب	٢٠٩
محبة المسيح غربتنى	٢٢٣
الطريق والطريقة	٢٣٣
الراهبة فى معسكر النازى	٢٤٧

القصــة	الصفحة
راهبات دير شاموردينو	٢٦٣
فكرة	٢٧٣
صانع القربان	٢٨١
المحتال	٣٠١

كتب أخرى للمؤلف

دراسات في العهد القديم:

١) تفسير سفر طوبيا
٢) تفسير سفر يهوديت
٣) تفسير سفر حكمة سليمان
٤) تفسير سفر يشوع بن سيراخ
٥) تفسير تتمة أستير ودانيال وصلاة منسى والمزمور ١٥١
٦) مدخل إلى سفري المكابيين
٧) تفسير سفر المكابيين الأول
٨) تفسير سفر المكابيين الثاني

كتب تاريخية ودراسات:

٩) الرهبنة الحبشية
١٠) شهداء نجران
١١) بيلاطس البنطي
١٢) التلمود (نشأته، تاريخه، بعض من نصوصه)
١٣) الهيكل: الطقوس والاحتفالات كما كانت تتم في أيام السيد المسيح (مترجَم)
١٤) مدخل إلى الموسيقى القبطية (طبعة تحضيرية)
١٥) دراما الصلب

سير آباء:

١٦) الأنبا موسى الأسود
١٧) الغريبان الصغيران (القديسان مكسيموس ودوماديوس)
١٨) الأب عبد المسيح الحبشي
١٩) الأب بنيامين المتوحد
٢٠) الأب عبد المسيح صليب المسعودي البرموسي
٢١) الأب تادرس الأنبا بولا (حكاية راهب في القلاية المجاورة)
٢٢) شهداء العهد القديم

كتب روحية:

٢٣) التلمذة الروحية
٢٤) الميطانيات
٢٥) شبابنا وفكر الرهبنة
٢٦) معلمين كثيرين
٢٧) كيف أحيا عفيفًا
٢٨) العمل الفردي
٢٩) محاسبة النفس
٣٠) تقديس الحاضر
٣١) حياة التسليم
٣٢) الشكل والجوهر
٣٣) نظرة الله إلى الخاطئ
٣٤) تأليه الأشياء وتشييء الأشخاص
٣٥) الحياة الأبدية
٣٦) تكوين العادة
٣٧) لماذا يقبل شباب الأقباط على الرهبنة؟
٣٨) الخادم بين الازدواجية والمصداقية
٣٩) فضيلة الشكر
٤٠) فضيلة النسك
٤١) مفتدين الوقت
٤٢) تعرّف على الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
٤٣) أُجراء وأبناء (مجموعة قصصية)
٤٤) عين الماء (مجموعة قصصية)
٤٥) الأكل – احتياج بيولوجي أم عمل مقدس
٤٦) التدين السليم
٤٧) الخادم والجندية للمسيح
٤٨) الدالة الرديئة
٤٩) العثرة مسئولية
٥٠) المخدع – سُكنى الله مع الناس
٥١) الملل – الحرب الباردة
٥٢) الهوامش
٥٣) أهمية العقيدة
٥٤) صيد السمك وصيد الناس
٥٥) حتى لا نفقد أولادنا – ملاحظات حول الارتداد
٥٦) وأطلب الضال وأسترد المطرود
٥٧) العذراء فرح الأجيال

هذه القصص صدرت من قبل ، في اجزاء منفصلة ،
وطبع بعضها ١٠ طبعات وقد تحول بعضها الى مسرحيات
قدمت في الكنائس وقد ضممناها هنا في كتاب واحد
ليسهل اقتناؤها معاً

١٢٫٠٠